

مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول

بحوث

المؤتمر الدولي حول

القدس في العهد العثماني


IRCICA



مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول

بحوث
المؤتمر الدولي حول
القدس في العهد العثماني

دمشق، ٢٢-٢٥ حزيران ٢٠٠٩

إستانبول ٢٠١٢



Yıldız Sarayı, Seyir Köşkü, Barbaros Bulvarı
Beşiktaş 34349 İstanbul, Türkiye

هاتف | 1742 259 212 90+
فاكس | 4365 258 212 90+

www.ircica.org
ircica@ircica.org

بحوث المؤتمر الدولي حول
القدس في العهد العثماني: دمشق، ٢٢-٢٥ حزيران ٢٠٠٩
إستانبول ٢٠١٢

سلسلة دراسات حول القدس و فلسطين | ٣

ISBN 978-92-9063-244-3

بيانات الفهرسة

المؤتمر الدولي حول القدس في العهد العثماني (٢٠٠٩ : دمشق، سورية)
بحوث المؤتمر الدولي حول القدس في العهد العثماني: دمشق، ٢٢ - ٢٥ حزيران ٢٠٠٩ =
Proceedings of the International Congress on al-Quds during the Ottoman Era: Damascus, 25-22 June 2009 /
اشراف خالد أرن.- استانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ٢٠١٢.
٤٩ ، ٢٠٧ ص: صور؛ ٢٤ سم.- (سلسلة دراسات حول القدس و فلسطين؛ رقم ٣)
يحتوي قائمة ببليوغرافية.
النص باللغة العربية والانجليزية.
ISBN 978-92-9063-244-3
١. القدس (فلسطين)--التاريخ--الامبراطورية العثمانية، ١٥١٧-١٩١٧ -- المؤتمرات. ٢. القدس (فلسطين)-- المؤتمرات.
I. أرن، خالد، 1953- II. العنوان. III. السلسلة.
956.944203--dc22

إشراف | الدكتور خالد أرن
الإعداد للنشر | الدكتور صالح سعداوى، زينب دوروقال، الدكتورة گولر دوغان آوربك
التصميم | محمد نور آنبارلي  muhammednur@gmail.com
الطباعة و التجليد | Ultra Grafik

فهرس المحتويات

تقديم

الدكتور خالد أرن
المدير العام

نأمل أن يكون هذا الكتاب إضافةً قيمة لأدبيات تاريخ القدس وأن يخدم قضية القدس الشريف القائمة. وهو كتابٌ يضم أعمال المؤتمر الدولي حول "القدس في العهد العثماني"، وثمرةُ جهد وعمل جماعيين حول مصادرَ ودراسات تناولت تاريخ مدينة القدس؛ والهدف منه هو زيادةُ المعرفة وتعميق فهم هذا التاريخ وتقييم حالة الأبحاث حول هذا الموضوع وإنشاء قاعدة للتعاون من أجل تطوير الدارسات في هذا المجال. وعلاوةً على ذلك، يسلّط المؤتمرُ والكتابُ مرةً أخرى الضوء على أوجه عدّة للقدس بقصد لفت انتباه الرأي العام العالمي حول قضيتها. وإرسيكا، بصفته مركزًا متفرعًا عن منظمة التعاون الإسلامي التي تضم ٥٧ دولةً عضوًا ومكلفًا بالأبحاث حول الحضارة الإسلامية والحفاظ على التراث المعماري والتعاون الدولي، يخصّص جانبًا من فعالياته لمدينة القدس. ولما كانت قضية القدس وفلسطين وراء تأسيس منظمة التعاون الإسلامي فقد وضعها إرسيكا نصب عينيه. وكما هو معروف، فإن الضرورة الملحة للحفاظ على التراث الإسلامي لمدينة القدس لا تزال تنمو يومًا بعد يوم. وفي تعامله مع هذه القضية البالغة الأهمية بالنسبة للمسلمين، يُنظّم إرسيكا برامج بحثية وندوات ودراسات ميدانية ويضعُ تقارير علمية وتقنية ويَنشر هذه الوثائق لتكون متاحة في جميع أنحاء العالم. وفي هذا السياق نُظّم المؤتمرُ الذي أسفر عن هذا الكتاب بالتعاون مع وزارة الثقافة في سورية، في دمشق، في عام ٢٠٠٩م وها نحن ننشر بحوثه في لغاتها الأصلية.

ومنذ بداية عمله فقد أولى إرسيكا اهتمامًا كبيرًا لتطوير الأبحاث حول تاريخ القدس وتراثها. وقد اعتمد في دراساته حول الحقبة العثمانية على وثائق الدولة العثمانية الموجودة في الأرشيف العثماني باستانبول والتابع لرئاسة الوزراء التركية. وأول كتاب ناتج عن هذه الدراسات أصدره إرسيكا عام ١٩٨٢م يحمل عنوان أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين. وقد استمرت هذه الدراسات، وحاليًا يقوم بدراسة دقيقة لهذه الوثائق الرسمية من أجل تجميع وثائق شاملة عن تاريخ القدس في القرون الماضية. فهذا جانب من أنشطته الأرشيفية والوثائقية حول موضوع القدس. أما الجانب الآخر فيرتبط بألبومات قصر يلدز للصور الفوتوغرافية التي يعود تاريخها إلى عهد السلطان عبد الحميد الثاني وهي جزء من أرشيف إرسيكا للصور الفوتوغرافية. وقد أدرجت الصور الفوتوغرافية المختارة من هذا الأرشيف في ألبوم موضّح صَدَر في عام ٢٠٠٩م باللغات العربية والتركية والإنكليزية وهو يضم ٤٦٨ صورة فوتوغرافية عن القدس. وقد نُشر هذا الألبوم بمناسبة إحياء الذكرى الأربعين على تأسيس منظمة التعاون الإسلامي نظرًا لأهمية موضوعه

بالنسبة للمنظمة. وهو يسلّط الضوء على تراث القدس الثقافي والمعماري والمتعدد الأديان خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. وفي عام ٢٠٠٩م نشر إرسيكا كتابًا آخر في مجلدين بعنوان الأوقاف الإسلامية في القدس الشريف وهو دراسة تاريخية موثقة أعدها الدكتور محمد هاشم غوشه. وزيادةً على ذلك، يضطلع إرسيكا منذ سنوات عديدة ببرامج طويلة المدى تتضمن القيام بأبحاث وبأنشطة عملية وتعليمية حول التراث العمراني والمعماري للقدس. وأحد هذه الأنشطة هو برنامج "القدس ٢٠١٥" الذي يشمل إجراء دراسات حول التراث الإسلامي للمدينة وتسجيله والحفاظ عليه. وبهذا البرنامج الذي يستغرق عشر سنوات والجاري منذ عام ٢٠٠٦م نهدف إلى وضع وتطوير الأساليب والأعمال التي من شأنها الإسهام الإسهام في الحفاظ على التراث الإسلامي للقدس الشريف وتحسين أوضاع الأحياء السكنية للسكان المسلمين من خلال تعبئة الخبرات والتعاون التقني الدولي. وقد تقدّم البرنامج بشكل جيد من خلال الحلقات الدراسية والتقارير والمهمّات الميدانية، كما نُشر كتابٌ يحتوي على نتائج الأبحاث ومقالات بحثية أعدّها عدد من الخبراء في هذا المجال. وثمة نشاط آخر يتعلق بالقدس ويتمثل في تحميل بيانات ومعلومات وصفية حول المواقع الأثرية والمعالم التاريخية للقدس الشريف وإدخالها في قاعدة بيانات التراث المعماري الإسلامي التي يحتفظ بها إرسيكا. فهذا استعراضٌ موجز لأنشطتنا الخاصة بتاريخ القدس وتراثها.

لقد تقرر عقد المؤتمر الذي أسفرت أعماله عن صدور هذا الكتاب في إطار التعاون الثقافي القائم بين الحكومة السورية وإرسيكا منذ سنوات. وتشمل التظاهرات الثقافية والعلمية التي تم تنظيمها في وقت سابق، الندوة الدولية الأولى حول آفاق تنمية فنون الزخرفة في حرف العالم الإسلامي اليدوية -الأرابسك (١٩٩٧م) في إطار برنامج إرسيكا لتنمية الحرف اليدوية، والمؤتمر حول بلاد الشام في العهد العثماني (٢٠٠٥م) في سياق سلسلة مؤتمرات إرسيكا حول تاريخ العالم الإسلامي خلال العصر العثماني.

وقد عُقد المؤتمر حول تاريخ القدس في عام ٢٠٠٩م تحت رعاية رئيس مجلس الوزراء السيد ناجي عطري، في إطار برنامج دمشق عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩م. وقد تم افتتاح معرضين اثنين نظّمهما إرسيكا بهذه المناسبة ويضم أحدهما وثائق من الأرشيف العثماني، بينما يضم الثاني صورًا فوتوغرافية تاريخية مختارة من أرشيفه. وتميّز المؤتمر أيضًا بجلستي عمل تناولتا الوضع الراهن للقدس الشريف وعُقدتا في اليوم الأخير وكنتُ تحدثتُ خلالهما عن أهمية التراث الإسلامي الثقافي والمعماري للقدس الشريف باعتباره رمزًا دائمًا للهوية الإسلامية للمدينة وعن الحاجة الملحة للحفاظ عليه. وقد تناول المؤتمر في مجمله مجموعةً واسعة من المواضيع تهدف إلى تطوير الأبحاث وزيادة وعي الجماهير حول تاريخ القدس وتراثها.

وأود هنا أن أعرب عن شكري وتقديري لحكومة سورية، وخصوصًا وزارة الثقافة، ووزير الثقافة معالى الدكتور رياض نعسان آغا لتعاونهم على تنظيم المؤتمر. كما أعرب عن تقديري لجميع الذين ساهموا في هذا المؤتمر وفي هذا الكتاب ببحوثهم ودراساتهم، آملاً أن يستمر هذا التعاون في المستقبل خدمةً للقدس وفلسطين وقضيتها.

البحوث

كتابات وزخارف قبة الصخرة

د. أحمد المفتي*

يحدّثنا المؤرخون وعلماء الآثار أن سكّان مدينة القدس والقرى المحيطة بها يرجعون إلى أصل كنعاني، وأن لغتهم الأصلية هي الكنعانية.

ويقودنا ذلك إلى أن جذور كتابتنا العربية التي تطورت من الآرامية إلى الأنباطية قد انحدرت من الكنعانية الأم التي ولدت في هذه المنطقة من بلاد الشام، وظلت محافظة على جذورها بالرغم مما تعرضت له من محن وغزو وإبادة، وتمت بشكل طبيعي حتى وصلت إلى ما هي عليه اليوم.

لقد خضعت القدس عبر تاريخها للمصريين زمن تحوتمس الأول (١٥٥٠ ق. م) كما في ألواح تلّ العمارنة، وفي عهد تحوتمس الثالث (١٤٧٩) ق.م، وظلت كذلك زمن امنحوتب الثالث وأخناتون، ورمسيس الثاني (١٢٩٢ ق.م) وكانت مصدراً للأخشاب الثمينة، وفي سنة (٧٣٠ ق. م) غزاها الآشوريون بقيادة ملكهم شلمنتصر، وفي سنة (٥٩٩ ق. م) خضعت لنبوخذ نصر، وأصبحت مستعمرة بابلية، وفي سنة ٥٣٩ ق.م خضعت لكورش الفارسي، ثم للاسكندر سنة ٣٣٢ ق. م، ثم للرومان سنة ٦٣ ق. م ولبيزنطة سنة ٣٣٠م، ثم كان الفتح العربي الإسلامي سنة ١٥هـ/٦٣٦م.

احتلت القدس المكانة السامية الرفيعة في قلوب المسلمين منذ بدء الدعوة الإسلامية، فهي القبلة التي اتجه إليها النبي صلى الله عليه وسلم في صلاته قبل المسجد الحرام في مكة، وهي التي قال بحقها: لا تشد الرحال إلاّ لثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى، وفيها نزلت الآية الكريمة: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله».

---

* كلية الفنون بجامعة دمشق

ضمت القدس إلى الشام سنة (٢١هـ/٦٤١م) وخضعت لحكم معاوية مؤسس الدولة الأموية، وبعد وفاته (٦٠هـ/٦٧٩م) انفصلت الحجاز بقيادة عبد الله بن الزبير عن جسم الدولة، وتبعتها العراق، واليمن ومصر، وانقسمت الشام إلى قيتية ويمانية، وكان نائل بن قيس الجذامي يميل إلى ابن الزبير فسارع مروان بن الحكم فأعاد مصر وقضى على نائل، وتولى الخلافة عبد الملك بن مروان في غرة رمضان (٦٥هـ/٦٨٤م) وابن الزبير على الحجاز والعراق واليمن، وفي جمادى الآخرة من سنة (٧٣هـ/٦٩٢م) قضى الحجاج على ابن الزبير بعد عشر سنين من الخصام، تنازع فيها الخلافة خليفتان واحد في دمشق والآخر في مكة.

في سنة ٦٦هـ/ ٦٨٥م فكّر الخليفة استبدال ظلة الخشب التي فوق الصخرة والتي كان عمر رضي الله عنه قد أمر بها ببناء ضخم يليق بالدولة الإسلامية بعد أن شاهد عظمة الأبنية البيزنطية والرومانية، فوكل اثنين من رجاله هما رجاء بن حيوة، ويزيد بن سلاّم ببناء قبة الصخرة، ورصد لذلك خراج مصر لسبع سنين، وشرع البناؤون في البناء سنة ٦٦هـ، وفرغوا سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م. ونقش اسم عبد الملك على البناء.

إن ما يعنينا من دراستنا هذه لقبة الصخرة التي تعد من أجمل آثار الفن الأمويّ، تلك الكتابات التي تزيّن الجزء الأعلى من الرسوم النباتية الفسيفسائية بشريط يبلغ طوله ٢٤٠ متراً، وهو من أهم المصادر التي تصور الحرف العربي الذي تطور مع الزمن ليصل إلى حالته التي هو عليها.

لم يكن الخط العربي قبل الإسلام وفي صدره فناً من الفنون، وإنما كان وسيلة لتأريخ الأحداث والأمور المعاشية والأفكار، ولم يكن العرب قد تذوقوا بعد جمال بنية الحرف، وإنما ارتقوا في نظر الحرف بحسهم الموسيقي وبنية الحرف على الكلمة. ولم تكن الكوفة التي خطّها سعد بن أبي وقاص بأمر الخليفة عمر رضي الله عنهما سنة سبع عشرة للهجرة والتي نسب إليها الخط، وأصبحت زمن الخليفة علي كرم الله وجهه موطن العلم والكتابة، لم تكن الكوفة هذه إلا موطن صرف تنازعت فيه مع البصرة أمور الفقه والنحو والقراءات. أما جمال الحرف بهيبته وفتنته، فقد تشكل مع نشوء وتطور الحضارة الإسلامية. وإن شريط الكتابة في قبة الصخرة الذي استخدم فيه الحرف العربي لأول مرة بشكله الجلي، لهو دليل على طواعيته وبنيته الجمالية في زخرفة العمارة الإسلامية، كما تشكل الآيات القرآنية المنتقاة من سورة آل عمران في هذا الشريط صورة الحرف وأسلوب

الكتابة زمن الأمويين من غير ضبط ولا نقط، وقد سطرت بالفسيفساء الذهبية على أرضية زرقاء غامقة، وفي طريقة الإملاء تأثير واضح برسم وإملاء الأنباط، من حذف الألف الممدودة وكتابة التاء المبسوطة وغير ذلك.

وثمّة كتابتان في قبة الصخرة على النحاس (الباب الشرقي والشمالي) وهما من زمن الخليفة عبد الملك، ويكفي الإشارة إلى ما قالته مارغريت فان برشم حين كتبت عن البناء: تملكني العجب بذلك الفن الرائع لأولئك الفنانين، فبينما كنت أقف على سقالة أتفحص الأعمدة المثمنة، على ارتفاع عشرة أمتار عن الأرض لاحظت عن كثب فن وأسلوب أولئك الفنانين الذين تفوقوا على كل ما أنتج في هذا الميدان في الغرب. وقد قادني الفحص الدقيق إلى الاقتناع بأن هذه التحفة الفريدة التي تعود للعهد الأموي، كانت من صنع فنانين سوريين محليين، وليس كما ذكرنا بأنها من صنع فنانين أجانب أتوا من بيزنطة.

لقد أصاب مسجد الصخرة ما أصابه منذ بناه عبد الملك، فمن زلازل وعواصف وأمطار كادت أن تقضي على محاسنه، لولا عناية حكام المسلمين، فإنه ما من حاكم حكم القدس إلا وله بعض فضل في ترميمه، وبحثنا فيما سنقدمه هو ما طال البناء من كتابات ونقوش عبر العصور، ونخصص الحديث لزمن الدولة العثمانية وجهودها الفنية التي قام بها السلطان سليمان القانوني ١٥٦١م والسلطان محمود الثاني، وعبد المجيد، وعبد العزيز وعبد الحميد الثاني، والآثار الجميلة التي تظهر تطور خط الثلث الجلي على يد الخطاط شفيق سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م وشريط القاشاني الذي يحيط ببناء مسجد الصخرة.

وقد سطر فيه سورة تبين بأسلوب مركب بسيط مقروء لا تكلف فيه وبلون أبيض على أرضية زرقاء.

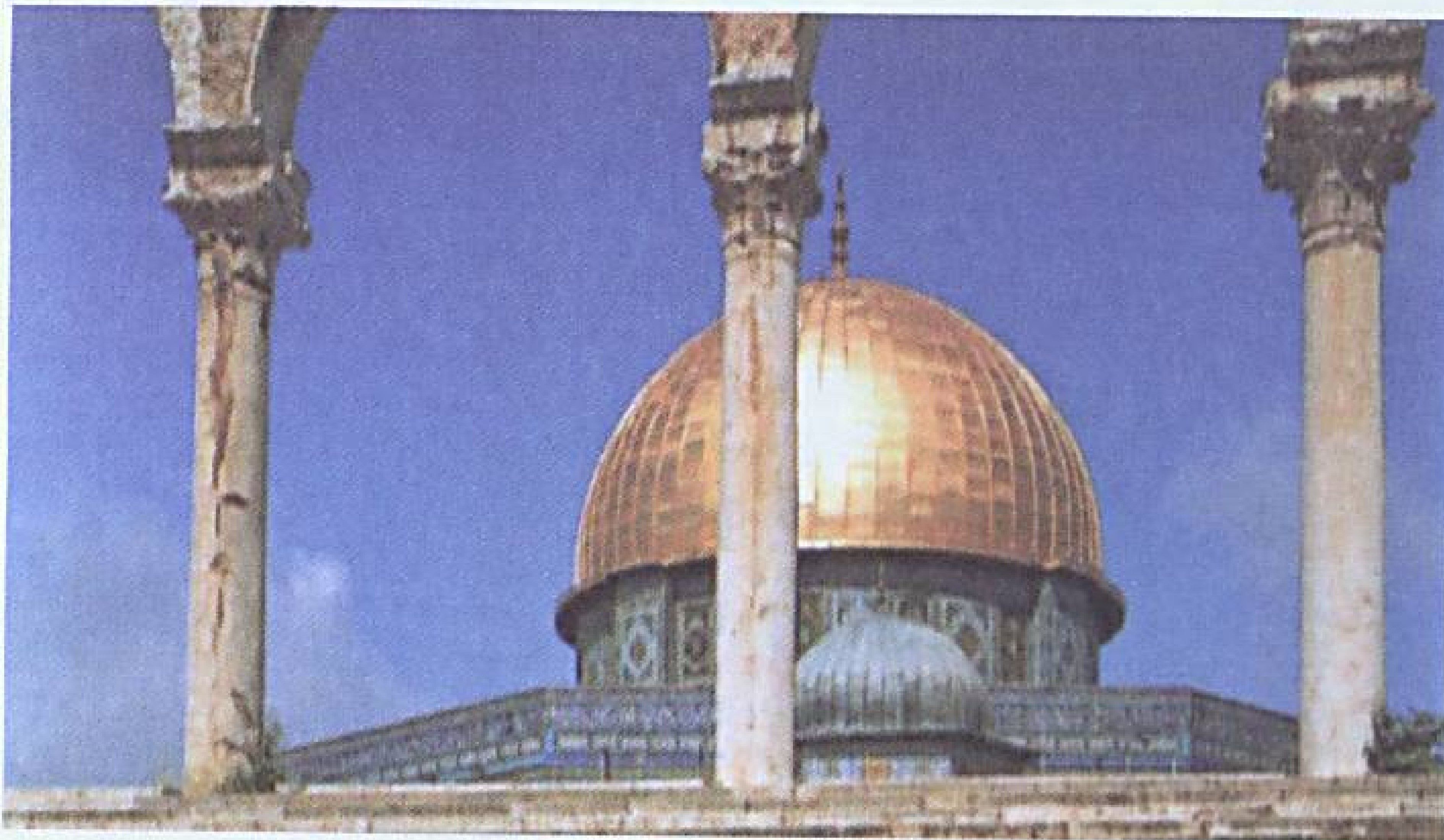
إن مسجد الصخرة آبدة أثرية تحمل خصائص وأساليب الفن الإسلامي في العمارة والزخرفة والخط، وهو أثر غني لعصور إسلامية تميزت بطرز مقررة تغري الباحث على الدرس والاستنتاج والتحليل الذي لم يتناول بعد حتى الآن إلا بشكل بسيط وجهود متواضعة من قبل بعض المستشرقين.. ويحق لنا أن نقدم الجديد والمفيد لآثارنا ومن وجهة النظر العربية الإسلامية.



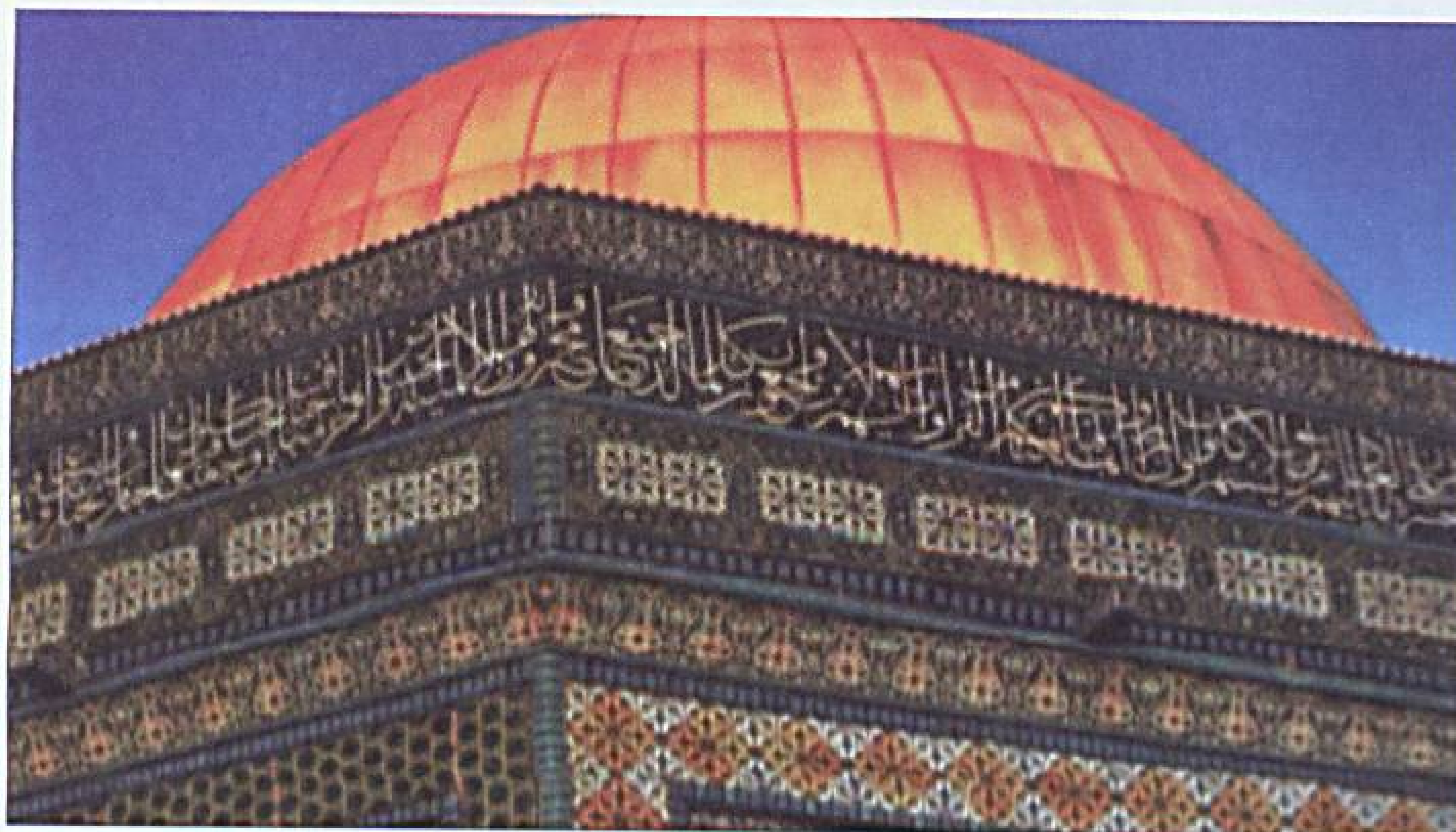
صورة ١



صورة ٢



صورة ٣



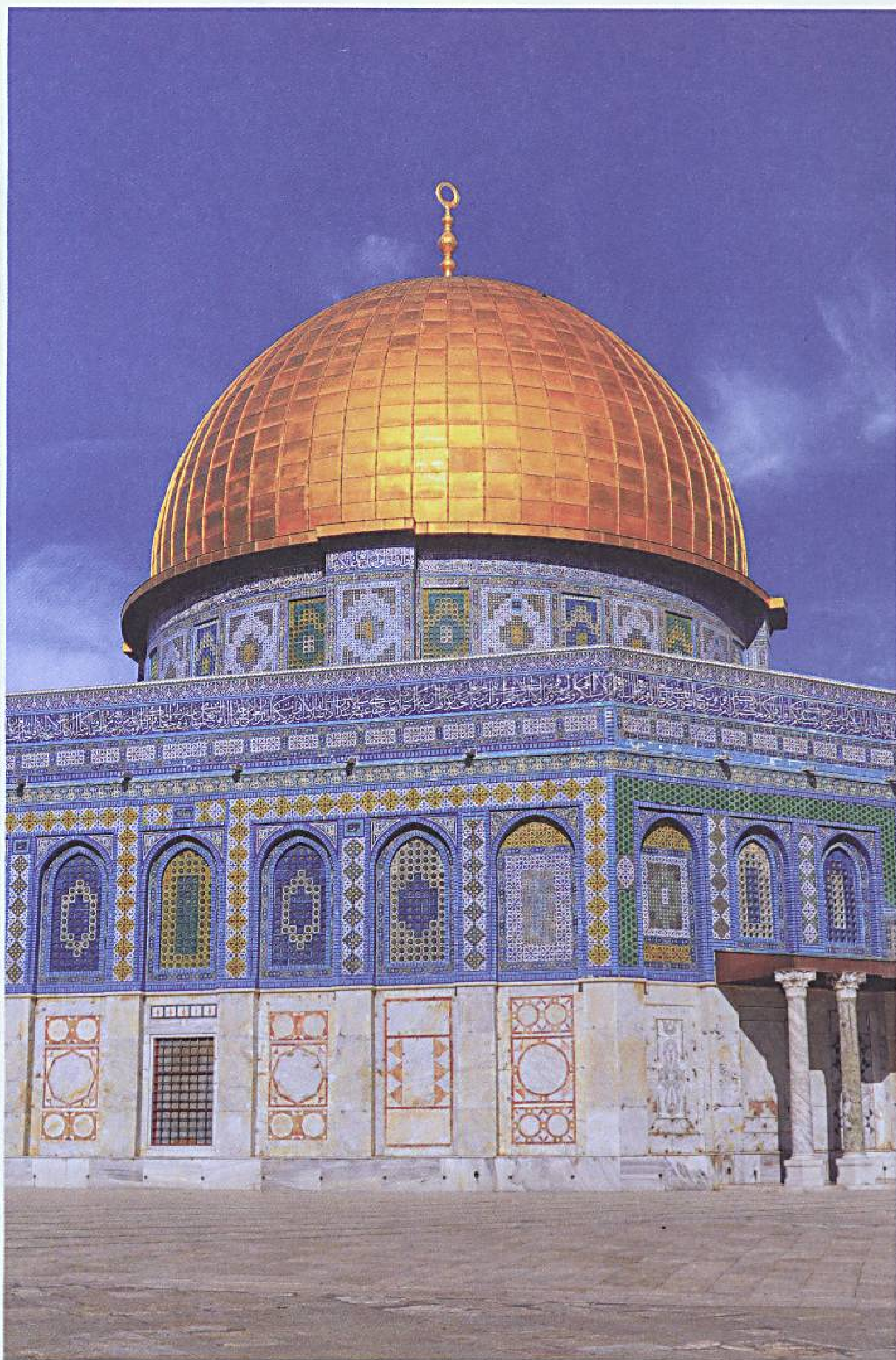
صورة ٤



صورة ٥



صورة ٦



صورة ٧

إسكان عربان «بئر السبع» في جوار القدس
في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

د. أسماء رمضان الشيخ خليل*

شكل العربان في فترة الدراسة أحد التحديات الهامة التي واجهت الدولة العثمانية حيث اعتبروا أحد نقاط الاضطراب التي أوجبت على الدولة ضرورة استخدام سياسة خاصة في التعامل معهم، كما شكلت القدس موضوعاً هاماً بالنسبة للدولة العثمانية بسبب النشاط اليهودي المسيحي في فلسطين هذه الفترة.[١]

تباينت تبعية القدس الإدارية خلال الفترات التاريخية المختلفة فلواء القدس بداية كان يتبع لولاية الشام. وفي سنة ١٢٥٧هـ/١٨٤١م اقتطع لواء القدس وغزة من ولاية دمشق، وضما لولاية صيدا، التي ضمت لاحقاً أجزاء أخرى من فلسطين.[٢] وبهذا أصبحت الأجزاء الجنوبية من فلسطين تتبع ولاية صيدا.

وأصبحت القدس ولاية مستقلة يحكمها الباشا الذي يتلقى أوامره مباشرة من الباب العالي، سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م.[٣] ثم أعيد ضم القدس لولاية صيدا سنة١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م، واشتملت القدس على سبعة أقضية.

ولما أصدرت الدولة العثمانية قانون الولايات سنة ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م أعادت تنظيم ولاياتها في بلاد الشام التي ضمت ولاية سورية، وولاية حلب.[٤]

وضم لواء القدس إلى ولاية سورية، التي ضمت عدداً من الأقضية هي: القدس، الخليل، غزة، يافا، بيت لحم، الرملة.[٥]

---

* الجامعة الأردنية – عمان

١ Y. Ben Arieh, *Jerusalem in 19th century*, p. 115

٢ عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا (١٨٦٤ – ١٩١٤)، ص ٧١، بهجت صبري، لواء القدس تحت الحكم العثماني، ص ٣٢؛ عادل مناع، تاريخ فلسطين، ص ١٩٧.

٣ Y. Ben Arieh, *Jerusalem in 19th century*, p 115؛ بهجت صبري، لواء القدس، ص ٣٣.

٤ عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا (١٨٦٤ – ١٩١٤)، ص ٦٩.

٥ بهجت صبري، لواء القدس، ص ٣٤ . ٣٥.

في سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م أصبحت القدس مرتبطة مركزياً مع العاصمة ومتصرفية مستقلة عن ولاية الشام ولها إدارة مستقلة بها تتبع الباب العالي مباشرة.[٦] يأتمر المتصرف فيها بأوامر وزير الداخلية في العاصمة استانبول،أما قصبة بئر السبع فتبعت إدارياً لواء غزة.[٧]

إن عملية إسكان البدو في المناطق الريفية، كانت سياسة متبعة في الدولة العثمانية منذ بدايات قيامها ككيان سياسي،[٨] واتبعت هذه السياسة في الولايات العربية كما هو الحال مع باقي الولايات الأخرى التابعة لها. إذ قامت بتوطين البدو وذلك باعطائهم الأراضي للاستقرار بها حتى تمنع تعدياتهم على قوافل التجارة من جهة وتعدياتهم على المناطق الزراعية الحضرية فقامت بإسكان العربان بجوار المناطق الزراعية المستقرة.

وفي فترة الإصلاحات التي قامت بها الدولة العثمانية استمرت سياسة التوطين للبدو. وبعد مرور خمس سنوات من بدء فترة الاصلاحات وتحديداً منذ عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م وأصبح يحكم عملية التوطين إدارة مركزية رسمية للتوطين، اذ تم تخصيص مناطق لاستقرار الأعراب وبناء المساكن لهم لتكون بداية لتشكيل القرى.[٩]

كانت المنطقة الجنوبية في فلسطين هي منطقة العربان، إذ تركز وجودهم في قضاء غزة وقصبة بئر السبع، وشكلوا عامل عدم استقرار للمنطقة الجنوبية، فقد أتسمت حياة القبائل فيها بالنزاعات المستمرة وسعت فيها القبائل القوية إلى السيطرة على الأراضي الزراعية، ومن أبرز هذه القبائل قبيلتا الترابين والجبارات، فكثيراً ما نشبت بين القبيلتين نزاعات على الأراضي التي تقع في يد غيرها من

---

٦ فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب، ص٤٥٤؛ عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص ٤٧٤.

٧ عارف العارف، بئر السبع وقبائلها، ص ٢٤٤.

٨ أسماء رمضان، ريف لواء دمشق في القرن ١٠هـ /١٦م،رسالة دكتوراه، الجامعة الاردنية، ٢٠٠٤م.، ص ١٥٠.

٩ M. Ma'oz, *Ottoman reform in Syria and Palestine 1840-1861*, p. 142 وجنكيز أورهونلو، اسكان العشائر في عهد الإمبرطورية، ص ١٥٤.

القبائل، فقد خاضت القبيلتان حرباً على أراضي خان يونس (من قرى غزة).[١٠] كما قامت قبيلة الترابين بغصب أراضي قبيلة أبو عبدون ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م.[١١] كما كثرت أعتداءات قبيلة الترابين كذلك على القرى لأجل السلب والنهب. وكان دور شيخ القبيلة بهذه المنطقة يقوم على توسيع نطاق الأرض الزراعية التابعة للقبيلة واستخدام أسلوب الغزو للسيطرة على الأرض والغصب لها من ملاكها الأصليين، مما أثر سلباً على الانتاج والمصادر الضريبية في الدولة.

كما كانت قبيلة الترابين تفسد بين العربان، فكان يرسل الفارين من أفراد القبيلة إلى النقطة العسكرية عند متصرف القدس الشريف ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م.[١٢] ليتولى أمر تأديبهم، للحد من وجودهم.

أحكمت الدولة العثمانية السلطة الفعلية على قبائل منطقة بئر السبع سنة ١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م وذلك بتوجيه حملة تأديبية إلى هناك بعد اشتعال الحروب بين قبيلة الترابين والعزازمة واستخدمت الحامية العسكرية في هذه الحملة كل وسائل الضرب والتهديد والضغط إذ تم سجن عدد من مشايخ القبيلتين.[١٣]

وكانت اعتداءات قبائل البدو الساكنين في جنوب فلسطين مستمرة على القبائل المقيمة على الحدود المصرية، وعلى القوافل التجارية المتنقلة من مدينة لأخرى في لواء القدس.[١٤] كما كانوا يعتدون على المسافرين الأجانب، ويعطلون المواصلات بين المدينة وضواحيها.

كانت غزة منطقة ذات أهمية استراتيجية لأنها مفتوحة على البحر، ومن الجهة الأخرى تتاخم الحدود المصرية (منطقة سيناء) المحتلة من قبل بريطانيا، وحتى لا يتم استغلال بدو المنطقة للمصالح البريطانية أرادت الدولة العثمانية أن تجعل منطقة التخوم هادئة من الصراعات القبلية.

---

١٠ بهجت صبري، لواء القدس تحت الحكم العثماني (١٤٨٠.١٨٧٣)، ص ٢٠٧؛
M. Ma'oz, *Ottoman reform in Syria and Palestine 1840-1861*, p. 142

١١ الأرشيف العثماني: (DH.MKTO Dosya1850, Yıl 1308)

١٢ الأرشيف العثماني: (DH.MKTO Dosya 1499, Yıl 1305)

١٣ عارف العارف، بئر السبع وقبائلها، ص ٢٤٤.

١٤ بهجت صبري، لواء القدس تحت الحكم العثماني (١٤٨٠.١٨٧٣)، ص ٢٠٩؛
M. Ma'oz, *Ottoman reform in Syria and Palestine 1840-1861*, p. 142

وخاصة مع مخاوف الدولة العثمانية من مشروع هرتزل بجعل سيناء مركزاً لاستيطان اليهود،[١٥] وسماها «فلسطين المصرية» وفكرت الصهيونية في استيطان منطقة العريش ـ شمال سيناء، وحاول هرتزل استمالة بريطانيا لتحقيق المشروع، وتشكلت لجنة سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م من ثمانية أعضاء، وكانت الغاية من هذه اللجنة هي اقامة دولة يهودية في المنطقة المذكورة في إطار الامبرطورية البريطانية، وقد حددت اللجنة أهدافها بإقامة إدارة يهودية في العريش، وايجاد مجالس بلدية يهودية في سيناء بغية استغلال الأراضي، واستيطان اليهود فيها.[١٦]

ونتيجة لاستمرار الصراعات بين قبائل المنطقة، والطموح الأوروبي الصهيوني بها حولت الدولة قصبة بئر السبع إلى مركز قضاء يتبع لواء القدس إدارياً سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠١م،[١٧] وتم فصلها عن لواء غزة. وكان يتبع القدس أقضية (يافا، بئر السبع، غزة، الخليل).[١٨] وتم تجميع القبائل التي تسكن غزة في منطقة بئر السبع، وما ساعد على ذلك توفر المياه في منطقة بئر السبع.[١٩]

والقبائل التي سكنت قضاء بئر السبع سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م هي : العزازمة، الترابين، التياها، الجبارات، الحناجرة،[٢٠] وكانت هذه القبائل منذ سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م تقع ضمن دائرة قضاء غزة،[٢١] والذي تشكل من عدد من القرى.

وأقامت الدولة مناطق حدودية في بئر السبع بين أراضي قبيلة العزازمة من الجنوب والتياها من الشرق والترابين من الغرب حتى تمنع الصراع فيما بينها،[٢٢]

---

١٥ ومنذ سنة ١٥٢٠م كانت هناك هجرات يهودية متقطعة إلى سيناء لأستيطانها في عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤- ١٥٩٦م)، إلا أن هذا المشروع توقف بسبب اعتراض رهبان سانت كاترينا في سيناء على وجود اليهود وتقديم شكوى بذلك إلى السلطة العثمانية بالقاهرة، وانتهى الامر باصدار قرارات تدعو إلى أخراج اليهود من سيناء وتمنعهم من العودة لها. عبد العزيز الشناوي، ص ٩٦٦.

١٦ عبد العزيز الشناوي، ص ٩٦٦-٩٧٢.

١٧ الأرشيف العثماني: (I. DH. Dosya 1830, Yıl 1318 A.H)

١٨ عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص ٤٧٤.

١٩ عارف العارف، بير السبع وقبائلها، ص ٢٤٤.

٢٠ عارف، المفصل في تاريخ القدس، ص ٥٠٠. هذه القبائل كانت في سنة ١٨٧١م تتبع لقضاء غزة. نفس المصدر، ص ٤٧٥.

٢١ عارف العارف، بئر السبع وقبائلها، ص ٤٧٥.

٢٢ عارف العارق، بير السبع وقبائلها، ص ٢٤٤.

وشكلت الزراعة وتربية الحيوانات نمطاً معيشياً هاما لأهل المنطقة.[٢٣] وكلفتهم الدولة بمهمة نقل المؤن إلى معان (جنوب الأردن).[٢٤]

وغاية الدولة من إنشاء مركز قضاء بئر السبع من أجل إسكان العربان ودفعهم للاستقرار في الأراضي،[٢٥] وتأمين حماية أفضل للمناطق المجاورة.

كانت الجهة الإدارية المخولة في إقرار أحوال القضاء الجديد هي متصرفية القدس إلا أن الإيعاز بتطوير القضاء كان يتم من قبل إدارة الباب العالي بفرمان صادر من الحكومة العثمانية لمتصرفية القدس.[٢٦] وكان على متصرفية القدس متابعة التنفيذ والعمل بهذه القرارات الجديدة. إذ كانت القبائل سواء التي سكنت بئر السبع أو غزة تشتكي لدى متصرف القدس من تعديات تتعرض لها، فكان من مهام متصرف القدس النظر بالدعاوى والفصل بالمنازعات التي تحدث بين العربان على الحدود والأراضي.[٢٧]

أي أن متصرف القدس كان الحاكم الإداري على منطقتي بئر السبع وغزة بعد تحديد مناطق سكن القبائل. كما كان عليه الاطلاع والتقييم لأحوال القضائين اقتصادياً.[٢٨]

وقد تتابعت الإجراءات والقرارات العثمانية بحق منطقة بئر السبع بعد أن أصبحت قضاء مستقلاً، من أجل تنظيمها وسرعة إدماجها في التنظيمات المدنية. وتم العمل لإدماجها في أكثر من إطار، الأول: بتنظيم القضاء، والثاني: تنظيم أحوال الناس. وصدرت قرارات عدة من قبل إدارة الدولة العثمانية في الآستانة بشأن منطقة بئر السبع بعد إقرارها كمركز قضاء.

فقد تم عمل تقييم جديد لأحوال قضاء بئر السبع اقتصادياً ووصف بانه قضاء جاف وذلك في سنة ١٣١٩هـ/١٩٠١م وكتب تقرير بأوضاعه من حيث توفر ماء

---

٢٣ زياد المدني، القدس وجوارها، ص ٢٠٩.

٢٤ عادل مناع، تاريخ فلسطين (١٧٠٠- ١٩١٨)، ص ١٨٣.

٢٥ Dosya 1380, Yıl 1318

٢٦ Dosya 2549, Yıl 1319

٢٧ Dosya 95, Yıl 1319

٢٨ Dosya 1325, Yıl 1319

الشرب، وعدد المطاحن فيه، وسائر الطلبات الأخرى التي يحتاجها القضاء، ليتم تحديد الأفكار والاستراتيجيات الملائمة لتطوير القضاء إقتصادياً[٢٩] إذ أن التعرف على وضع القضاء من حيث توافر الماء يعتبر شرطاً هاما لاستمرار الاستيطان السكاني في المكان، وعدم توفره يدفع الدولة لحفر آبار المياه الجوفية. وحتى لا يكون الماء سبباً في نشوء النزاعات بين القبائل الساكنة في المنطقة وإن كانت للشرب فقط.[٣٠] وتعود أهمية وجود الطاحونة بالقضاء كأساس صناعي لطحن المحاصيل التي تزرع في اراضي المنطقة، وتحقيق كفاية المنطقة منها.

كما اهتمت الدولة بإسكان عشائر العربان وربطهم بالارض وذلك بعرض تسهيلات من قبل الهيئة بالقدس من أجل أعمال البناء للأراضي التي أخذها شيوخ العربان من مركز قضاء بئر السبع سنة ١٨١٣هـ/ ١٩٠٠م.[٣١]

وكان من شروط التوطين والإسكان للقبائل التي يتم توطينها تخصيص أرض لتبني عليها بيوتها وتعمل على زراعتها، وكان ترك حياة التنقل والتخلي عن السلاح، وبناء البيوت، وزراعة الأرض المخصصة للعشيرة هي الأحكام الرئيسية في نظام الإسكان.[٣٢]

ما ميز منطقة بئر السبع التي تجمع فيها عدة قبائل من عربان جنوب فلسطين، أنها أصبحت قضاء للعربان تابع للواء القدس (متصرفية القدس)، ودعى القرار إلى إسكان العربان الموجودين في بئر السبع داخل متصرفية القدس، على أن يقوم البائعون بإعطاء الأراضي للعربان بشكل خاص وبدون أجر.[٣٣] وهذا يعني أن مناطق توطين بدو بئر السبع شملت قرى لواء القدس، مما أدى إلى تشتت قبائل بئر السبع في أراضي متصرفية القدس كذلك.

وعملية إسكان عربان بئر السبع كانت عشوائية أعتمدت على من يحظى بالأرض إما بأسبقية وضع اليد عليها أو بتوزيعها على الأفراد، وبعد الحصول على الأراضي

---

٢٩ الأرشيف العثماني: (Dosya 1325, Yıl 1319)

٣٠ جنكيز اورهونلو، إسكان العشائر في عهد الامبرطورية العثمانية، ص ٨٧.

٣١ الأرشيف العثماني: Dosya 2414, Yıl 1318

٣٢ جنكيز أورهونلو، إسكان العشائر في عهد الإمبراطورية العثمانية، ص ٧٨.

٣٣ الأرشيف العثماني: Dosya 2125, Yıl 1318

يتم تسجيل أسماء الأفراد الذين حصلوا عليها، ويتم إبلاغ الدولة بالتقسيمات التي تمت والناس الذين تم إسكانهم، وموقع الإسكان، ويثبت ذلك في دفاتر الإسكان من خلال موظفيها الذين أشرفوا على عملية التوزيع.[٣٤]

وخصصت الدولة العثمانية عام ١٣٢١هـ/١٩٠٤م الأراضي الأميرية والمحلولة في ولاية سورية وبيروت والقدس الشريف لبعض عشائر العربان المهاجرين. وهذا القرار شمل العربان العرب فقط.[٣٥] وبلغت الولايات المعنية بتطبيق القرار وتوجب على هذه الولايات أن ترسل لمجلس الشورى[٣٦] كل الأمور المتعلقة بإسكان العشائر فيها.

كما خصصت الحكومة لشيوخ الجوامع ومدرسي مدارس العربان في قضاء بئر السبع، ألفي دونم لتوطينهم في القضاء وأعطيت الأراضي لهم مجاناً، كما عنيت الدولة بفئة أخرى أرادت ربطهم بمركز القضاء وهم ذوي الكفاءة من العاملين بالفن، وعرضت عليهم أراضي مناسبة للاقامة بالقضاء،[٣٧] أي أن أمر تحديث وتطوير القضاء تم كذلك بتفعيل الهجرة له من قبل أصحاب الحرف الذين جلبوا من خارج القضاء. فالدولة أرادت تطوير وتحضير أهل قضاء بئر السبع، بعنايتها بفئة المتعلمين والشيوخ والفنانين، وهذا يبين دور الدولة العثمانية في تشكيل النسيج البشري وادماجه في البناء الحضاري للدولة، والعمل على تطويره علمياً والعناية به دينياً وفنياً.

وتأخر قرار اشمال سكان قضاء بئر السبع بالإحصاء السكاني في لواء القدس إلى سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩١٠م أي بعد عهد السلطان عبدالحميد الثاني.[٣٨] وكانت مهمة إحصاء النفوس وتسجيلها في دفاتر التحرير، تتبع لمتصرفية القدس، كما هو الحال

٣٤ جنكيز أورهونلو، إسكان العشائر في عهد الامبرطورية العثمانية، ترجمة فاروق زكي مصطفى، ص ٨٣-٨٥.

٣٥ Dosya 785, Yıl 1321, DH. MKT

٣٦ مجلس الشورى: يتألف من الزعماء والأفندية والرؤساء ومشايخ البلاد الذين كان نفوذهم واسعاً بالبلاد وكانت الدولة تلجأ لهم لطلب العون والمشورة وكان يضم ممثلين عن طوائف اليهود، والأرمن، ووصل عدد المسلمين فيه تسع أعضاء، وكانت ترفع قرارات المجلس إلى قاضي القدس، بصفته قائممقام ووالي صيدا لاجل التصديق. عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص ٤٨٢.

٣٧ الأرشيف العثماني: Dosya 2549, Yıl 1319

٣٨ الأرشيف العثماني: Dosya 2900, Yıl 1327, DH.MKT

بتسجيل الأراضي.[٣٩]

وتشكلت مجموعة جاندرمة (عسكر الدرك) في قضاء بئر السبع وخصصت لهم رواتب سنوية سنة ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م.[٤٠]

وكانت الإدارة في متصرفية القدس السلطة الفعلية في تقرير أحوال قضاء بئر السبع قضائياً وأمنياً، إذ تولى متصرف القدس إعتبارا من سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م التعريف بالمتهمين بدعاوى قضائية أو المعفي عنهم في قضاء بئر السبع،[٤١] وتوثق أسماء من اعفي عنهم الاسماء التي يحويها دفتر العدلية.[٤٢]

اتسمت سياسة الدولة العثمانية مع بدو بئر السبع بالمرونة فالاشخاص الذين يرتكبون جرماً أعتبر جرمهم خفيفًا يستوجب العفو عنه وهذا ما ذكر في أحد الفرمانات «لأن الجرم الذي يرتكبه عربان بئر السبع هو من الجرم الخفيف» فعقوبة هذا الجرم إما عقوبة تصل لسنة أو أقل ويحاكمون غيابياً على جرمهم في محاكم غزة والقدس،[٤٣] فقد أتهم أشخاص من خمس قبائل موجودين في حدود مصر من داخل لواء القدس، وهم من المحكومين غيابياً أصدرت الحكومة عفواً غيابياً عنهم.[٤٤]

كما أتبعت الدولة العثمانية سياسة التودد لسكان وعربان بئر السبع، وهو ما أظهرته في فرماناتها الصادرة سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٨م «لنكسب سكان وعربان قضاء بئر السبع المشتتين»، وأصدرت قراراً يقضي بقراءة مولد للاطفال الذين يتم ختانهم، ويقام المولد بالجامع وترسل مصاريف المولد لمتصرف القدس ومنها لنظارة الداخلية.[٤٥] واستمرت سياسة التودد حتى نهاية عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

ورغم التعديات التي قام بها العربان كما ذكرنا إلا أن الدولة العثمانية سعت

---

٣٩ الأرشيف العثماني: Dosya 2208, Yıl 1317

٤٠ الأرشيف العثماني: Dosya 35, Yıl 1319 A.H.

٤١ الأرشيف العثماني: Dosya 2463, Yıl 1318

٤٢ الأرشيف العثماني: Dosya 1257, Yıl 1326

٤٣ الأرشيف العثماني: Dosya 1257, Yıl 1326

٤٤ الأرشيف العثماني: Dosya 2410, Yıl 1318

٤٥ الأرشيف العثماني: Dosya 1157, Yıl 1325

إلى إرضاء القبائل البدوية وخاصة القوية منها خوفاً من تحالفها مع قوى أخرى، كما أرادتها سنداً لها في سياستها في حماية مناطق الريف والمناطق الحضرية، وشجعت المعاملات التجارية بينهم وبين الحضر لإجبارهم على الاستقرار.[٤٦]

ووقع على رؤوساء العشائر إلقاء القبض على المتمردين،[٤٧] وصد غارات الاشقياء وحماية المنطقة التي يقيمون فيها، ليشكلوا بذلك قوة ضبط محافظة على الأمن في المناطق التي يقومون بعمارتها وكانت قبل ذلك خرابات نتيجة تعرضها الدائم للغزو من القبائل الأخرى. وحل شيخ القبيلة محل الدولة في إدارة شؤون القبيلة.[٤٨]

وبسبب الدور الأمني لرؤساء العشائر في القضاء كانت الدولة تشارك في الأعطيات التي تعطى لشيوخ عربان بئر السبع كبدل للطاعة والولاء للدولة والسلطان العثماني، وصرفت لهم من خلال الباشا في متصرفية لواء القدس. ويتم كان بعدها إرسال صورة بالسندات المحررة إلى الداخلية ثم إلى نظارة المال، وفيها أسماء الاشخاص المستفيدين من تلك الأعطيات.[٤٩]

وقام مشايخ القبائل الكبيرة كمشايخ قبيلة الترابين بمهام أخرى ففي أحد القرارات ظهر دورهم في التوسط بالصلح بين المتنازعين من القبائل «ملوك العربان».[٥٠]

أما فيما يتعلق بدعاوى الأراضي فقد كلفت إدارة المجالس بالمحكمة الجديدة المكونة في قضاء بئر السبع بالنظر فيها، وصدرت هذه الفرمانات في نهاية فترة حكم السلطان عبد الحميد سنة ١٣٢٤هـ /١٩٠٧م(٥١). كما أن استئناف الاحكام الصادرة كان يجري في المحكمة المذكورة.[٥٢]

---

٤٦ بهجت صبري، لواء القدس تحت الحكم العثماني (١٤٨٠. ١٨٧٣)، ص ٢١١؛ M. Ma'oz, *Ottoman reform in Syria and Palestine*, p. 145

٤٧ جنكيز أورهونلو، إسكان العشائر في عهد الامبرطورية العثمانية، ص ٧٩.

٤٨ خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، ص ٢٥١.

٤٩ الأرشيف العثماني: Dosya 1208, Yıl 1325

٥٠ الأرشيف العثماني: Dosya 180, Yıl 1309, DH.MKTO

٥١ الأرشيف العثماني: Dosya 65, Yıl 1324

٥٢ الأرشيف العثماني: Dosya 108, Yıl 1330

أرادت الدولة العثمانية أن تحقق غايتين من إسكان عربان بئر السبع جوار القدس أو في القضاء الذي أصبح تابعاً للقدس. الأول: القيام بفصل المتنازعين ووقف المنازعات بين أفراد القبيلة نفسها وبين قبائل لواء غزة. والثاني: لملء منطقة القدس سكانياً لمواجهة موجات الهجرة اليهودية القادمة من خارج حدود الدولة العثمانية، ولزيادة سلطة الدولة المركزية.[٥٣]

أي عملت على توسيع حد الريف التابع لمدينة القدس، أولا لمواجهة الزيادة السكانية عمليا، وتنظيم تلك الزيادة إدارياً ومالياً.

وبدأت عملية إسكان العربان في جوار القدس منذ سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م قبل أن تصبح منطقة بئر سبع قضاءً. كما استقرت بعض القبائل البدوية من غير قبائل بدو بئر السبع في القرى التابعة للقدس، ومنهم على سبيل المثال عرب السواحرة والشقيرات.[٥٤]

كما عاشت في جوار القدس عشائر هوارة وهنادي[٥٥] وعربان الشربين،[٥٦] وعشيرة مكتبي التي قدمت مهاجرة لفلسطين،[٥٧] كما سكنت عشيرة الرميلان منطقة قضاء القدس ووضعوا يدهم على أراضي بالقضاء فتم إرسال العسكر ليقوموا بمعاينة هذه الأراضي والكشف عنها وإعطائهم الإذن باستغلالها.[٥٨]

مما سبق يمكن القول إن سياسة الدولة العثمانية في ولاياتها نحو العربان اختلفت من فترة لأخرى حسب تحركات العربان، فإذا ما أصبحت لديهم توجهات بالتمرد ضد الدولة ففي هذه الحالة لا بد من استخدام سياسة القمع والقوة، أما إذا اقتصرت تحركاتهم على الصراعات القبلية فيما بينهم أو الإضرار بالمناطق الريفية وغيرها من الأسباب التي أوردناها فكانت تعمل على توطين البدو في مناطق مختلفة، وبالنسبة للدولة كان التوطين أحد مصادر الدخل الجديدة، إذ ستفرض

---

٥٣ أنظر أسماء رمضان، ريف لواء دمشق في القرن السادس عشر (دراسة اقتصادية ادارية إجتماعية)، دار الراية، عمان، ٢٠١٠، ص ١٥٠.

٥٤ زياد المدني، القدس وجوارها، ص ٢٠٩.

٥٥ الأرشيف العثماني: Dosya 87, Yıl 1311. Y. MTV

٥٦ الأرشيف العثماني: Dosya 381, Yıl 1315, Y. A. HUS

٥٧ الأرشيف العثماني: DH. ID. Dosya 160-2, Yıl 1331

٥٨ الأرشيف العثماني: Dosya 62, Yıl 1324 DH. TMIK. S

الضرائب المختلفة على الأعراب الذين يتم توطينهم.

كما عملت الدولة العثمانية بعمليات إسكان أخرى في القدس فقامت بإسكان رعاياها القادمين من البلقان في القدس، إذ أصدرت قرارات عُنيت بالمهاجرين المسلمين القادمين من ولايات الدولة العثمانية عن طريق أزمير إلى يافا، وإسكانهم في صيدا الداخلة بسنجق القدس. وتكفلت الدولة بمصاريف نقل هؤلاء المهاجرين[٥٩] الذين تعرضوا للقتل والتهجير.

وتم تأمين مصاريف إسكان المهاجرين المسلمين في القدس عن طريق فرض عوائد بريدية، وطلب من متصرف القدس ١٣١٧هـ/١٨٩٩م اتخاذ الإجراءات المتعلقة بهذا الخصوص،[٦٠] كما توزعت مصاريف إسكان المهاجرين من العوائد البريدية على أكثر من ولاية عربية، إذ كلفت الدولة ولايات مناستر وحلب وبيروت إضافة للقدس سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م[٦١] بتحملها، وصدرت قرارات بإسكان المهاجرين القادمين من السودان إلى القدس سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م.[٦٢]

إذاً القرارات الصادرة عن الدولة العثمانية بالنسبة للإسكان بجوار القدس شملت العربان والمهاجرين المسلمين الذين لم يكونوا عرباً. وأصدرت الدولة العثمانية قراراً يقضي بوقف المزايدة العلنية على الأراضي في جوار القدس وذلك بسبب التجاوزات التي تمت من قبل أهالي العشائر البدوية والمهاجرين المسلمين الذين تم إسكانهم في جوار القدس في سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م.[٦٣]

كما يعود اهتمام الدولة العثمانية بإسكان العربان في هذه الفترة المتأخرة إلى رغبتها في مواجهة الهجرة اليهودية إلى القدس. إذ أن الكثير من المهاجرين اليهود كما المهاجرين المسلمين اضطروا للهجرة من البلقان ما بين سنة ١٧٨٣م-١٩١٣م.[٦٤] وقد تم إسكان اليهود المهاجرين في مناطق مختلفة من ولايات الدولة العثمانية

٥٩ الأرشيف العثماني: Dosya 506, Yıl 1317

٦٠ الأرشيف العثماني: Dosya 2264, Yıl 1317.

٦١ الأرشيف العثماني: Dosya 2342, Yıl 1318

٦٢ الأرشيف العثماني: Dosya 509, Yıl 1318

٦٣ الأرشيف العثماني: Dosya 2188, Yıl 1316

٦٤ فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب، ص ٤٥٠.

مثل بورصة وآيدين، وكانت هذه محطتهم الأولى قبل التوجه إلى فلسطين.[٦٥]

بدأت هجرة اليهود من رعايا الدولة العثمانية إلى القدس بوقت مبكر، إذ استطاعوا أن يشكلوا أغلبية سكانية في المدينة المقدسة بعد سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م.[٦٦]

ومما يؤكد هذا الأمر ذلك الفرمان الذي أصدرته الدولة سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م وجاء فيه أن قبائل عربان غزة ومدير معارف القدس دعوا إلى بطلان هجرة اليهود القادمين كجماعة إلى القدس من بلاد مختلفة.[٦٧]

وتعددت طلبات الحصول على الإذن بالإستقرار في القدس، إذ طلبت مباشرة من السلطان والحكومة المركزية باستانبول.

فقد طلب يهود (جاهجة) - وهم من اليهود المهاجرين من ولايات الدولة العثمانية - الاذن بالعيش بحرية في استانبول والقدس، وقدموا استراحاماً بذلك للسلطان عبد الحميد،[٦٨] ولم يصدر قرار بمنعهم من الهجرة لفلسطين أو القدس.

وقد كان لأصحاب الأملاك اليهود بفلسطين الدور الكبير في تقديم التسهيلات لليهود المهاجرين بتوفير المساكن بأنفسهم، فشرعوا بالبناء لاستقبال اليهود المهاجرين للقدس. ومثلت تلك الفترة حركة التسابق اليهودي للاستيطان في القدس وجوارها.

وتبين الوثائق حجم الأملاك التي تملكها اليهود في القدس وجوارها، ورغبة اليهود المتملكين بالبناء على الأراضي التي يملكونها، والذي يتطلب إذناً من الدولة، فقد أعطي موسى بن يعقوب الإذن بالبناء على أرضه في قرية عين كارم/ تابعة للقدس،[٦٩] والحاخام ميشون على أرضه في قرية سلوان الذي سيبني بيوتاً لفقراء اليهود،[٧٠] والكثير من مثل هذه الأمثلة وردت في دفاتر المهمة العثمانية تبين أذونات البناء التي منحتها الدولة العثمانية لأولئك اليهود.

---

٦٥ الأرشيف العثماني: Dosya 64, Yıl 1331

٦٦ الأرشيف العثماني: Dosya 5, Yıl 1308

٦٧ A. Levy, *The Jews of Ottoman Empire*, Princeton: Darwin Press, 1994, p. 149- 150

٦٨ الأرشيف العثماني: Dosya 59, Yıl 1319

٦٩ الأرشيف العثماني: Dosya 1518, Yıl 1305

٧٠ الأرشيف العثماني: Dosya 1426, Yıl 1304

إن المرونة في الهجرة إلى فلسطين والقدس، تتعلق فقط باليهود المهاجرين من رعايا الدولة العثمانية فقط. وتظهر الوثائق العثمانية قرارات عدة صادرة من الباب العالي لمنع الهجرة اليهودية من غير رعاياها، والتضييق الذي أظهره السلطان العثماني على اليهود الأجانب، وذلك بإصدار قرارات تمنع من دخول اليهود الأجانب إلى فلسطين والقدس، إذ منعت الدولة العثمانية اليهود الموسويين القادمين من أوروبا وروسيا بشكل خاص، وحظرت عليهم السكن بأرض فلسطين،[٧١] كما دعت إلى تبليغ سفارات الدول الموجودة بالقدس بقرار منع الموسويين القادمين من دول غربية إلى القدس وجوارها من الإقامة فيها أكثر من شهر.[٧٢]

كما قيدت الدولة العثمانية دخول اليهود إلى القدس بحمل جوازات (تذكرة) تبين سبب ذهابهم إلى الأرض المقدسة، وفرضت على من يرغب بذلك أن يحصل على تذكرة مرور من الدولة العثمانية مدتها ثلاثة أشهر.[٧٣]

وفي قرار مبكر يعود لسنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م منعت الدولة العثمانية سفارة دولة بريطانيا من قبول اليهود البريطانيين ومنعت دخولهم للبلاد. وفرضت على يهود الدول الأوروبية عرض وثائق السماح بالدخول على الدولة العثمانية، وفرضت على سفارات الدول الأوروبية التي بالقدس أن تأمر اليهود المتأخرين، بالعودة إلى دولهم وطلبت إخراجهم بالقوة.[٧٤]

وقد دعت الدولة العثمانية إدارتي سوريا والقدس للتنبه إلى موضوع إسكان اليهود الموسويين في أرض فلسطين، وخاصة أن البارون روتشيلد تملك الكثير من الأراضي الداخلة في حيفا إضافة إلى إنشائه عدداً كبيراً من البيوت فيها لإسكان المهاجرين الممنوعين في هذه الأراضي.[٧٥]

وقد منحت الدولة العثمانية امتيازات لروسيا وذلك بتقديم تسهيلات للحجاج

---

٧١ الأرشيف العثماني: Dosya 2242, Yıl 1317

٧٢ فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب، ص ٤٥٥.

٧٣ فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب، ص ٤٥٥؛ احمد نوري النعيمي، الدولة العثمانية واليهود، ص ٩٣؛ A. Levy, *The Jews of Ottoman Empire*, Princeton: Darwin Press, 1994, p. 156

٧٤ الأرشيف العثماني: DH. MKT. Dosya 1485, Yıl 1305

٧٥ الأرشيف العثماني: Dosya 2242, Yıl 1317

الروس القادمين للقدس.[٧٦] وسمحت لليهود الروس السكن بأي منطقة من ولاياتها ما عدا فلسطين، وحددت عدد الروس المهاجرين إلى فلسطين كجماعة بين ١٠٠-١٥٠ شخص والمناطق التي حدد لهم السكن فيها هي صفد ويافا فقط ولم يتجاوز عددهم في القدس ٩٨ فردا.[٧٧]

ورغم الضغوط والقوانين التي فرضتها الدولة العثمانية لمنع اليهود الأجانب من الإقامة والاستيطان في القدس إلا أن تدخل الدول الاجنبية وقيامها بإجراءات ضد الدولة العثمانية من مثل سحب السفير، واستغلالها للامتيازات الممنوحة لها كان يمنع تطبيق القوانين العثمانية التي تحظر هجرة اليهود.[٧٨] وتنافست الدول الأجنبية في حماية اليهود وأمنت لهم أماكن ومناطق للاستقرار. وكانت التوجهات اليهودية للسكن داخل المدينة المقدسة وفي جوارها.

وفي أحد القرارات التي يعود تاريخها إلى سنة ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م تظهر محاولة الدول الأوروبية إغراء الدولة العثمانية بكسب امتيازات في أوروبا، والحصول على النقود بمقابل إعطاء أراضي لليهود بجوار القدس وتوسطت بهذا الخصوص لدى دار السعادة.[٧٩]

كما قام اليهود الأجانب الذين حصلوا على الجنسية العثمانية بشراء الأراضي والسكن بالقدس بكافة الوسائل. وأمنت لهم الدول الأوروبية الحماية في حال تعدوا على القانون الذي يمنعهم من شراء الأراضي مستغلة الامتيازات الممنوحة لها.[٨٠]

فتوسعت أملاك الاجانب في القدس نتيجة قانون تملك الأجانب ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٨م، كما سمح للرعايا الأجانب بالتملك داخل حدود الدولة العثمانية، باستثناء الحجاز، فعمد اليهود الذين يحملون جنسيات أجنبية بشراء الأراضي في القدس.[٨١]

وتعددت طلبات اليهود الأجانب في البناء بالقدس، ويظهر التحرك الألماني لإسكان اليهود بالقدس، فثيودور الألماني أعطي الإذن بالبناء على أرضه في قرية

---

٧٦ بهجت صبري،لواء القدس، ص ٢٩٩؛ عادل مناع، تاريخ فلسطين أواخر العهد العثماني، ص ٢٣١.

٧٧ أحمد نوري النعيمي، الدولة العثمانية واليهود، الدار العربية للموسوعات، ص ٨٩-٩٠.

٧٨ أحمد نوري النعيمي، الدولة العثمانية واليهود، الدار العربية للموسوعات، ص ٨١-٨٣.

٧٩ الأرشيف العثماني: Y.PRK.MYD. Dosya 1, Yıl 1297

٨٠ A. Levy, *The Jews of Ottoman Empire*, Princeton: Darwin Press, 1994, p. 155

٨١ علي محافظة وآخرون، القدس عبر العصور، ص ٢٦٦.

جاكتا /التابعة للقدس.[٨٢] كما رغبت دولة ألمانيا البناء على الأراضي التابعة لها في قرية لفتا.[٨٣]

كما تملك الإنجليز في قرية جارتوف التابعة للقدس أراضي وأملاكاً فقام بعض اليهود المهاجرين بشراء الأراضي واعطوا حق السكن فيها بعد أن أصبحت لهم.[٨٤]

ازداد تنافس الدول الأجنبية في عهد السلطان عبدالحميد الذي تولى السلطة سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م، وللتخلص من ضغوط الدول الاوروبية أعلن القانون الأساسي سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٧م، وكان السلطان عبد الحميد من المنتقدين للامتيازات التي منحت للدول الأوربية وللفئات غير المسلمة في عهد أسلافه وانتقد أوضاع الدول المالية. ورأى أن العمل بالقانون الأساسي الذي يمنح الحرية للشعب سيؤدي إلى التخلص من الضعف الذي تعاني منه الدولة ودعى إلى وضع قوانين تنظم أوضاع الدولة.[٨٥]

---

٨٢ الأرشيف العثماني: Dosya 16, Yıl 1323

٨٣ الأرشيف العثماني: Dosya 6, Yıl 1315

٨٤ الأرشيف العثماني: Dosya 2422, Yıl 1318

٨٥ محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٧٠٥.

قائمة المصادر والمراجع

الوثائق العثمانية

فرمانات الداخلية في الباب العالي

أحمد نوري النعيمي، الدولة العثمانية واليهود، الدار العربية للموسوعات، سنة ٢٠٠٦م.

أسماء رمضان، ريف لواء دمشق في القرن ١٠هـ /١٦م، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٤م.

بهجت حسين صبري، لواء القدس تحت الحكم العثماني، رسالة ماجستير، جامعة الاسكندرية، القاهرة، ١٩٧٣م.

جستن مكارثي، الطرد والإبادة، ترجمة فريد الغزي، ١٩٨٧م.

جنكيز أورهونلو، إسكان العشائر في عهد الامبرطورية العثمانية، ترجمة فاروق زكي مصطفى، الطبعة الأولى، دار الطليعة الجديدة، دمشق،٢٠٠٥م.

حسان علي حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (١٨٩٧-١٩٠٩) دار الأحد، بيروت، ١٩٧٨.

خليل إينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، المجلد الأول، ترجمة: عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي. السنة ١٩٩٤م.

فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧، الطبعة الأولى.

دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، دار المدار الإسلامي.

فائز أحمد ابو فردة،القدس مدنها وقراها،دار الجليل، عمان، الطبعة الاولى، ١٩٩١.

عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، دار المعارف بمصر، ١٩٧٣م.

عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، مطبعة اليرموك، ١٩٩٦م.

بئر السبع وقبائلها، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩م.

عادل مناع، تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٧٠٠-١٩١٨م)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، طبعة أولى ١٩٩٩م.

محمد فريد بك المحامي، الدولة العلية العثمانية، تحقيق احسان حقي، دار النفائس.

المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام فلسطين، المجلد الثالث، عمان.

مؤتمر تاريخ بلاد الشام، القدس عبر العصور، عمان، ١٩٩٢.

وليد مصطفى، القدس سكان وعمران، دمشق، ١٩٨٥.

المراجع الاجنبية

A. Blumberg, *A view from Jerusalem (1849-1858)*, J&E.Finn, London and Tornto associated university press.

A. Hyamson, *The British Consulate in Jerusalem*, vol. 2, London: Edward Goldston, 1941.

A. Levy.*The Jews of Ottoman Empire*, Princeton: Darwin Press, 1994.

Y. Ben Arieh, *Jerusalem in the 19th century*, New York: Martin's Press, 1984.

التراث العربي المخطوط في بيت المقدس

إياد خالد الطباع*

إنّ المخطوطات عند أية أمة هي ذاكرتها المحفوظة.

وتُعدّ مخطوطات العرب المسلمين واحدة من أكبر مادوّنته الأمم من ذاكرة تجلّت فيها عبقرية التدوين.

لقد عَرفتْ بلاد الشام الكتاب على الشكل الذي نعرفه الآن بدخول الفتح الإسلامي إليها، فقد كانت العرب تكتب على العسب واللخاف والرقوق، ولقد شهدت دمشق ولادة أوّل مكتبة (خِزانة) عربيّة في الإسلام على يدِ خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي عُرف عنه حبّه للكتب والترجمات.

وكان حَرِيّاً بالقدس، التي تمثّل أحد أهمّ معاقل العلم والمعرفة في بلاد الشام، أن تكون مقصدَ العلماء والرحّالة والطلاب، ومركز إقامة المكتبات وخزائن المخطوطات.

أودّ أن أبدأ حديثي الموجز عن تراث فلسطين المخطوط عامةً :

تراث فلسطين المخطوط

عرفت فلسطين أنواعاً متعدّدة من المكتبات:

١- مكتبات الأديرة المسيحية، وكان بعضها موجوداً قبل الفتح العربي الإسلامي.

٢- مكتبات الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا بعد الفتح العربي

---

* باحث في المخطوطات الإسلامية

الإسلامي، وأقدم مكتبات المدارس مكتبة دار العلم الفاطمية في القدس التي أنشأها الحاكم بأمر الله في القرن الخامس الهجريّ، على غرار مكتبة دار العلم الفاطمية في القاهرة.

٣- المكتبات الخاصة لدى الأفراد من العلماء ثم العائلات.

٤- المكتبات العامة، وقد ظهر أولها عام ١٩٠٠م، وهي المكتبة الخالدية بالقدس.

وفي بدايات القرن العشرين اهتمّ المجلس الشرعيّ الإسلاميّ الأعلى بإنشاء اثنتين من دور الكتب الإسلامية في المناطق الفلسطينية، وهي:

١ - دار كتب المسجد الأقصى.

٢- دار الكتب الإسلامية في يافا عام ١٩٢٣م، وفيها مجموعة مخطوطات حُفظت في مسجد النزهة في يافا، وتركت منسية، عددها ٣٣٩ مخطوطة.
وقد أصدرت الإدارة العامة للمكتبات والمخطوطات بوزارة الثقافة بالسلطة الفلسطينية في حَزيران ٢٠٠٠ دليلاً لمكتبات المخطوطات ومراكزها في فلسطين، حصرت فيه خزائن المخطوطات فبلغت سبعاً وعشرين مكتبة في فلسطين، منها اثنتان توجدان في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م، وهما المكتبة الأحمدية في عكا، والإسلامية في يافا.
واتضح أنّ أكبر هذه المكتبات من حيث عددُ المخطوطات يحتوي على ألفي عنوان تقريباً (المكتبة الخالدية بالقدس)، وأنّ بقيةّ المكتبات تحتوي على مئات العناوين .وبعضَها الآخر يحتوي على أقل من مئة.
أمّا المجموع النهائي لعناوين المخطوطات شاملاً العناوين داخل المجاميع التي يحتوي المجموع منها على أكثر من عنوان .وبعضها رسائل صغيرة – فيصل حسب التقدير على كامل التراب الفلسطيني إلى نحو تسعة آلاف عنوان.[1]

١ السياسة والتراث المخطوط في فلسطين، كمال عرفات نبهان، التراث العربي المخطوط في فلسطين، ندوة قضايا المخطوطات٢٠٠٠، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠١، ص ٣٩.

الحملة الصهيونية على مكتبات القدس

لا تزال الحملة الصهيونية تصب غضبها على كلّ إرث إسلامي في القدس الشريف، فتارة تهدم بنيانه وتارة تقوض معالمه، وتارة تزيف تاريخه بأنه إرث لهم وإلى غير ذلك من الاعتداءات المتتالية التى تضرب تراثنا الفلسطيني في مقتله.

فلقد كانت مكتبات وخزائن الكتب في القدس من الوفرة بمكان تجاوزت أكثر من ستين خزانة ما بين عامة وخاصة، حوت الكتب ونوادر المؤلفات التى عزّ وجود نظير بعضها في بلد آخر.

وعندما احتلّت القواتُ الإسرائيلية مدينة القدس عام ١٩٦٧م كانت مكتبات القدس الخاصة والعامة تضم أكثر من مئة ألف كتاب وأكثر من نصف مليون وثيقة ومخطوط وسجل، ومنذ ذلك الاحتلال الغاصب لهذه المدينة وهي تتعرض إلى إجراءات بالغة الخطورة غاية هدفها الرئيس تهويد القدس من جهة والقضاء على هذا الإرث من جهة أخرى.[٢]

وأذكر في هذه العجالة بعضها

مكتبة المسجد الأقصى – المكتبة الخالدية – مكتبة الشيخ محمد صنع الله الخالدي – مكتبة العلامة خليل الخالدي – مكتبة أحمد سامح الخالدي – مكتبة حسن الترجمان – مكتبة البديري – مكتبة أبي السعود (محمد طاهر) – مكتبة اليبرودي – مكتبة عمّان الشرعية (دائرة قاضى القضاة) - مكتبة آل الخطيب – مكتبة الفُتيا – مكتبة آل اللحام – مكتبة حسن عبد اللطيف الحسيني – مكتبة إسحاق موسى الحسيني – مكتبة النشاشيبي – مكتبة خليل بيرس – دار الكتب الفخرية – المكتبة الخليلية – مكتبة آل الموقت – ومكتبة آل قطينة – مكتبة عبد الله مخلص – مكتبة آل جارالله – مكتبة المدرسة الصلاحية - مكتبة الكلية العربية - مكتبة الزاوية النجارية (النقشبندية) – مكتبة المدرسة الأشرفية السلطانية – مكتبة المدرسة الأمينية - مكتبة الزاوية النصرية....إلى غير ذلك من المكتبات والخزائن التى كانت تحفل بها القدس في ذلك الوقت.

---

٢ http://www.aqsaonline.info/le_3.php?id=147&baab=8&kesm=28 مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية.

أسباب ضياع المخطوطات في فلسطين

إنّ معظم المكتبات الموجودة في فلسطين والتي اهتمت بتجميع المخطوطات وحفظها، لم تستطع حفظ أكثر من نسبة بسيطة منها، فمن بين ما يربو على خمسين ألف مخطوطة لم يبق منها الآن إلا ما يقارب ثمانية آلاف أو تسعة آلاف، ويعود السبب إلى:

١- أنّ الحروب التي مرت بها فلسطين بدءاً بالانتداب البريطاني وانتهاء بالاحتلال الإسرائيلي لأرض فلسطين أتت على كثير من مخطوطاتها، فكان يرافق القوات العسكرية مجموعة من الخبراء هدفها الاستيلاء على المخطوطات والسجلات والوثائق من المكتبات العامة والخاصة ومن المؤسسات، مثل ما تعرّضت له مكتبة يافا الإسلامية سنة ١٩٤٨م حيث نُهبت معظم مخطوطاتها وحُوّلت إلى الجامعة العبرية وجامعة تل أبيب وغيرهما، كذلك مخطوطات مكتبة الشيخ محمد خليل بالقدس، التي وُجدت أبوابها مكسورة بعد حرب ١٩٦٧م وبعد جرد محتوياتها تبين أن الكثير من مخطوطاتها قد نهب من قبل جيش الاحتلال الإسرائيلي.

٢- يُضاف إلى ذلك نشاط السماسرة والمستعربين من الأوربيين واليهود الذين نشطوا في شراء المخطوطات.وقد كشفت الأستاذة نهلة قورة مدير الدائرة الثقافية برام الله أن مكتبات فلسطينية، عامة وخاصة بيعت مخطوطاتها للبعثات الأثرية والتنصيرية.[٣]

ولم تقم مؤسسة إحياء التراث والبحوث الإسلامية سنة ١٩٨٣م، في ساحة الحرم القدسي الشريف، إلا لحماية هذا التراث، فقامت بتصوير ما يقارب ٣٥٠٠ مخطوطة على أشرطة ميكروفيلمية وفوتوكوبي لحفظها للأجيال القادمة.وكذلك باشرت بتجميع المخطوطات الأصلية، وكانت الحصيلة في هذا المجال محدودة لضيق الإمكانات المادية.[٤]

---

٣ أشارت إلى ذلك في مؤتمر انعقد تحت عنوان «دور المكتبات في حرية التعبير والتسامح الفكري وحق الوصول إلى المعلومات» نظمته منظمة «إفلا» بمكتبة الإسكندرية.

٤ شبكة فلسطين للدراسات والإعلام http://mediapal.org/43.html

المخطوطات في بيت المقدس

إنّ أكثر المخطوطات العربية والإسلامية موجودة في مكتبات المدينة المقدّسة سواء المكتبات الخاصة أو المكتبات العامة، ويعود ذلك إلى المكانة الدينية التي تحظى بها المدينة في نفوس المسلمين، ولعلّ هذه المخطوطات إضافة إلى الأماكن الأثرية وغيرها تشير إلى الارتباط الوشيج بين المسلمين على اختلاف مشاربهم وما تمثله هذه المدينة في عقيدتهم وتاريخهم وحضارتهم من مكانة لا يمكن تجاوزها لا حاضراً ولا مستقبلاً.

ويوجد في المدينة المقدّسة عدّة مراكز ثقافية (من مكتبات ومتاحف ومساجد) تخص المسلمين وتحتوي على مخطوطات تتفاوت في عددها من مركز إلى آخر.

ويبلغ عدد المؤسسات التي تتبع الكيان الصهيوني، وتمتلك مخطوطات عربية وإسلامية ثلاث مؤسسات، ولم يتحْ للمصادر التي اعتمدتُ عليها معرفة عدد المؤسسات المسيحية وما تملكه من هذا التراث، وسنتناول محتويات الأماكن الثقافية العربية والإسلامية أولاً، ثم المؤسسات التي تتبع الكيان الصهيوني.

مكتبات المخطوطات في القدس التي أمكن حصرها

وهي مكتبات في المناطق تحت يد السلطة الفلسطينية:

في القدس (المدينة القديمة) الشرقية

١- المكتبة الخالدية[٥] في القدس: تقع في طريق باب السلسلة بالبلدة القديمة، وهو من أبواب الحرم الشريف الرئيسة، على بُعد مئة متر من الحرم، كما تطلّ على حائط البراق، وذلك في مبنى أثريّ قديم، هو ثاني أقدم بناء مملوكيّ في المدينة المقدسة، وقد بُنيَ مقرّ المكتبة عام ١٨٩٨م مكان بناء متهدّم ملاصق لهذه المقبرة.وهي غير مكتبة الشيخ خليل الخالدي.

تأسست هذه المكتبة سنة ١٩٠٠م بالقدس الشريف، وطُبع لها في العام نفسه فهرس بعنوان «برنامج المكتبة الخالدية العمومية» صنّفه أبو الخير محمد محمود الحبال البيروتي مولداً الدمشقي، محتداً، كما يُحبّ أن يصف نفسه.وبلغ عدد كتبها

---

٥ تنسب العائلة إلى خالد بن الوليد وعائلة الخالدي من أقدم العائلات الفلسطينية، وأوثقها صلة ببيت المقدس، تولت مناصب القضاء والإفتاء والتدريس منذ القرن الثامن الهجري.

اثني عشر ألف كتاب،[٦] وذلك عن طريق تجميع كتب العائلة الخالدية التي أنجبت الكثير من العلماء. وكان من بين هذه الكتب ما يقارب أربعة آلاف مخطوطة. وفي الكشف الذي أُعدّ سنة ١٩٧٣م تبين أن عدد كتبها ستّة آلاف كتاب مطبوع ومخطوط، منها ألف وخمس مئة مخطوطة، والباقي هو أربعة آلاف مخطوط قد فقد.

وتضم المكتبة أكبر مجموعة من المخطوطات العربية في فلسطين، تصل إلى ألفَي عنوان تقريباً ١٩٨٥ عنواناً ضمن ألف ومئتي مخطوط، إلى جانب عدّة آلاف من الوثائق وغيرها، اكتُشفت عام ١٩٨٧م صدفة تحت السقف القرميدي للمكتبة، أثناء عمليات الترميم، وبعضها وثائق رسمية عثمانية، وأوراق شخصية.

كما بدأ ترميم المخطوطات، منذ العام ١٩٩٥م، إذ بدأت أعمال ترميم مبنى كبير من أوقاف العائلة في الجهة المقابلة لمبنى المكتبة، ليصبح ملحقاً توضع فيه الكتب المطبوعة ولتبقى المخطوطات في المبنى القديم.

وقد نُشر «فهرس مخطوطات المكتبة الخالدية: القدس» في مجلد ضخم قاربت صفحاته التسعمئة، بإعداد د/ نظمي الجعبة، وتحرير الأستاذ خضر إبراهيم سلامة، عام ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، في مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن.

٢- المكتبة البُدَيرية: تقع في البلدة القديمة بجانب باب الناظر، أحد أبواب المسجد الأقصى. أنشأها الشيخ محمد البديري المقدسي، وهو عالم صوفي درس في الأزهر الشريف، ودرّس في مصر نحو ثلاثين عاماً عاد بعدها إلى القدس، واستوطن فيها، وقد قام على تطوير المكتبة وتحسينها وتنميتها، وكان إنشاؤه لها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي.

وقد سلم من مخطوطاتها ما يبلغ عدده اليوم نحو ألف مخطوطة (ولها فهرس مطبوع عام ١٩٨٧م).

تحتوي المكتبة على مئتين وثلاثين مخطوطاً، تضم ستّةً وثلاثين وستّمئة عنوان، نشر فهرسها الأستاذ خضر إبراهيم سلامة.[٧]

---

٦ كما ذكر عارف العارف نقلا عن نشرة مدير الآثار بحكومة فلسطين سنة ١٩٤٥م. انظر السياسة والتراث المخطوط في فلسطين، كمال عرفات نبهان، التراث العربي المخطوط في فلسطين، ندوة قضايا المخطوطات ٢٠٠٠، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠١، ص ٤٧.

٧ مقدمة فهرس الخالدية ص٥٢، سلامة، خضر إبراهيم، فهرس مخطوطات المكتبة البديرية (مكتبة الشيخ ابن حبيش) القدس، إدارة الأوقاف العامة – مكتبة المسجد الأقصى، جزان.

من مخطوطاتها

١- الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم القشيري نسخت في ٥٦٢هـ ١١٦٧م.

٢- مؤلفات الشيخ البديري مؤسس المكتبة وعددها ثمانية مؤلفات .

٣- منهاج الدكان لداود بن أبي نصر الكوهين العطار المتوفى سنة ١٢٥٩م ولعلها نسخة المؤلف أو كتبت في عصره.

٤- الأسانيد المباركة لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) وهي نسخة المؤلف.

٣- مكتبة الشيخ علي بدر الدين الخطيب: تحتوي هذه المكتبة على مئة مخطوطة.[٨]

٤- مكتبة كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة القدس: تحتوي هذه المكتبة على مئة وعشر مخطوطات.[٩] ويذكر الأستاذ سلامة أنّ عددها نحو تسع وأربعين ومئتي مخطوطة، منها مئة وتسعون باللغة العربية، وخمس وخمسون بالتركية، وأربع بالفارسية.[١٠]

٥- مكتبة دار إسعاف النشاشيبي (في القدس الشرقية، ولكن خارج السور) وبها نحو ثماني وثلاثين ومئتين وألف عنوان ويدخل بها محتويات المجاميع.[١١]

٦- مكتبة المسجد الأقصى: وبها نحو ستّ وستّين وستّمئة مخطوط[١٢] =

---

٨ السياسة والتراث المخطوط في فلسطين، كمال عرفات نبهان، التراث العربي المخطوط في فلسطين، ندوة قضايا المخطوطات٢٠٠٠، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠١، ص ٤٧.

٩ مقدمة فهرس الخالدية، ص٢٤.

١٠ التراث العربي المخطوط في فلسطين وفهارسه، خضر إبراهيم سلامة، التراث العربي المخطوط في فلسطين، ندوة قضايا المخطوطات٢٠٠٠، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠١، ص ٩٤.

١١ السياسة والتراث المخطوط في فلسطين، كمال عرفات نبهان، التراث العربي المخطوط في فلسطين، ندوة قضايا المخطوطات٢٠٠٠، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠١، ص ٤٨.

١٢ مقدمة فهرس الخالدية، ص٢٤.

تحتوي ستّمئةٍ وألفِ عنوان.[١٣]

ويذكر بعض الباحثين[١٤] أنّه كان للمسجد الأقصى مكتبة تعدّ من كبرى مكتبات فلسطين، تحتوي على المخطوطات النادرة والكتب. وأضيف إليها من المجموعات القيمة: مكتبة الشيخ محمد الخليلي (من علماء القدس، توفي سنة ١٧٣٤م)، وكانت تحتوي على ما يزيد على سبعة آلاف كتاب، كما ورد في وقفيته، منها نحو أربعة آلاف مخطوطة. ومكتبة الشيخ خليل الخالدي، المتوفى عام ١٩٤١م. وهو من الرجال القلائل الذين اهتموا بالمخطوطات وجمعها. طاف الوطن العربي بحثاً عن المخطوطات القديمة للاطلاع عليها واقتناء ما استطاع اقتناؤه.

وقد تبعثرت مكتبته بعد وفاته، وما سلم منها لم يتجاوز مئة وخمسين مخطوطة أضيفت سنة ١٩٧٨م إلى مكتبة المسجد الأقصى.

وبعد ضم هذه المكتبة يفترض أن تحتوي مكتبة الأقصى على ما يقارب ستة آلاف مخطوطة، غير أنها لا تحتوي الآن إلا على العدد المشار إليه آنفاً.

وصدر» فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى «: وجاء في ثلاث مجلدات حتى الآن وكلها من إعداد الأستاذ خضر إبراهيم سلامة، وهي كما يلي:

أ- الجزء الأول: صدر في القدس: دائرة الأوقاف العامة في طبعته الأولى ١٩٨٠م والثانية ١٩٨٣م.

ب- الجزء الثاني: عمان الأردن مؤسسة آل البيت ١٩٨٣.

جـ - الجزء الثالث: لندن مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ١٩٩٦.

٧- **مكتبة المتحف الإسلامي بالحرم الشريف** (٦٤٤ مخطوطاً) معظمها نُسخ من المصاحف المهداة إلى مسجدَي الأقصى وقبة الصخرة.[١٥]

---

١٣ السياسة والتراث المخطوط في فلسطين، كمال عرفات نبهان، التراث العربي المخطوط في فلسطين، ندوة قضايا المخطوطات ٢٠٠٠، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠١، ص ٤٨.

١٤ موقع شبكة فلسطين للدراسات والإعلام http://mediapal.org/43.html

١٥ مقدمة فهرس المكتبة الخالدية ص ٢٤، التراث العربي المخطوط في فلسطين وفهارسه، خضر إبراهيم سلامة، التراث العربي المخطوط في فلسطين، ندوة قضايا المخطوطات ٢٠٠٠، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠١، ص ٩٤.

٨- **مكتبة الأنصاري**، وفيها - كما علمتُ أنّ مئاتٍ من المخطوطات محفوظة في قبوٍ مستأجر،[١٦] ويُطالب صاحبه باسترداده، وليس لدينا معلومات أكثر عنها.[١٧]

٩- **مكتبة مؤسسة إحياء التراث** (تابعة للسلطة الفلسطينية) وفيها مصورات وقليل من الأصول الخطية.

١٠- **مكتبة إسحاق موسى الحسيني**، تحتوي على اثنين وسبعين ومئة،[١٨] (لها فهرس بخط اليد ١٩٧٥) .

١١- **مكتبة جمعية الدراسات العربية.**[١٩]

١٢- **خزانة الشيخ طاهر أبي السعود**، ولايُعلم عدد المخطوطات فيها.[٢٠]

التعريف بالمخطوطات الفلسطينية

لقد كان التعريف بالمخطوطات في فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين نادراً، وكان الدكتور إسحاق موسى الحسيني رائداً في التعريف بمخطوطات بيت المقدس في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق.

وقد قام عدد من العلماء بالتعريف بالمخطوطات المقدسية ومجموعاتها، أذكر منهم:

---

١٦ في مداخلة لمشاركٍ من فلسطين في ندوة عُقدت بدمشق بعنوان «القدس في العصر العثماني» نظمتها وزارة الثقافة السورية مع مركز إرسيكا بإستانبول بمناسبة «القدس عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٩» من٢٢-٢٥/حزيران/يونيو ٢٠٠٩م.

١٧ السياسة والتراث المخطوط في فلسطين، كمال عرفات نبهان، التراث العربي المخطوط في فلسطين، ندوة قضايا المخطوطات ٢٠٠٠، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠١، ص ٤٦، ٤٨.

١٨ مقدمة فهرس الخالدية، ص ٢٤.

١٩ السياسة والتراث المخطوط في فلسطين، كمال عرفات نبهان، التراث العربي المخطوط في فلسطين، ندوة قضايا المخطوطات ٢٠٠٠، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠١، ص ٤٦.

٢٠ مقدمة فهرس الخالدية، ص ٢٥.

١- مجموع نادر: مقالة بقلم عبد الله مَخْلص .مجلة المجمع العلمي العربي دمشق، مج ١٠، ١٩٣٠ .

٢- دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها / محمد أسعد طلس .مجلة المجمع العلمي العربي دمشق مج ٢٠، ١٩٤٥ مج ٢١ ١٩٤٦ .

٣- المخطوطات العربية في فلسطين: أبحاث جمعها وقدم لها د.صلاح الدين المنجد بيروت، دار الكتب الجديد ١٩٨٢ .

وهناك دراسة حديثة تناولت مخطوطات فلسطين بشكل عام مع بعض التحليلات الإحصائية وهي:

٤- مخطوطات فلسطين واقع وطموح: بيت المقدس/ فؤاد عبيد القدس، منشورات مركز الأرشيف الوطني الفلسطيني ٢٠٠٠م.

ويلاحظ أن هذه أول دراسة تصدرها مؤسسة تابعة للسلطة الوطنية الفلسطينية وهي بادرة تدل على اهتمام ووعي بأهمية هذه المخطوطات على المستوى الرسمي.

٥- التراث العربي المخطوط في فلسطين، ندوة قضايا المخطوطات٢٠٠٠، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠١م.

٦- المسح الدولي للمخطوطات الإسلامية، إصدار مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي – لندن.

٧- قام مركز الأرشيف الوطني الفلسطيني بإجراء دراسات ومسوحات خلال الأعوام الماضية بعد قيام السلطة الفلسطينية شملت تسع مكتبات فقط في مدينة القدس وهي:

مكتبة النشاشيبي – مكتبة مؤسسة إحياء التراث – مكتبة الأنصاري – مكتبة الخطيب – مكتبة الدراسات العربية – مكتبة المسجد الأقصى – مكتبة جامعة القدس – المكتبة الخالدية – مكتبة البديري.

دَور بعض المؤسسات والعائلات في حفظ التراث المخطوط

قامت بعض الجهات والمؤسسات العلمية بتقديم جهودها في مجال حفظ هذا التراث، وذلك بتصويره وتوثيقه وفهرسته، أذكر منها:

أ- مجمع اللغة العربية الأردني

قام المجمع بدور كبير في لمّ شتات التراث الوطني الفلسطيني المتناثر عن طريق تصويره وفهرسته ونشر هذه الفهارس.

وتبنى منذ عام ١٩٨٢م طباعة فهارس المخطوطات العربية التي قام بتصويرها مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية وبشكل خاص المخطوطات الموجودة في مدن فلسطين، من المكتبات والمساجد والمتاحف.

ب- الجامعة الأردنية

أسهم مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية في تصوير عدد كبير من المخطوطات من المكتبات العائلية والمساجد والمتاحف، وقام بتكليف عدد من المفهرسين بفهرستها، وكانت هذه الجهود في عدد من المدن الفلسطينية، وشمل التصوير أيضاً مخطوطات المكتبة الأحمدية في عكا التي أنشأها أحمد باشا الجزار (١٧٢٠ - ١٨٠٤م)، وهي الآن في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م.

ج- مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن (ويمبلدورن): فقد أسهمت المؤسسة في خدمة مخطوطات فلسطين بعملين هما:

١) نشر الجزء الثالث من فهرس مكتبة المسجد الأقصى وكان الجزآن الأول والثاني قد نُشرا من قبل.

٢) نشر فهرس المكتبة الخالدية.

د- عائلة الخالدي، إذ خاض بعض أفرادها صراعاً ضد محاولات الاستيلاء على مبنى المكتبة القريب من حائط البراق وهو الموقع الذي تتركز فيه أطماع الصهيونية سعياً لتحقيق فكرة الهيكل الذي تحلم ببنائه.

هـ- المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت في عمّان، حيث أسهم المجمع في نشر الجزء الثاني من فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى في القدس.

و- إدارة الأوقاف العامة: مكتبة الأقصى:

نشرت ثلاثة فهارس للمخطوطات هي

١. الجزء الأول من فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى في القدس ١٩٨٣م.

٢. فهرس مخطوطات المكتبة البديرية: مكتبة الشيخ محمد بن حبيش في القدس، ١٩٨٧م.

كما أنشئت في بيت المقدس عام ١٩٨٣ مؤسسة إحياء التراث والبحوث الإسلامية، لحماية المخطوطات مما تعرضت له من خطر الحروب والنهب.
ويُقدِّر تقريرُ هذه المؤسسةِ أنّ مخطوطات فلسطين كانت نحو خمسين ألف مخطوطةٍ أصلية، لم يبق منها الآن إلا نحو ثمانية آلاف.
وقد جمعت مؤسسة بيت المقدس ستّ مئة مخطوطة أصلية، ونحو ثلاثة آلاف وخمس مئة مخطوطة مصورة، ونصف هذه المخطوطات مصاب بالأَرَضَة وبالرطوبة لسوء حفظها، وتحتاج إلى فهرسة.

القدس الغربية (تحت الاحتلال)

١- المكتبة الوطنية ومكتبة الجامعة العبرية

تقع في القدس الغربية أسست في عام ١٨٩٢م وتحتوي على ما يقارب نصف المخطوطات في فلسطين، فقد بلغ عدد مخطوطاتها ٢١٤٣ مخطوطة منها أربع مئة مخطوطة بالفارسية، ومئة وعشرون مخطوطة مزينة بالرسومات، ومئة مخطوطة بالعثمانية، إضافة إلى مئة وعشرين مصحفاً، وعدّة مئات من هذه المخطوطات تُعدّ في النوادر.
وثمة ثلاثة مصادر لمخطوطات المكتبة الأول مجموعة يهودا، وهو تاجر

يهودي عاش ١٨٧٧- ١٩٥١م، وأهديت مجموعته بعد موته للمكتبة، وعدد مخطوطات هذه المجموعة ١١٣٥ مخطوطة.

أما المصدر الثاني فقد قدّمته حكومة الكيان الصهيوني للمكتبة، وعدد هذه المخطوطات ٥٤٣ مخطوطة، إضافة إلى ما هو موجود في المكتبة أصلاً من مخطوطات وعددها ٤٦٥ مخطوطة.

الفهارس

لا توجد فهارس مطبوعة لمخطوطات المكتبة وقد قام المسؤول عن قسم المخطوطات بعمل بطاقات بالعربية لجميع المخطوطات والمؤلف والموضوع.

وتمّ حديثاً صنع فهارس مفصلة لجميع المخطوطات عن طريق الكمبيوتر ولكنها لم تنشر حتى الآن فيما نعلم.

٢- متحف ذكري مائير (المتحف الإسلامي)

يقع في القدس الغربية في شارع بلماخ تحديداً، أسس في عام ١٩٧٤م، وهو متحف خاص أنشأته زوجة عالم الفن الإسلامي مائير تخليداً لذكراه، ويحتوي على ما جمعه الرجل أثناء حياته من مخطوطات وتحف إسلامية، ويبلغ عدد المخطوطات تسع عشرة مخطوطة سبع منها بالعربية، مصحفان وأربعة أجزاء من ربعات ومخطوطة عربية، وجميعها مزينة بالرسوم النباتية والهندسية، أما الباقي فهي فارسية مزينة بالرسوم أيضاً.

ومن مخطوطاته

١. رسالة دعوة الأطباء لابن بطلان وترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي.
٢. فتوح الحرمين لمحي الدين عبد الرحمن الناصري، وهي وصف مزين بالرسوم للحرمين الشريفين في مكة والمدينة.

الفهارس

ولا يوجد فهرس لهذه المخطوطات ولكن المتحف قام بعمل بطاقات للمخطوطات اشتملت على اسم المؤلف والعنوان والقياسات.

٣- المتحف الإسرائيلي

يقع في القدس الغربية أسس عام ١٩٦٥ ويحتوي على أربعين مخطوطة بالعربية والتركية والفارسية، وجميعها مزينة بالرسوم والألوان المختلفة.

ومن مخطوطاته

١ خمسة مصاحف ترجع للفترة بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر.

٢ أربع نسخ من دلائل الخيرات لمحمد بن سليمان بن الجزولي ترجع إلى القرنين السادس عشر والثامن عشر .

٣ قصة يوسف وزليخة لنور الدين عبد الرحمن الجامي، نسخة من بخارى يرجع تاريخ نسخها إلى عام ١٥٧٠م.

الفهارس

لم تنشر فهارس لهذه المجموعة بشكل منفصل ولكن نَشر المتحف كتاباً عن المخطوطات والأوراق التي تحتوي على رسوم شرقية مثل المخطوطات الإيرانية وضمن الكتاب صور عن المخطوطات العربية.

توصيات

١- العمل على تصوير المخطوطات المقدسية، وإيداع نسخ منها في مراكز المعلومات العربية (مثل: المكتبات الوطنية، والجامعية، والعامة).

٢- القيام بفهرسةِ مالم يُفهرس منها، توثيقاً لها، وتيسيراً لإتاحة المعلومات عن التراث المغمور.

٣- التعاون مع المؤسسات الدولية في حفظ المخطوطات، وتصويرها، والمحاولة مع اليونسكو الانضمام إلى برنامج "ذاكرة العالم" "Memory of the World" توثيقاً لتراث المدينة المقدّسة، وحفظاً لها من أيدي العابثين.

٤- تعاون الدوائر المقدسية مع مركز "إرسيكا" في نشر وتوثيق السجلات والوثائق المحفوظة لديها.

٥- التعاون مع الدول العربية الغنية في الاستحواذ على التراث الفلسطيني المخطوط الذي يُعرض بين الفينة والأخرى في مزادات سوذبيس وكريستيس وغيرهما، ويسعى الصهاينة بشتى الوسائل إلى الفوز بالحصول على هذا التراث، ليضموه إلى مقتنياتهم، ويمنعونا من الاطلاع عليه.

المصادر الرئيسة

١. كمال عرفات نبهان وآخرون، ندوة التراث العربي المخطوط في فلسطين، القاهرة: معهد المخطوطات العربية.(ومنه الاستفادة الكبرى في إعداد البحث).

٢. صلاح الدين المنجد، المخطوطات العربية في فلسطين، بيروت: دار الكتاب الجديد.

٣. فهارس المخطوطات العربية في العالم، كوركيس عواد، الكويت: معهد المخطوطات العربية.

٤. موقع شبكة فلسطين للدراسات والإعلام http://mediapal.org/43.html

٥. التراث العربي المخطوط في فلسطين وفهارسه، خضر إبراهيم سلامة، التراث العربي المخطوط في فلسطين، ندوة قضايا المخطوطات٢٠٠٠، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠١م.

٦. السياسة والتراث المخطوط في فلسطين، كمال عرفات نبهان، التراث العربي المخطوط في فلسطين، ندوة قضايا المخطوطات٢٠٠٠، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠١.، ص ٣٩.

٧. «فهرس مخطوطات المكتبة الخالدية: القدس» في مجلد ضخم قاربت صفحاته التسعمئة، بإعداد د/ نظمي الجعبة، وتحرير الأستاذ خضر إبراهيم سلامة، عام ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، في مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن.

٨. فهرس مخطوطات المكتبة البديرية (مكتبة الشيخ ابن حبيش) خضر إبراهيم سلامة، القدس، إدارة الأوقاف العامة – مكتبة المسجد الأقصى، جزءآن.

مظاهر من التصوف في بيت المقدس كما أوردها بعض الرحالة المسلمين في أواسط العهد العثماني

د. بشرى خير بك*

أولاً: التمهيد: مظاهر الاهتمام العثماني ببيت المقدس

حازت القدس عبر التاريخ على مكانة عالية كمركز ديني وعلمي مهم لدى أتباع الديانات الموحدة، فقد كانت مركز جذب لعدد كبير من العلماء والمدرسين وطلاب العلم عبر التاريخ. وبمجيء العثمانيين إلى فلسطين سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م وتأكيداً منهم على أهمية القدس فقد أولى سلاطين آل عثمان بعد حكمهم الأماكن الدينية اهتماماً خاصاً، وتأكيداً منهم على هذا الاهتمام فقد أولوا الجانب العمراني عناية خاصة أيضاً عندما قام السلطان سليمان القانوني بأعمال تعمير القدس،[1] كتعميرأسوارها بين سنتي ٩٣٤ - ٩٤٧هـ / ١٥٢٧- ١٥٤٠م، وبناء جميع أجزائها، وترميم قلعتها...، وغير ذلك من الأعمال العمرانية التي كان للتكايا والربط والمنشآت الخيرية حظاً وافراً منها. وليضمن السلطان دعم هذه المنشآت واستمراريتها فقد أوقف عليها أوقافاً كثيرة مكنت المتولين عليها من إطعام الفقراء القائمين فيها.[2]

أيضاً أولى السلطان سليمان الأماكن المقدسة عنايته، فرمم قبة الصخرة وأعاد تبليط أرض مسجدها وتعمير جدران الحرم الشريف وأبوابه وجرياً على عادة المماليك فقد واظب السلطان العثماني على إرسال الصرة إلى الأشراف والعلماء

---

* جامعة دمشق .

١ خيرية قاسمية، بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، صراع الهوية والأرض، مؤتمراً أعد للندوة العاشرة (يوم القدس) التي عقدت في عمان – الأردن، ٢-٤ تشرين الأول ١٩٩٩م، عمان، ٢٠٠٠، ص ٥٨ – ٦٣.

٢ كامل جميل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، نشر بدعم من الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨١، ص ٣٠٧.

في القدس كما في مكة والمدينة. أما لقب خادم الحرمين الشريفين في القدس والخليل فقد أُطلق على السلطان سليمان بالإضافة إلى لقب خادم الحرمين الشريفين في مكة والمدينة.[٣] زد على ذلك اهتمام العثمانيين بالمساجد وبأضرحة الأنبياء ومقاماتهم لما لها من أهمية في اجتذاب الحجاج للتبرك بها. ورغم تدهور أوضاع السلطنة في أواخر عهد الدولة فقد ظلت أعمال التعمير في الحرم ورعاية الأماكن المقدسة والشؤون الدينية مستمرة.

ولم يقف الاهتمام العثماني عند أسوار القدس فقط، إنما تعداه إلى حفظ سلامة وأمن الطرق المؤدية إليها، وإلى ما يحيط بها من أماكن الحج والزيارة، وحماية الحجاج والمسافرين من هجمات البدو التي كانت مصدر قلق في أحيان كثيرة للسلطة العثمانية.[٤]

ثانياً: أهمية البحث

يتناول البحث «مظاهر التصوف في بيت المقدس كما أوردها بعض الرحالة المسلمين في أواسط العهد العثماني» من خلال أربع رحلات لثلاث شخصيات صوفية زاروا القدس، وحوت هذه الرحلات الكثير من المعلومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية. لكن ما يهم البحث هو ما ورد في هذه المصنفات من معلومات تفيد ظاهرة التصوف في القدس. فالرحلة هي ترجمة لسلوك من دونها وبالتالي هي تعبير عن تجربة شخصية تختلف من شخص لآخر بحسب الموقع الذي يشغله مدونها. وعلى ذلك فقد تم اختيار أربع رحلات لثلاث شخصيات صوفية، كان لكل منهم مكانته الاجتماعية ودرجته الصوفية المختلفة عن الآخر وهم:

١- الشيخ عبد الغني النابلسي ١٠٥٠ - ١١٤٣هـ /١٦٤١-١٧٣١م.[٥] وقد

---

٣ قاسمية، بيت المقدس، ص ٥٩.

٤ حول موقف السلطة من البدو: Muhammed Adnan Bakhit, *The Ottoman Province of Damascus in The Sixteenth Gentury*, Librairie Beirut, 1982, pp. 94 – 105

٥ هو أهم أقطاب التصوف في العهد العثماني، عالم وشاعر، له مساهمات في أنواع العلوم العقلية والنقلية المعروفة في عصره، ولد وتوفي في دمشق، ترك إنتاجاً غزيراً في شتى العلوم، تجاوز ٣٢٣ مصنفاً ما بين رسالة وكتاب. ترجم لحياته أهم مصنفي عصره، وتناولت العديد من الدراسات حياته ومؤلفاته،

اعتمدتُ على رحلتيه «الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية»،[٦] والتي قام بها في ١٧- جمادى الثاني ١١٠١هـ /آذار ١٦٩٠م، حتى ١ شعبان جمادى الثاني ١١٠١هـ/ ١١ أيار١٦٩٠م، و «الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز».[٧] وكانت من ١ محرم ١١٠٥هـ/ ٣ آب ١٦٩٣م وحتى ٥ صفر ١١٠٥هـ/ ٢٦ أيلول ١٦٩٤م.

٢- مصطفى البكري الصديقي[٨] ١٠٩٩- ١١٦٢هـ/١٦٨٨- ١٧٤٩م ورحلته هي «الخمرة الحسية في الرحلة القدسية»،[٩] والتي قام بها في ٩ محرم ١١٢٢هـ/ آذار ١٧١٠ - شعبان ١١٢٢هـ ٩ أيلول ١٧١٠ م.

٣- مصطفى أسعد اللقيمي الدمياطي ١١٠٥- ١١٧٨هـ/ ١٦٩٣-١٧٦٥م.[١٠]

وطبع العديد مما خلفه من مصنفات. حول النابلسي ومؤلفاته بشكل مفصل: كمال الدين الغزي – الورد الأنسي والوارد القدسي في ترجمة العارف بالله تعالى سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي، مخطوط من نوادر المخطوطات التي تضمها مكتبة آل النابلسي في صالحية دمشق. أيضاً: محمد خليل المرادي – سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، مصر، القاهرة، ١٢٩١- ١٣٠٠هـ، جزء ٢، صفحة ٣٥ . وحول مؤلفات النابلسي: بكري علاء الدين، المسرد النقدي، مجلة مجمع اللغة العربية، ج١، ك٢، ١٩٩٤م، ص ص ٩٧ - ١١٥.ج٢ نيسان ١٩٨٤، ص ٣٣٥ – ٣٦٩.

٦ عبد الغني النابلسي، الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، مخطوط – مكتبة الأسد، دمشق، رقم ٣٦١٣ وعدد أوراقها ٣٤٩ ورقة. وقد حققت من قبل: أكرم حسن العلبي وطبعت عام ١٩٩٠ .

٧ عبد الغني النابلسي، الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، مخطوط مكتبة الأسد، رقم ٣٢٢٦. وتتألف من ٣٣١ ورقة . صورت الرحلة ونشرت عام ١٩٨٦ من قبل الهيئة المصرية العامة للكتاب في مصر، أيضاً حققت من قبل: رياض عبد الحميد، وطبعت في ثلاثة أجزاء عام ١٩٩٨ – دار المعرفة.

٨ أحد أهم أقطاب التصوف في العهد العثماني، ولد في دمشق، أنجبت عائلته الكثير من العلماء في كل من مصر ودمشق والقدس. كان شيخ الطريقة الخلوتية، قام بعدد من الرحلات، وكان استقراره في النصف الثاني من حياته في بيت المقدس، حيث تزوج فيها، ولكنه توفي في مصر أرض أجداده، تجاوزت مؤلفاته الـ ٢٠٠ مصنف في مجالات شتى. للمزيد: المرادي، سلك الدرر، ج ٤، ص ١٤٧.
Brocklmann, C.: Erster Supplement Band, Vol. 3, Leiden, 1937-1942, Vol II, 308, 348, 351, 805

٩ الخمرة الحسية في الرحلة القدسية، وهي مخطوطة فريدة في برلين، المانيا، تحت رقم: Mq 460 6149 وتتألف من ٣٦ ورقة.

١٠ مصطفى اسعد اللقيمي المقدسي، ولد بدمياط ونشأ بها، وتتلمذ على يد جده لأمه الشهير بالبدر وابن الميت، تلقى تعليمه في القاهرة، قام برحلة إلى بيت المقدس، والتقى بمصطفى البكري الصديقي وأخذ عنه الطريقة الخلوتية، كان أديباً وشاعراً أكثر منه رجل تصوف، وقد كانت وفاته في دمشق . وضع عدداً من المؤلفات. للتفصيل حول حياته ومؤلفاته: المرادي، سلك الدرر، ج٤، ص ١٦٦. أيضاً: إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، جزءان، استنبول، ١٩٥١ ج٢، ص ٤٥١.

ورحلته « موانح الأنس برحلتي لوادي القدس[١١] والتي قام بها في ٨ ذو القعدة ١١٤٣هـ/ ١٦ أيار ١٧٣١م – ١٠ جمادى الأولى ١١٤٤هـ/ ١١ تشرين الثاني ١٧٣٢.

ثالثاً: مكانة القدس الصوفية

حرص أئمة المسلمين وعلماؤها منذ الفتح العمري ٦هـ/٦٣٧م على شد الرحال إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه ولنشر تعاليم الدين الحنيف، وأخذت أعداد من يفدوا تزداد يوماً بعد يوم، حتى وصلت المئات من علماء وفقهاء وأئمة وعباد وزهاد وأقطاب صوفية وشيوخ طرق. وبازدياد عدد الزهاد والمتصوفة الذين قصدوا القدس كانت هي بالتالي تزداد قداسة بهم، وبمن ضم ثراها من أجسادهم الطاهرة حتى أصبحت منعكساً للتصوف وتطوره عبر التاريخ الإسلامي.

وقد ترجم هذا التطور الصوفي من خلال نشاط المتصوفة الثقافي، بوضعهم مصنفات تناولت مجمل مناحي الحياة، وكان للتصوف حظاً وافراً منها لكثرة ما وضع من التصانيف أثناء مجاورة بعض المتصوفة للأقصى، إضافة إلى ما وضعه بعض المتصوفة أيضاً من تصانيف بعد عودتهم إلى بلدانهم، والتي أغنت المكتبة الإسلامية بمعلوماتها القيمة والفريدة بمجالات عديدة، إلى جانب ما ورد فيها من تفصيل دقيق لسلوك المتصوف أثناء رحلته، وهي السياحة بالتعبير الصوفي.[١٢]

رابعاً: مدلول التصوف وتطوره

ظهرت كلمة صوفي قبل نهاية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، ومن المحتمل أن هذه الصفة التي تشير إلى استعمال لباس الصوف، الذي يلبسه (زهاد المسلمين) ليميزوا أنفسهم عن غيرهم ممن كانوا يلبسون فاخر الثياب. وقد تعددت التعريفات التي وضعت للتصوف،[١٣] لعدم القدرة على إدراك جوانبه كلها

---

١١ مصطفى اسعد اللقيمي، موانح الأنس برحلتي لوادي القدس، مخطوط مكتبة الأسد، رقم ٥٢٤٨، ويتألف من ١٢٣ ورقة.

١٢ كامل العسلي، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، ستة مجلدات، طبعة أولى، بيروت، ١٩٩٠م، مجلد ٣، ص ٤٦٩.

١٣ حول التعاريف الكثيرة التي وضعت للتصوف: عبد القادر أحمد عطا، التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس، في عصر عبد الغني النابلسي، ط١، بيروت ١٩٩٧، ص ١٨٤ – ١٨٦.

إدراكاً يمكن من جمعها في ألفاظ قليلة ودالة على تلك الجوانب. لكن يمكن الاقتراب من تعريفه بالقول أن التصوف ليس ديناً أو مذهباً إنما هو نهج أو طريق يسلكه العبد للوصول إلى الله. أي هو وسيلة بيد الإنسان للوصول إلى مرتبة الطهارة والكمال ولكن ليس عن طريق تعطيل الفكر، إنما بدمج جميع عناصر الإنسان الروحية والعقلية والنفسية التي تؤلف كيانه في محور ذاته الخاصة.[١٤]

ومصطلح «التصوف» أتى متأخراً عن المضمون الذي يمكن القول أنه بدأ في صورة ما مع الحياة البدائية، وأخذ بالتطور شيئاً فشيئاً ليصبح علماً بحد ذاته فيما بعد. فحاجة الإنسان إلى نهج يوصله إلى الله من خلال توازنه النفسي والعقلي والروحي قد ظهر منذ القدم في التراثين الشرقي والغربي قبل الإسلام، وأتى التصوف الإسلامي لينهل من هذين المعينين مضيفاً تجربته الخاصة والغنية التي سارت به إلى أعلى درجات الرقي مبتدءاً بالزهد مرورا بالتصوف كظاهرة وجدانية فردية وانتهاءً بالتصوف الطرقي،[١٥] الذي أخذ فيه المتصوفة بتنظيم أنفسهم طوائفَ وطرقاً، يخضعون فيها لنظم خاصة بكل طريقة.[١٦]

خامساً: تطور ظاهرة التصوف بشكل عام وفي القدس على وجه الخصوص

لقد ظهرت بذور التصوف الإسلامي الأولى في نزعات الزهد[١٧] التي سادت العالم الإسلامي في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي كرد فعل لظهور

١٤ سيد حسين نصر، الصوفية بين الأمس واليوم، ترجمة: كمال خليل اليازجي، ط١، بيروت ١٩٧٥، ص ٢١.

١٥ للتوسع في أرضية التصوف الإسلامي: رينولد . أ. نيكولسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة أبو العلا عفيفي، القاهرة، ١٩٦٩، ص ١-٤١.

١٦ أصبحت (كلمة طريقة) في القرن الثالث والرابع الهجري/ التاسع والعاشر الميلادي تشير إلى مجموعة الآداب والأخلاق التي تتمسك بها طائفة الصوفية، وأوائل الصوفية كانوا يستخدمون إلى جانب اصطلاح الطريق والطريقة اصطلاح السلوك أي السير في الطريق . للمزيد: أبو حامد محمد الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين، طبع مع مجموعة من كتب الغزالي تحت عنوان (القصور العوالي) ، القاهرة، ج٤، ص ٢٣ . أيضاً: محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ٢، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١٣٤.

١٧ الزهد الذي جاء به الإسلام يختلف عن الزهد المنظم الذي نادى به زهاد الكوفة والبصرة والشام، وصار مقدمة للتصوف . للمزيد: د . كامل مصطفى الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، ط٢، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٢٤٠- ٣٢٠.

الترف والانصراف إلى مباهج الحياة. وخير مثال على هذه المرحلة كان أبو ذر الغفاري. وفي القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي نشأ التصوف القائم على الحب الإلهي، حيث صارت الصوفية علماً تميز به السالكون في طريق الله من خاصة المسلمين عن غيرهم من المتدينين. ومع بدايات القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بدأ نشوء وانتشار الفرق والطرق الصوفية المنظمة، والتي ازدادت بشكل كبير في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي لتشكل مقدمة للعصر الذهبي لانتشار الطرق الصوفية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي[١٨]. وفي القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي وما بعده انتعشت الحركة الصوفية، وربما يعزى ذلك إلى أن حكومة المماليك بدأت منذ السنوات الأولى لحكم السلطان برقوق ٧٤٠هـ / ١٣٤٠م في تشجيع إنشاء الخوانق (المدارس)[١٩] وإدماج التعليم الصوفي بالتعليم الأكاديمي.[٢٠]

وبمجيء العثمانيين وتشجيعهم لبعض الطرق - رغم ضبطهم لها وتحكمهم بها- فقد بلغ التصوف عهده الذهبي من حيث الانتشار، بأن أصبح زبدة الدين وخلاصته، والمُوَجِّه الأول لحياة الناس. وبلغ التصوف من النفوذ درجة أن الولاة كانوا يتقربون إلى بعض الشيوخ الصوفيين، ويتخذونهم أصدقاء وندماء كما يذكر النابلسي[٢١] في الوداع الذي تم له عندما توجه من فلسطين إلى مصر «... فخرج لوداعنا نايب البلدة حضرة أحمد أفندي ... وخرج حاكم البلاد ومعه نحو الخمسين خيالاً من الأعوان والأجناد ...». ومثال ذلك من الشواهد كثير في رحلات النابلسي. وقد بلغ من شأن شيوخ الطرق في هذا العهد أن بلغ نفوذهم حداً أصبحوا فيه قادرين على السيطرة على كل فئات المجتمع بما فيهم الفئة التي تستعصي على أجهزة السلطة.[٢٢]

---

١٨ كامل جميل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، نشر بدعم من الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨١ - ص ٣٠١.

١٩ الخوانق، وهي كلمة فارسية تطلق على المباني التي تقام لإيواء المتصوفة الذين يحلون فيها للعبادة . العسلي، معاهد العلم، ص ٣٠٦.

٢٠ العسلي، معاهد العلم ....، ص ٣٠٢ .

٢١ النابلسي، الحقيقة والمجاز، ورقة ١٤٧.

٢٢ ازداد نفوذ شيوخ الطرق لدرجة أنهم ملكوا القدرة من السيطرة على المجرمين، وطريدي العدالة، حتى أن الشيخ علي البيومي في مصر في عام ١١٨٣ كان يوثقهم بسلاسل في أعمدة المسجد، أو يضع الأطواق في أعناقهم، وهم سكوت عن رضى وطواعية... . عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، أربع أجزاء، بولاق، ١٢٩٧هـ، جـ٢، ص ١١٨.

إلا أن التصوف عانى في العهد العثماني من دخول البدع والشعوذة والخرافة والأوهام، واصطناع الغرائب في اللباس والهيئات حتى تتناسب مع الغرائب من تصرفات بعض من ادعى التصوف، والتي أثرت على مسيرة التصوف. ومما يدعو للدهشة أن بعض كتب التراجم في ترجمتها لبعض الأعلام[٢٣] أوردت هذه الخوارق، وقد وجد من رفض هذا الانحراف في التصوف وحدد قواعده وذلك بوضع مصنفات تفيد تصحيح ما دخل على التصوف من بدع مثل عبد الغني النابلسي ومصطفى البكري الصديقي في بلاد الشام، وعبد الوهاب الشعراني في مصر.

وقد شكلت القدس بسبب قداستها التاريخية منعكساً مهماً لمراحل التطور الصوفي، حيث شكل المسجد الأقصى منها نقطة جذب للزهاد للتعبد بعد الفتح العمري للقدس. وفي القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد ازداد استقطاب القدس للمتصوفة من رواد التصوف الأوائل مثل أم الخير رابعة العدوية، وبشر بن حارث الحافي، وذو النون المصري، وإبراهيم بن الأدهم... وغيرهم ومما جعل للتصوف قدماً راسخة في القدس، التي بدأت تظهر فيها الطرق الصوفية ومؤسساتها من خوانق وربط وزوايا بشكل تدريجي ومساير لتطور حركة التصوف نفسها، مما ساهم في تغلغل الصوفية ضمن مختلف الفئات الاجتماعية.[٢٤]

وعرفت فلسطين بشكل عام، وليس القدس وحدها، كثيراً من الطرق الصوفية في هذه الفترة، منها الطريقة الرفاعية لمؤسسها أحمد بن علي الرفاعي. والطريقة الوفائية – وهي نوع من الشاذلية – والتي كانت تستند في تعاليمها إلى الاستسلام لله سبحانه وتعالى، واحتقار الحياة الدنيوية، والطريقة القادرية لمؤسسها القطب الكبير عبد القادر الجيلاني المتوفى في ٥٧٠هـ / ١١٧٣م وكانت من أوسع الطرق انتشاراً في فلسطين، والطريقة البسطامية لمؤسسها الصوفي الفارسي أبو يزيد طيفور البسطامي المتوفى سنة ٢٦٤هـ/ ٩٧٧ م، والطريقة النقشبندية لمؤسسها محمد بهاء الدين البخاري (٧١٧-٧٩٢هـ/ ١٣١٧-١٣٨٩ م).[٢٥]

---

٢٣ محمد أمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، أربعة أجزاء، القاهرة ١٨٩٦، ج٣، ص ٣٢٣. أيضاً: ج٤، ص ٢٢.

٢٤ الخوانق والربط والزوايا، الموسوعة الفلسطينية، أربع مجلدات، ط ١، دمشق، ١٩٨٤، م٢، ص ٣٧٤ – ٣٨٤.

٢٥ العسلي، الفكر الديني العلوم الإسلامية في فلسطين، ص ٤٦٩ .

ومن مظاهر اهتمام العثمانيين بالتصوف أن أولوا مراكز التعليم والعبادة والتهجد والتي هي الخوانق[٢٦] والربط[٢٧] والزوايا[٢٨] اهتماماً خاصاً فكانت الخوانق - وهي ما دعيت بالعهد العثماني بالتكايا - أكبر بيوت الصوفية، وغالباً ما كان لها مركز رسمي في الدولة، تنفق عليها وتعين لها الشيوخ بمراسيم سلطانية. وكان الصوفيون يقيمون بصورة دائمة في التكية، وفي كثير من الأحيان كانت التكايا تؤدي مهمة المدارس، وكانت من الكثرة لدرجة أن الرحالة أوليا جلبي الذي زار القدس في ١٠٨١هـ/ ١٦٧١م قد ذكر أنه أصبح في القدس تكايا لسبعين طريقة صوفية.[٢٩]

أيضاً كانت الربط تقوم بدورها كمؤسسة صوفية من حيث تغذية الوافدين إليها بالتعليم الديني. وتوفير الغذاء الروحي لهم، لأن العلماء اتخذوا من هذه الربط أماكن للمطالعة والكتابة لاحتوائها على مكتبات عامرة، وكثيراً من كتب التصوف قد ألفت في الربط، باعتبار أن الرباط هو مجمع للزهاد والمتصوفة، ولم يكن هناك تفريق ما بين الخوانق والربط في كثير من الحالات. وفي العصر العثماني أصبحت كثير من الربط بمثابة ملاجئ للفقراء من نساء ورجال يقدم لهم فيها الطعام وتصرف لهم المساعدات من أنواع مختلفة.

أما الزوايا فقد كانت بشكل عام مؤسسات شخصية، وبأغلب الأحيان غير مرتبطة بالصوفية. لأنها غالباً ما تكون بيتاً لرجل تقي يجمع حوله جماعة من التلاميذ ولهذا السبب غالباً ما كانت الزوايا مؤسسات متواضعة وأصغر حجماً من الخوانق والربط، وقد شمل الاختلاط في التسمية الزوايا أيضاً. والزوايا أقدم عهداً من الربط والخوانق، فقد كان الاعتكاف بغرفة صغيرة بمنارة المسجد أمراً عادياً للزهاد والعباد منذ فجر الإسلام. وقد كان لهذه الزوايا دوراً تعليمياً مهماً في القدس وفي غيرها من ديار الإسلام. وكان كبار الشيوخ يعلمون في الزوايا كما يعلمون في المدارس على حد سواء.[٣٠]

---

٢٦ الخوانق، وهي كلمة فارسية تطلق على المباني التي تقام لإيواء المتصوفة الذين يحلون فيها للعبادة، العسلي، معاهد العلم، ص ٣٠٦.

٢٧ كان الرباط في الأصل بيتاً للمجاهدين، وقد استعمله المتصوفة بمعنى الخانقاه، على أساس أنهم يخوضون جهاداً روحياً، المرجع السابق.

٢٨ للتفصيل، المرجع السابق، ٣٠٧.

٢٩ المرجع السابق، نقلًا عن رحلة أوليا جلبي، سياحت نامه، مخطوط تركي.

٣٠ العسلي، التعليم في فلسطين.

سادساً: نشاط رجالات التصوف في القدس

بالرغم من أن القاسم المشترك بين النابلسي والصديقي واللقيمي هو التصوف، والسياحة إلى بيت المقدس، إلا أن أغراض سياحتهم اختلفت بهدفها بين هؤلاء المتصوفة، من حيث عمر كل منهم عندما قام بسياحته، ومن حيث المكانة التي يشغلها كل منهم في محيطه كمتصوف. فالنابلسي كان يبلغ من العمر إحدى وخمسين سنة عندما قام برحلته الأولى إلى القدس [٣١]، أي بعد أن نال شهرة واسعة كقطب صوفي وهذا ما دعا الدكتور إحسان عباس للقول: (....مع أن عبد الغني النابلسي غير فلسطيني «النشأة» إلا أن أثره في فلسطين كان عميقاً، لأنه كان من خارجها وموجهاً ومنظما، استطاع أن يسيطر على حركة التصوف التابعة لطريقته في داخل فلسطين على نحو تنظيمي يلفت الانتباه، ويستأثر بقسط غير قليل من الدهشة لما كان يقوم به من جهد في سبيل إقامة مجتمع صوفي متجاوب مع تعاليمه).[٣٢]

فالنابلسي لم يكن شيخ طريقة بل كان قطباً صوفياً نقشبندي الطرقة، وقادري المشرب [٣٣]، (التصوف المبني على الكتاب والسنة) فرض مكانته على العصر الذي عاش فيه رغم العداء الذي كان بين كثير من علماء الشريعة من غير المتصوفة وبين المتصوفة. وقد حفلت رحلتاه «الحضرة الانسية في الرحلة القدسية» والحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز «بذكر ما يدل على مكانته الرفيعة في المجتمع المقدسي عامته وخاصته على حد سواء، ويؤكد ذلك ما ورد في رحلته» الحضرة الانسية[٣٤] عن الاستقبال الذي استقبل به في ظاهر القدس «.. وقد خرج للقائنا في المكان جماعة من المشايخ والأعيان وقد نشروا الأعلام على جهة الإفهام بكمال المودة والإعلام يتلون البراه الشريفة والصلوات إلى أن اقبلنا على باب المدينة مع هاتيك الجماعات ومنهم ....وقد استقبلنا فقراء الزاوية الأدهمية في الطريق وحصلت لنا البركة بلقائهم ومصافحتهم ....».

---

٣١ حول رحلة النابلسي: ميشال جحا، عبد الغني النابلسي في رحلاته إلى لبنان، مجلة الفكر العربي، حزيران، عدد ٥١، ص ١٣٣-١٣٥.

٣٢ إحسان عباس، الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين أثناء القرن السابع عشر (١٠١٠ - ١١١٢هـ)، مجلة قضايا عربية، العدد ٣، السنة السادسة، تموز، يوليو، ١٩٧٩، ص ٤٩-٧١ . وللبحث تتمة في: مجلة المستقبل العربي- إصدار مركز دراسات الوحدة العربية، الشهر ٣، ١٩٧٩، ص ١٣٣-١٤٧.

٣٣ تعريف النابلسي لنفسه: النابلسي، الحضرة الأنسية ... ...، ورقة ٣.

٣٤ النابلسي، الحضرة الأنسية، ورقة ٧١.

ومن الصعوبة في هذا البحث ذكر كل الأعلام الذين ذكرهم النابلسي في رحلتيه المعنيتين بالبحث، والتي غفلت بعض كتب التراجم عن ذكرهم مثل كتاب « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » للمرادي الذي غفل عن ذكر بعض الأعلام الصوفية المحليين الذين أوردهم النابلسي، وقد يعود ذلك لوجهة نظره كمفتٍ، أما النابلسي فينطلق في ذكرها من خلال اهتماماته الصوفية، وموقعه كصوفي ومفتٍ استطاع أن يقترب من سكان القدس المحليين الذي ينتمي إليه العالم أو الصوفي على حد سواء.[٣٥]

أما الصديقي فقد زار القدس مصاحباً لخاله برفقة قافلة الحج الشامي،[٣٦] ومع أنه لم يتجاوز من العمر الاثنى والعشرين سنة، فقد كانت له شهرته وذلك واضح من قوله:

(... وكنت ملازماً على الخمسة أوقات بالجماعة وأنا متلحف برداء الخفاء كل ساعة، وكنت في أغلب الأوقات أجلس في الدار. أكتب تارة وأطالع فيما معي من الكتب خوف الاشتهار. ولم يصحبني إلا أفاضل كرام أقوام، منهم أخونا الفاضل ... علم الدين العلمي... والشيخ يحيى الدجاني....).

إن خوف الصديقي من الشهرة[٣٧] لدليل على مكانته الصوفية الرفيعة من جهة، وعلى تقبل المجتمع المقدسي له كشخصية صوفية وتقديرهم للصوفية من جهة أخرى. فالصديقي رغم صغر سنه بايعه أهالي دمشق خلفاً لشيخه عبد اللطيف بن حسام الدين الحلبي[٣٨] كشيخ للطريقة الخلوتية،[٣٩] لذلك لا غرابة أن يلقى من مجتمع القدس الصوفي كل حفاوة وتكريم.

---

٣٥ رافق، الموسوعة الفلسطينية، قسم ٢، ص ٧٨٨ . وحول المتصوفة وأصحاب الطرق في القرن ١٢هـ /١٨م نفس المرجع، ص ٨٠٤.

٣٦ الصديقي، الخمرة الحسية، ورقة ٥.

٣٧ اللقيمي، موانح الأنس، ورقة ١٤٥.

٣٨ وهو عبد اللطيف بن حسام الدين الحلبي الخلوتي نزيل دمشق، وصاحب طريقة صوفية، ولد في حلب وتوفي في دمشق في ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م، ودفن في تربة برج الدحداح. المرادي، سلك الدرر، ج٣، ص ١٢٣.

٣٩ الطريقة الخلوتية: وهي طريقة صوفية تفرعت عن الطريقة السهروردية في منطقة خراسان على يد ظهير الدين المتوفى سنة ١٣٩٧م، وانتشرت هذه الطريقة حتى بلغت تركيا، ولها فروع صوفية كثيرة . لويس ماسينيون، ترجمة مصطفى حلمي، دائرة المعارف الإسلامية، ١٥ جزء، المجلد ١٥، ص ١٨١.

وقد زار اللقيمي القدس بعد الصديقي بإحدى وعشرين سنة، وكان الصديقي قد اتخذ من القدس مكاناً» لاستقراره، فأخذ اللقيمي عنه عهد الطريقة الخلوتية. وقد مثلت زيارة القدس للقيمي الحج الأصغر الذي يبشر بالحج الأكبر إلى مكة. واللقيمي كأديب وشاعر لم يحتل المكانة الصوفية التي نالها سابقوه، ولكن مع ذلك فقد لاقى في بيت المقدس كبير الاحترام والتقدير ورحلته تحفل بإشارات عديدة عن تلك الحفاوة.

وقد جاء في رحلة اللقيمي من التفصيل في بعض مظاهر التصوف ما لم نجده عند النابلسي والصديقي، اللذين خصا التصوف بعدد من التصانيف بعيداً عما دونوه في رحلاتهم. أما اللقيمي كمريد[٤٠] فقد دخل سلك الطريقة الخلوتية أثناء زيارته إلى القدس، هو ما يزال بعد في بداية الطريق الصوفي، لذلك فقد أورد جزءاً كبيراً من تجربته كمتصوف في الرحلة التي جاءت غنية بالنواحي الصوفية أكثر من رحلات النابلسي والصديقي، وقد ترجم شعراً كثيراً مما دونه نثراً في رحلته. لذلك أتت رحلته أشبه بديوان شعري.

سابعاً: بعض مظاهر التصوف كما وردت في الرحلات

لم يتناول النابلسي والصديقي ما يفيد غرض التصوف بشكل ممنهج ليعطونا صورة واضحة عن أغراض التصوف، إنما دونوا نشاطهم في القدس على شكل يوميات. عدا الصديقي الذي لم يلتزم بذكر نشاطه يوماً بيوم، فأتت المعلومات التي حوتها الرحلات غير صريحة، وغير منظمة، إنما تفيد ظاهرة التصوف. ويُذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: «التلقين، الرابطة، الشطحات، الظاهر، الباطن، الزهد، العلم، العصمة، الكرامات، الشفاعة، التفسير، التأويل، السلاسل، الطرق، الحقيقة المحمدية، الأبدال، النقيب، النجباء، القطب، الإنسان الكامل، النفس، الإحسان، الحضرة، الخمرة، الطريقة، الشريعة، النقش، الحال، المقام، السلسلة والفناء...الخ». وغير ذلك من الألفاظ التي تندرج إما ضمن مقومات الصوفية، أو ضمن النظم والتقاليد الصوفية، أو مراتب الصوفية، أو الطرق الصوفية، أو مصادر الصوفية. لكن وردت هذه دون تفصيل عدا ما تناوله اللقيمي حول الزهد وأركانه بتفصيل شديد. وأهم مظاهر التصوف كما وردت في الرحلات:

---

٤٠ للتفصيل: انظر الصفحات التالية من البحث.

أ – ظاهرة السياحة الصوفية

لقد شكلت «السياحة الصوفية» ركناً مهماً من أركان الطريق الصوفي اعتماداً على قوله تعالى:[٤١] «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة»، وذلك تمثلاً بكبار الصوفية الذين أتموا معرفة السياحة في تجربتهم الصوفية وأصبحوا مثلاً يحتذى به لمن تبعهم من المتصوفة.[٤٢] مثل النابلسي والصديقي واللقيمي الذين قاموا بالسياحة إلى الأماكن المقدسة المباركة، والتي كان بيت المقدس من أهمها، حتى أن الصديقي افتتح رحلته بمباركة السياحة عندما ذكر في الورقة الأولى «.. الحمد لله الذي سار بمن اختاره للمعالي القدسية وأدار على الأبصار كؤوس العقار فأسكر من اختارهم من الخمرة الإلهية وحرك دواعي أهل الهمم حتى قطعوا سبل الغواية وعبر بهم على أسفن التقريب من بحر الهداية ... وهيج منهم السواكن إلى السير في البلدان والأماكن بقصد المهاجرة إلى البلاد المشرفة ...».

فالسياحة الصوفية مباركة وخاصة عندما تكون إلى الأماكن المقدسة كبيت المقدس الذي يشبه في قداسته وحتى في جغرافيته قداسة وجغرافية مكة المكرمة.[٤٣]

وحكت مكة الشريفة قدس ... من سنى مسجد وقدر منيف
صخرة مثل كعبة هي فيها ... قبلة قبل محكم التصريف
ثم قسنا أبا قبيس بطور ... في الورى يستحق للتعنيف

ومن ثم فالحج إلى القدس هو الحج الأصغر الذي يبشر بالحج الأكبر إلى مكة المكرمة (... وقد بلغنا من بعض العلماء أن من زار بيت المقدس لا بد أن يرزقه الله الحج في ذلك العام أو بعده..).[٤٤] ومن فاته وقفة عرفات فيمكن لبيت المقدس أن يعوضه ذلك..

---

٤١ القرآن الكريم، سورة العنكبوت، الآية، ١٩.

٤٢ Aladdin, Bakri: Abd Algani An. Nabulsi (1145-1731) Deuvre. Et Doctrine, Doctocates Letters Vilume Ii, Paris , 1985, p. 121

٤٣ الصديقي، الخمرة ......، ورقة ١.

٤٤ الصديقي، الخمرة ......، ورقة ٤.

من فاته تلك المشاهد من منى فله المنا البادي بهذا النادي[٤٥]

وشغلت زيارة المزارات وأضرحة الأولياء الصالحين، وإقامة الذكر عند أضرحتهم جانباً مهماً من هذه الرحلات (أو السياحة). والملاحظ أن تتبع فكر هؤلاء الأولياء الذين ضمهم ثرى بيت المقدس حسب تواريخ وفاتهم يعطي صورة واضحة عن تطور الفكر الصوفي في التاريخ الإسلامي ومنهم سلمان الفارسي، سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، ومعروف الكرخي، وذو النون المصري وأبو يزيد البسطامي، وغيرهم.[٤٦]

لم تقتصر زيارة النابلسي على الأماكن المقدسة الإسلامية، بل تعداها في زيارة أهم المعالم المسيحية المقدسة في بيت لحم (... ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى قرية بيت لحم من أعمال بيت المقدس وزرنا هناك في تلك الكنيسة مولد عيسى عليه السلام وموضع النخلة تبركا) باثار النبي المعصوم ... وقد اضافنا هناك بعض الرهبان. بما تيسر من الزاد نحن ومن معنا من الأخوان. فأسمعونا صوت الأرغولا ... وقلنا في ذلك العهد من النظام.

قد سمعنا نغمات الأرغولا وهو بالأرغون يدعى في الملا
فسمعنا كل صوت مطرب ضمن صوت واحد قد حصلا
آلة تجمع آلات فما هو إلاّ نبرة للنبلا[٤٧]

ب –أركان الزهد وهي

أوردت الرحلات وفي أماكن عديدة أهم الصفات التي على من يريد سلوك الطريق الصوفي التحلي بها، وقد أوردها اللقيمي نثراً وشعراً تأكيداً على أهميتها وهي العزلة والجوع والسهر والصمت:
"... ولم أجتمع بالقدس بأحد إلا ببعض أفراده الذي له صدق ومحبة لنا وحسن وداد فإن في العزلة عز دايم ونعمة. وهي والصمت تمام الحكمة"،

٤٥ اللقيمي، موانح الأنس، ورقة ٥١.
٤٦ كامل جميل العسلي، أجدادنا في ثرى بيت المقدس، عمان، ١٩٨٢.
٤٧ النابلسي، الحقيقة ....، ورقة ١٠٩.

ويضيف اللقيمي "..... وهما من أركان الطريق لصناديد الرجال. وهما مع الجوع والسهر من حلية الأبدال ....".[٤٨] ويختصر اللقيمي شعراً كيف يتمكن الإنسان من الوصول إلى مقام الأبدال[٤٩] الذي هو أحد أركان الولاية للمتصوف،

بيت الولاية قسمت أركانه   ساداتنا فيه من الأبدال

ما بين صمت واعتزال دائمٍ   والجوع والسهر النزيه العالي

وأهم ما في الصمت من حكمة أنه...   «يورث معرفة الله تعالى...»[٥٠]

أما العزلة فهي أيضاً قسمان «... عزلة المريدين وهي بالأجسام عن مخالطة الأغيار وعزلة المحققين وهي بالقلوب عن الأكوان...».[٥١] ثم يذكر هدف العزلة وما تورثه للإنسان من معرفة بالله، ثم يتناول الجوع ويقسمه إلى أنواع ويشرح أهميته للإنسان وبأن الشبع يورث اللامبالاة في الإنسان، وينأى بالنفس عن إدراك ما يحيط بها من مظالم، ويأتي الشبع ليشكل سداً منيعاً يمنع الناس من التفكير. لذلك كانت الدعوة للجوع هي الحل الأمثل «... وكثرة الأكل للسالكين دليل على بعده عن الله تعالى وطردهم عن بابه واستيلاء النفس الشهوانية البهيمية بسلطانها عليهم وقلة الأكل دليل على نفحات الجود الإلهي على قلوبهم ... »[٥٢] وفراغ المعدة بسبب الجوع يولد السهر الذي هو نوعان «... فسهر القلب انتباهه من نوم الغفلات طلباً للمشاهدات وسهر العين رغبة في بقاء الهمة في القلب لطلب المسامرة فالسهر يورث معرفة النفس وأحد أركان المعرفة، والمعرفة تدور على تحصيل هذه الأربعة معارف معرفة الله والنفس والدنيا والشيطان».[٥٣]

---

٤٨ الأبدال: اعتماداً على ما ذكره الرسول(ص) « خيار أمتي في كل قرن خمسمائة والأبدال أربعون .فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأبدال، كلما مات رجل أبدل الله عز وجل من الخمسمائة مكانه وأدخل من الأربعين مكانهم «. أبو نعيم الأصفهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد (ت ١٠٣٩/٤٣٠) حلية الأولياء، مصر، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م، جـ١، ص ٨-٩.

٤٩ وصل القشبري، الولاية بالنبوة بكونها الوسيلة المباشرة للاتصال بالله، اعتماداً على قوله تعالى (وهو يتولى الصالحين) سورة الأعراف ٧ :١٩، والصالحون هم الأنبياء، أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، مصر ، ١٢٨٤هـ، ص ٢١٨.

٥٠ اللقيمي، موانح الأنس ......، ورقة ٦٤.

٥١ المصدر السابق.

٥٢ المصدر السابق.

٥٣ اللقيمي، موانح الأنس ......، ورقة ٦٥.

ومن اجتمعت فيه هذه الخصال الأربعة»... بدلت بشريته ملكاً وعبوديته سيادة وعينيه شهادة وباطنه ظاهراً.[٥٤]

ج – الأحوال والمقامات

والأحوال والمقامات هي المراحل الروحية التي يعانيها المريد المتدرج في الطريق الصوفي، ويمر فيها سالكاً طريقه إلى الله. وهذه المراحل لها أهمية جذرية بالنسبة لمن يتوق إلى سلوك الطريق الصوفي وعبوره إلى الحضرة الإلهية.

واعتماداً على أن الكائن البشري مكون من جسد وروح ونفس، والطريق الروحي ليس سوى السياق الذي يتم فيه اقتلاع جذور الروح من العالم النفسي – الطبيعي الذي تأصلت منه، وغرسها في الكائن الإلهي، وذلك يعني تحول جذري في الروح اتيح لها عن طريق بركة الوحي والولاية، ومن هنا أتت أهمية المقامات والأحوال التي يترتب على الروح أن تختبرها في رحلتها. والسفر على الطريق الروحي محفوفاً بالمخاطر المتكررة بين الروح والنفس بعضها عابر وبعضها الآخر دائم وثابت. فأما العابر فهو الحال، وأما الدائم والثابت فهو مقام، والأحوال (جمع حال) هي هبة من الجود الالهي، أما المقامات (جمع مقام) فهي مكتسبة تحصل ببذل الجهد.[٥٥]

وقد سلك المتصوفة مسالك شتى في عرض الأحوال والمقامات التي تقود الإنسان إلى الله، فحصروا الأحوال التي تمر بها الروح بـ: المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والإطمئنان والمشاهدة واليقين.[٥٦] أما المقامات التي كسبت شهرة واسعة في التعليم الصوفي المتأخر فهي: التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا، في حين أن البعض من المتصوفة تطرقوا إلى تفاصيل بالغة في تقسيم مراحل تسامي الإنسان نحو الله إلى مئات المقامات، لكن المعالم البارزة في مراحل هذ الطريق واحدة في تلك الأوصاف جميعها.[٥٧]

ومن الأحوال والمقامات ينطلق اللقيمي في تفسيره قصة موسى الكليم الذي

---

٥٤ المصدر السابق، أخذ اللقيمي معلوماته التي ذكرها في كتاب (حلبة الأبدال) للشيخ محي الدين ابن عربي.

٥٥ الشريف الجرجاني، التعريفات، القاهرة، ١٣٢١، ص ٥٦، أيضا»: نصر، الصوفية..، ص ٨٤-١٠١.

٥٦ أبو النصر السراج، اللمع، تحقيق: رينولد آ نيكولسون، مصر، ١٩١٤، ص ٤٢.

٥٧ نصر، الصوفية ....، ص ٩٢.

وضع برقعاً على وجهه خوفاً من إصابة من ينظر إليه بالعمى، عندما رجع من حضرة مناجاة ربه، بينما الرسول محمد (ص) لم يضع على وجهه برقعاً لخوف العمى على من يراه، وأيضاً «لما رجع من المعراج لم يضع برقعاً».[٥٨]

أما النابلسي فيورد ذكر مقام الإحسان بشكل صريح عندما يذكر قدوم الشيخ يحيى الدجاني لزيارته (... ألحقه الله تعالى بالمقام السبحاني في حضرة الغيب الإحساني).[٥٩] ومقام الإحسان هو أحد مقامات سلوك الطريق في الطريقة النقشبندية[٦٠] أيضاً. ورد ذكر العديد من المقامات والأحوال عند تعريف الرحالة بمن التقوهم أثناء زيارتهم بيت المقدس، ومثال ذلك: ذكر مقام اليقين في معرض حديث النابلسي عن أحد الأولياء الصالحين، والذي كان يُلقب بالمثبت (.... وسبب كونه نقيباً لجده الشيخ محمد القدمي .... بأن الشيخ القدمي كان يجلس في هذه الزاوية[٦١] لتربية الفقراء والمريدين في طريق المعرفة واليقين .....).[٦٢]

د – الشيخ والمريد

وجه الله شريعته إلى الخليقة جمعاء، لتهديهم إلى الله، إنما من يريد أن يسعى إلى الله في مكانه وزمانه الآني فالطريقة الصوفية هي التي توصله إلى مبتغاه، وهي الوسيلة التي تعيد الإنسان إلى أهل الوحي، وتجعله - بالمعنى الروحي - صاحبياً وخليفة للنبي والأولياء، ولما كان الشيخ الصوفي هو نفسه متصلاً عن طريق سلسلة الأولياء بالنبي فهو المعني بهذه المهمة» ... وشروط الإرشاد كثيرة منها أن يكون للمرشد نسبة متصلة بالحبيب الرسول تلقاها عن ايمة سادة قادة فحول...[٦٣] ونسب الصديقي نفسه الذي ذكره في رحلته[٦٤] واتصاله بالخليفة أبي بكر الصديق

---

٥٨ وردت في القرآن الكريم في سورة الأعراف، الآية ١٤٤.

٥٩ اللقيمي، موانح الأنس، ورقة ٢٤.

٦٠ إن حقيقة الإحسان كما لخصها النابلسي هي: (شهود الله تعالى، والحضور معه في كل شيء، بحيث لو اشتغل بأخذ الدنيا، وانهمك فيها، وصرف جميع أوقاته في تناول لذائذها وشهواتها المباحة كان حاضرا» مع الحق سبحانه وتعالى شاهداً لتجليه في كل شيء ...) عطا، التصوف الإسلامي ...، ص ٢٣٥.

٦١ يقصد الزاوية الأدهمية . النابلسي، الحضرة الأنسية ....، ورقة ١٦٢.

٦٢ المصدر السابق.

٦٣ الصديقي، الخمرة الحسية، ورقة ٢٨.

٦٤ المصدر السابق، ورقة ٣.

رضي الله عنه يؤكد ضرورة أن يكون الشيخ من نسل الأنبياء.[٦٥]

وعلى هذا فإن الشيخ الصوفي، وبمهمة الولاية التي تحتويها الرسالة النبوية نفسها، فهو قادر على تحرير المرء من العالم المادي الضيق المحدود وإطلاقه إلى فضاء الحياة الروحية المشرق الغير محدود، وعلى يد الشيخ، نائباً عن ممثل النبي يحصل الموت والانبعاث الروحي بفاعلية «البركة» التي هي فيه، ولما كان الشيخ قد استقى من ينبوع الحياة الأبدية فإن روحه تعيش شباباً دائماً قادراً هو على مد مريديه به.

يولي الصوفية جل اهتمامهم للعلاقة بين الشيخ المربي والمريد الطالب الصادق فهذه الرابطة هي أساس الهيكل التنظيمي للطرق الصوفية، والعملية التربوية التعليمية لها. ورابطة الشيخ والمريد هي نوع من الصحبة [٦٦] التي هي أعم من مجرد التلمذة والأتباع، فهي من قبل الشيخ: تعهد، وإرشاد، ومراقبة، ومحاسبة، ونقد، وتعليم، وتبصر بأسرار الحياة الروحية، ومحبة وعطف، وصرامة وحزم. ومن جانب المريد: طاعة، وحب، وتفويض أمر، وفناء في شخص الشيخ المرشد.[٦٧]

لذلك فمن الضروري ملازمة المريد لشيخه، وهذه الضرورة هي التي فرضت على اللقيمي ملازمة أستاذه وشيخه مصطفى البكري الصديقي عندما انتظم في سلك الطريقة الخلوتية التي كان الصديقي شيخها. ويفصل اللقيمي كيف أخذ بداية النهج من أستاذه الصديقي عندما قال:[٦٨]

ودعى إلى النهج القويم مسلكاً   لطريقة منها شهدنا مشهدا

وذكر الصديقي ما حصل بينه وبين أحد أصدقائه ويدعى نور الدين عندما طلب من الصديقي وصله بطريق الخلوتية وإجابة الصديقي لنور الدين بالامتناع[٦٩] « ... فامتنعنا خوفاً من عدم القيام وفرقاً من حل عمدة العهد المربوط فأجاب

٦٥ نصر، الصوفية بين الأمس واليوم، ص ٧٠.

٦٦ والصحبة ثلاثة أنواع ١- صحبة من فوقك وهي خدمة ٢- صحبة من دونك وهي تفضي على المتبوع بالشفقة والرحمة، وعلى التابع بالوفاق والمزمة . ٣- صحبة الأكفاء والنظراء وهي مبنية على الإيثار والفتوة . أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية، مصر، ١٢٨٤، جـ٢، ص ٥٧٤.

٦٧ أبو العلا عفيفي، التصوف، الثورة الروحية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ص ٢١٦.

٦٨ اللقيمي، موانح الأنس ......، ورقة ٢٤.

٦٩ الصديقي، الخمرة الحسية ....، ورقة ٢٢.

بقبول الشرط والنهي والأمر، ولو كان بالجلوس على الجمر وأمرتهما بالكتم دون الإشاعة وأوصيتهما بحفظ ناموس الطريق وعدم الإضاعة وشعر سلامة بذلك وأدرك الداوي فتح الله ما هنالك فألحا وأبرما فأجبتهما راجياً أن يسلك الطريق بي وبهما أحسن المسالك ...».

ودور شيخ الطريقة الذي يقتضي التسليم التام له قد ذكر اللقيمي بعضاً منه عند اجتماعه بشيخه عندما أصبح مستعداً للانضمام إلى عقد أهل الطريقة الخلوتية، «...وحصلت لي العواطف الرحمانية بانتظامي في عقد أهل الطريقة الخلوتية فلقنني حضرة الأستاذ الاسم الأول وقت الغروب لدخول الخلوة لتتم لي النعمة، فأدخلني الخلوة بمنزله ليلة الثلاثاء راجياً من ا لله الفتح وكشف الغشا فمكثت بها إلى غروب يوم الخميس وطلعت منها ليلة عيد الله الأكبر......».[٧٠]

لقد ترك عدم التزام بعض مشايخ الطرق الصوفية بشروط الإرشاد المطلوبة لسلوك طريق التصوف الذي اقره الأولون أثره على تدني مستوى التصوف في ذلك العهد، غير أن هذا الخروج قد وجد رفضاً له عند البعض وقد ذكره الصديقي في رحلته معتمداً على رسالة وردته من أهم أقطاب التصوف العثماني في مصر هو عبد الوهاب الشعراني، (... أن أحد مشايخ فقرا هذه البلاد. سبقنا لأجل القرا وتحصيل الزاد. ومعه المزاهر والأعلام بقصد الشهرة والإعلام. وبات في ناحية ونحن في أخرى. وجاء في الصباح يسألنا عن أحوال السكون عنها أحرى. فأخذ الأخ السيد محمد الأمجد يذكر لي عن كيفية إرشاده... فقال طريقتهم إذا جاء فقيراً وأخذوا عليه العهد الخطير يقول له النقيب أجلس مريداً وقم نقيباً فيفعل ثم يقول له اجلس شيخاً وقم خليفة فيفعل ثم يدقون الطبول على رأسه ويقرون له الفواتح ويخبره الشيخ بالإرشاد. والدعوة لرب العباد فهل لهذا الفعل من سند معتمد عمن تقدم من أهل المدد ...[٧١]. فكان رد الشيخ الشعراني ما معناه... أن الحامل للأعلام والطبول إذا لم يدرس وضعها ومأخذها في الأصول وسر هذه الخرق المورثة كامل شامل الخرق لا يجوز له حملها ولا لبسها ولا إلباسها وشروط الإرشاد شروطاً كثيرة).[٧٢]

---

٧٠ اللقيمي، موانح الأنس ....، ورقة ٥٢.
٧١ الصديقي، الخمرة الحسية، ورقة ٢٧.
٧٢ المصدر السابق.

هـ- منهج الصحبة أو منهج الذكر

تسلك الطرق الصوفية في تربية مريديها منهج الصحبة أو منهج الذكر، والمقصود بالذكر هنا هو تلقين الشيخ للمريد: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ويضيف بعد ذلك المريد: إلهي أنت معبودي ولا سواك مقصودي، ويخضع الذكر لقواعد مضبوطة بالنسبة لجلوس المريد أمام شيخه وطريقة لفظ الأحرف حسب مخارجها، والتلقين عادة يكون بإذن من الشيخ للمريد بذكر الكلمة الطيبة.[٧٣] وطريقة الذكر تختلف بين طريقة صوفية وأخرى، ويحدث الذكر في أماكن معدة لذلك، وقد أورد النابلسي ما يفيد ذلك[٧٤] (... ثم دخلنا إلى مسجد لطيف البنيان معد للذكر مع الجماعة وتلاوة القرآن ...). أيضاً قد يتم الذكر كما ذكر[٧٥] الصديقي في زاوية من المسجد «... وكنا نذهب أحياناً معهم إلى أخريات المسجد نشتغل بالذكر والمذاكرة». واللقيمي قد ذكر تجربة التلقين مع شيخه الصديقي عندما انتظم في سلك الطريقة الخلوتية ولكن دون تفصيل يذكر.[٧٦]

ولم تقتصر إقامة الذكر على المريد، إنما كل من سلك طريق التصوف عليه المواظبة على إحياء الذكر ليستمر اتصاله بالله تعالى. وقد تكرر قيام الرحالة بالذكر كل ضمن المكان المخصص للطريقة التي ينتمي إليها. وطقوس إحياء الذكر تختلف بين طريقة وأخرى ولكن ما يهمنا هو استمتاع النابلسي أثناء زيارته للزاوية المولوية في القدس بطريقة سماع الذكر المصحوب برقص دائري وموسيقي، وقد استنكر النابلسي رفض البعض لاستخدام أتباع الطريقة المولوية للآلات الموسيقية أثناء الذكر فرد عليهم بالقول[٧٧] (.... ولقد أنشدنا بعض الأخوان قولنا في بيان الحكم الشرعي للسماع من الأبيات الحسان):

إن السماع سماع الناي والوتر   يسقي اراضي نفوس الناس كالمطر
فإن يكن في النفوس الخبث أنبته   وبالشقاء له نوع من الثمر

---

٧٣ عطا، التصوف الإسلامي ....، ص.ص ٢٤٠-٢٤٥.

٧٤ النابلسي، الحضرة ....، ورقة ١٦٢.

٧٥ الصديقي، الخمرة الحسية، ورقة ٢.

٧٦ اللقيمي، موانح الأنس، ورقة ٥٥.

٧٧ النابلسي، الحضرة ......، ورقة ٢٢١.

وإن يكن في النفوس الطيب فاح له	بين البرية ديا عنبر عطر
فاكشف بعقلك عما انت فيه وكن	من التباس امور النفس في حذر
وكل من قال بالتحريم مقصده	تحذير ذي الخبث من مستحكم الشرر
ومن يقل فيه بالتحليل فهو على	إرشاد ذي الطيب للتذكار والفكر
ومقصد الكل في الإسلام منفعة	حاشا بأن يقصدوا للناس من ضرر
أقم على نفسك الميزان معترفاً	بالجهل عن كل من لم تدر في البشر
فإن لله في طي الوجود على	مر الزمان ذكيات من الفطر

و: تصوف العامة وتصوف العلماء

أقبل الناس على التصوف في العهد العثماني بأعداد متزايدة لعدم خضوع التصوف في درسه والترقي في درجاته إلى شروط خارجة عن نطاق إجازة الشيخ للمريد بالنجاح في مرحلة لينقله إلى مرحلة أخرى، إضافة إلى ذلك فقد كان للكرامات والخوارق وقضاء الحاجات ووجود الطعام بصفة دائمة في المراكز الصوفية عوامل جذب لمختلف الطبقات إلى التصوف والصوفية [٧٨]، وهذا النوع من التصوف يمكن تسميته بـ(تصوف العامة) وقد أتى كل من الصديقي والنابلسي على ذكرهم بـ (الفقراء)، فالنابلسي يذكر كيفية استقبالهم له في ظاهر القدس كما سبق. أما الصديقي فيذكر ورود الفقراء في موسم موسى الكليم: (..... وكانت الفقراء بالطبول والأعلام ترد كل يوم أفواجاً على المقام ويحصل من البسط في هذه الأيام ما لا يصفه واصف مقدام ...). [٧٩]

ولكن غلبة (تصوف العامة) في العهد العثماني لم تمنع من انتشار (تصوف العلماء) ولو بنسبة أقل، والذي قال النابلسي عنه بأنه صعب المنال، والمشقة للوصول إليه شديدة وصعبة. [٨٠] ولكن مع ذلك فقد أوردت الرحلات أسماء أعلام متصوفة غفلت كتب التراجم عن ذكرهم، وكان لهم شأن في مجتمعهم. إضافة إلى شهرة عائلتين من بيت المقدس بالتصوف هما: عائلة الدجاني وعائلة العلمي، وقد ذكر الكثير من أبناء هاتين العائلتين لدى رحالتنا.

٧٨ أحمد عطا، التصوف الإسلامي ....، ص ٥٧.

٧٩ الصديقي، الخمرة ....، ص ١٢.

٨٠ النابلسي، الحضرة ....، ورقة ١٥١.

ز: ظاهرة المجاذيب

من المظاهر أيضاً التي أتت الرحلات على ذكرها ظاهرة المجاذيب، أي من أصابتهم الجذبة الإلهية لفنائهم في حب الله، وقد تعدد ذكر فقراء الزوايا الذين كثيراً ما كانوا في استقبال الرحالة وإقامة المواسم المعروفة كمواسم موسى الكليم.[٨١] والمجذوب هو من أراده الله واختاره، فطار به بين المقامات دون علم ومجاهدة غير أنه غير مؤهل لمقام ورتبة المشيخة.[٨٢]

ح: أهم أنشطة رجال التصوف في القدس

تعددت أنشطة المتصوفة الذين زاروا القدس واختلفت بين هؤلاء المتصوفة كلٌ حسب مكانته التي كان يشغلها فأتت هذه الأنشطة صورة لمرتبة أصحابها الصوفية. وأهم هذه الأنشطة وبشكل مختصر:

١- التأليف والتصنيف

لقد كان التأليف جزءاً من نشاط المتصوفة، فقد وضع النابلسي أثناء وجوده في القدس رسالة: « ... في التفضيل بين الأنبياء عليهم السلام على حسب ما سبق لنا من الوعود وكتبنا فيها ما تيسر من النقول على مقتضى الحاجة ما تقبله العقول، سميناها صفوة الأصفياء في بيان التفضيل بين الأنبياء ثم بيضها بعض الأصحاب وأرسلناها إلى طالبها منا جناب الشيخ مصطفى العلمي..»[٨٣]

أيضاً وضع الصديقي عدداً من التصانيف أثناء وجوده في بيت المقدس نذكر منها رسالته «... النصيحة السنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية وبقيت في المسودة نرجو بياضها في شامنا لما نحل غياضها. وسودت وقايع شيخنا المرحوم الشيخ عبد اللطيف سامحه الحي القيوم وسميتها الكوكب الثاقب في بعض ماليشيخنا من المناقب ونرجو لها التبيض...».[٨٤] ومن تأليف الصديقي

٨١ الصديقي، الخمرة ....، ورقة ١٢.

٨٢ أمين أبو كرم، الشيخ مصطفى البكري فلسفته الصوفية ورسائله، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢، ص ٦٦.

٨٣ النابلسي، الحقيقة.......، ورقة ٥٧.

٨٤ الصديقي، الخمرة ....، ورقة ٢٧.

في بيت المقدس «الفتح القدسي والكشف الأنسي» و «النهج القريب إلى لقاء الحبيب».[٨٥]

٢ - مناقشة مسائل فقهية

وقد كان من جوانب نشاط الرحالة المتعددة في بيت المقدس مناقشة بعض المسائل الفقهية بالاجتماع مع بعض الأعيان ورجال التصوف إما في بيوت أحد الأعيان أو في الزوايا أو في مكان استقرار الرحالة، وهذه المناقشات أتت خير مثال يعبر عن روح ثقافة عصر الرحالة. ومن المسائل التي تكرر ذكرها عند اللقيمي والنابلسي والصديقي مسألة إيمان فرعون[٨٦] ومناقشة سر ارتفاع الصخرة[٨٧] في المسجد الأقصى، ومناقشة مسألة إباحة الدخان، إضافة إلى مناقشة ظاهرة الفقر كظاهرة صوفية والجوع والزهد، ومسألة التجمل عند أهل الطريقة الشاذلية.[٨٨]

---

٨٥ المرجع السابق ، ورقة ١٧.

٨٦ النابلسي، الحضرة....، ورقة ١٨٥.

٨٧ اللقيمي، موانح الأنس....، ورقة ١٧.أيضاً: النابلسي، الحضرة....، ص ١٤١.

٨٨ الصديقي، الخمرة....، ص ٣٢.

الخاتمـة

لقد أعطت رحلات كل من النابلسي والصديقي واللقيمي صورة جسدت جانباً مهماً من جوانب الحياة الثقافية في القدس في أواسط العهد العثماني، الذي انتشرت فيه الطرق الصوفية انتشاراً واسعاً ضمن كل طبقاته الاجتماعية بسبب التشجيع والدعم العثماني لها، حيث بلغ التصوف عصره الذهبي من حيث الانتشار بأن أصبح زبدة الدين وخلاصته والموجه الأول لحياة الناس. لكن هذا الانتشار الواسع لم يقلل من أهمية الفكر الصوفي، الذي سعى جاهداً عبر مسيرته الطويلة للوصول بالإنسان إلى أعلى درجات الكمال من خلال ترويض المتصوف لنفسه ولمحيطه (إن نفس الإنسان هائلة الاتساع، فهي النظام الكوني بكامله لأنها صورة عنه، فكل ما هو في الكون هو فيها أيضاً، وكذلك كل ما فيها هو أيضاً في الكون. وبناءً على هذا الواقع، فالذي يروض نفسه لا مراء في أنه يروض الكون بأسره، وكذلك من يعنو لنفسه لامناص له من أن يعنو للكون برمته).[٨٩]

---

٨٩ نصر، الصوفية بين الأمس واليوم .....، ص ٣٥.

القدسُ في مخطوط من أواسط العهد العثماني: تحقيق ودراسة

د. بغداد عبد المنعم*

ربما كانت القدس من أكثر مدن العالم التي أمَّهَا الرحالةُ والمستكشفون والحجاج والفقهاء، وكذلك طلبَهَا العلماءُ والبحَّاثة من السويات كافة، فكانت نتائجُ حوارِهم مع المدينة مكتبةً ضخمة نوعية من المخطوطات وسلاسل من اللوحات التشكيلية ومجموعات من الصور والوثائق والخرائط ووجهات النظر القادمة من كل جهات الأرض .. ومن ذلك أنَّ القدسَ لاقَتْ خلال تاريخها أنواعاً من الاهتمام الخارجي، كان الأشد أهميةً فيه هو الاهتمام الاستشراقي التاريخي وتداعياته السياسية المتلاحقة.

تَشَكُّلُ القدس العثمانية

كانت تلك اللحظة التي حُسِمَتْ فيها المعركة لصالح السلطان العثماني سليم الأول في شمالي حلب .. تلك اللحظة من سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م.. في تلك البقعة الشامية القصية في مرج دابق .. كان بَدْءُ تاريخ جديد دخلتْ به غربُ آسيا جميعها بما فيها بلادُ الشام بفلسطينها وقدسها في نطاق الإمبراطورية العثمانية، واستمر ذلك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ..وكان الإعلانُ عن ذلك مجلجلاً حددته هذه المعركة المفصلية .. في السنة التالية دخل العثمانيون القدس .. وأخذَ السلطان سليمان القانوني (٩٢٧ هـ/١٥٢٠م) يوجه اهتماماً مميزاً للمدينة .. وبالرغم من أنَّ مدينة القدس تحمل هويتها الثابتة بخصوصيات مدنية ونفسية نوعية، فيها الانفتاح والتعددية وذلك العِتْق الإيماني المرابط .. بالرغم من هذا البعد ذي الطبيعة الفلسطينية التاريخية المميزة والملفتة للانتباه .. فقد عَمَّقَتْ الإدارةُ العثمانية ومبكراً – ومثلما فعلت في باقي مدن بلاد الشام الرئيسات:

---

* حلب – سورية

دمشق وحلب- حضورَها وبصماتِها الثقافية بتركيز واضح على العمارة وإنشاء المجمعات الواسعة ورصد الأوقاف لها.

العمارة الاستراتيجية

أُقيمتْ في بدء القرن الأول العثماني في مدينة القدس تكويناتٌ معمارية استراتيجية بقي كثير منها قائماً قرناً بعد قرن .. كان منها: سور القدس الذي دامت عمارته خمسة أعوام ولعله أهم أثر عثماني، وتكية خسكي سلطان، ومساجد وأسبلة. وكان هناك تجديد في قبة الصخرة.

تميزَ الانتشارُ المعماري في القدس في العصور العثمانية بظهور العمارة المرتبطة بالتصوف (التكايا والزوايا ومؤسسات الصوفية الأخرى)..وهكذا بدأتْ بذلك البصماتُ العثمانية تنطبع في قلب ووجه القدس منذ السلطان العثماني سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٦م) الذي أعاد بناء سور جديد للمدينة لاسيما في المواقع المهمة في الشمال والجنوب مدعماً بعدد من الأبراج والأبواب التي ما زالت مفتوحة حتى الآن (باب العمود أو باب دمشق، وباب الساهرة وباب ستي مريم، وباب الخليل وباب يافا وباب النبي داود وباب المغاربة).

وقد بقي الاهتمامُ المعماري بمنطقة الحرم القدسي أمراً واضحاً في جميع العهود الاسلامية، غير أنه تميز في العهد العثماني بالاتساع والديمومة وارتباطه العميق بالحاجات الانسانية الأساسية.. ففي عهد السلطان سليمان القانوني تَجلَّتْ وتَجسَّدَتْ عمارةُ (سُبلان الحرم القدسي) كتكوينات وظيفية لتأمين الماء وكتكوينات جمالية وبيئية تمنحُ المكانَ سحرَ الماء وعذوبتَهُ مما أضفى على الحرم جاذبيةً انضافتْ إلى سحر قدسيته.. فقد بُنيت عدةُ سبلان في الطرق الرئيسية المؤدية إلى المسجد الأقصى بالقرب من مداخله..فهناك سبيل عند باب السلسلة المدخل الرئيس لساحة الحرم، وسبيل قرب باب الناظر المؤدي إلى الحرم، وسبيل (ستي مريم) القريب من مدخل الحرم المعروف بباب الأسباط عند الزاوية الشمالية الشرقية من ساحة الحرم، وسبيل بركة السلطان في جانبها الجنوبي.. وغيرها. وكان كذلك الوقف الذي خصصته خسكي سلطان – زوجة السلطان سليمان القانوني والمفضلة لديه – من أكثر العمارات العثمانية التي امتازتْ بالاستراتيجية وبالأداء الإنساني بآن معاً. أُقيم هذا الوقفُ سنة ١٥٥٢م

حين أُنشِئَ مجمعٌ للفقراء والضعفاء والمحزونين: ضَمَّ تكيةً لها خمسة وخمسون باباً ونزلاً ومطبخاً عاماً ومخبزاً واسطبلات ومخازن. ونَصَّتْ حُجَّةُ الوقف على عدد الموظفين المطلوبين لإدارة هذا المجمع من خدم وكتبة وطهاة ومتدربين ومفتشي أطعمة وغسالي صحون وطحانين وعمال وجامعي قمامة.. وجاء في حجة الوقف تحديد نوع الطعام الذي يقدم والعناصر الغذائية المستخدمة. وأما الأوقاف المرصودة لصيانة المبنى فتأتي من ثلاث وعشرين قرية فلسطينية، وعوائد تجلب من قرية في شمال لبنان وعوائد من متاجر ومصانع صابون في طرابلس وقد بقي (مطبخ خسكي سلطان) يعمل طوال فترة الانتداب البريطاني.

أما قبة الصخرة فجرى في عهد السلطان سليمان القانوني استبدال زخرفتها الفسيفسائية التي شكلت الكسوة الخارجية للجدران العلوية لـ (قبة الصخرة) ورقبتها، وكان الخراب والتلف قد بدأ يعمل بها .. استُبدِلَتْ هذه الكسوةُ الزخرفية بالقيشاني الذي مازال قائماً إلى اليوم.

تراثٌ مخطوط موضوعه: مدينة القدس

غير أنَّ ثمة اهتماماً داخلياً خلق إنتاجاً ثقافياً ضخماً في تاريخ المدينة ولحظاتها المختلفة، فكَثُرَتْ المؤلفاتُ العربية التي وُضِعَتْ في تاريخ بيت المقدس وخصوصياته بدءاً من القرن الثالث الهجري وحتى القرن الرابع عشر، أي أنَّ تراثاً مخطوطاً كان موضوعه (مدينة القدس) تشكل طوال هذا الزمن وهو ما يحتاج إلى عملية استراتيجية عميقة وطويلة هي عمليةُ (تحقيقه ونشره) ومن ثم إتاحته لعمليات بحثية نوعية وحداثية.

بدءاً من القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي اقتصرت الكتاباتُ الجغرافية على الأماكن المقدسة في فلسطين.. ومن أشهر ما كُتِب في هذه الفترة:

كتابُ (الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية) للشيخ عبد الغني بن اسماعيل النابلسي (١٠٥٠ هـ - ١١٤٣هـ) الذي أودع فيه ما شاهده في مدن عكا والناصرة ونابلس والقدس والرملة ويافا وعسقلان وغزة وخان يونس في رحلته التي قام بها إلى فلسطين سنة ١١٠١هـ. والمخطوط الثاني (الرحلة الثانية) كان (سوانح الأنس برحلتي لوادي القدس) للشيخ مصطفى أسعد اللقيمي الدمياطي (١١٠٥ – ١١٨٧هـ/١٦٩٣- ١٧٧٣م). سُجلت مشاهدات رحلة الشيخ اللقيمي المقدسية

في أواسط الفترة العثمانية (منتصف القرن الثامن عشر) وذلك مع بدء التمدد الأوروبي نحو فلسطين وتشكيله مقدمة لنواة عملية صهيونية عالمية سرعان ما أسفرت عن وجهها.

تعتبرُ مخطوطةُ (سوانح الأنس) من أكثر المخطوطات التاريخية أهمية فقد تناولتْ مدينةَ القدس ومحيطها من البلدات والأماكن المقدسة .. وكذلك المدن والبلدات الفلسطينية التي عَبَرَها الشيخ اللقيمي في طريقه إلى مدينة القدس .. وهو خلال ذلك لا يسرد تاريخها كمدن (الطريقة الكلاسيكية) بل ينتقل إلى التوثيق لمشاهداته الحية عبر هذا الكتاب، خارجاً من سوية لغوية وأدبية راقية ستمنح هذا الكتاب الأهميتين معاً : التوثيقية التأريخية ويكون الجانب المعماري بعدٌ منها، والأهمية الثانية هي البعد الأدبي والشعري بوجود القصائد والأبيات التي كتبها الشيخ المؤرخ الشاعر نفسُهُ وذلك خلال عبوره المدن والبلدات الفلسطينية.

يمكن تصنيف المخطوط أيضاً في (أدب الرحلة) لكونه يمتلك أسلوباً أدبياً جلياً يتمثل في التشكيل البلاغي للجمل، ونستطيع من خلال القراءة الأولى في هذه المخطوطة أن نلاحظ الحضور الكثيف للشعر في كتابه وكونه يشكل إحدى القواعد الرئيسة التي يستند إليها في كتابة وتوثيق رحلته. وشكلت المرجعيةُ التاريخية قاعدةً أخرى، فكان من مصادره: المقريزي والهروي والحنبلي والشيخ النابلسي أيضاً..

ففي الورقة (٣و) من المخطوط (نسخة دار الكتب المصرية)[١] يحدد اللقيمي اليوم الذي بدأت فيه رحلته والمكان الذي انطلقت منه: (يوم الثلاثاء ١١٤٣هـ) من دمياط.

وهكذا يقدم لمحة تأريخية وتوصيفاً لبعض تكويناتها المعمارية، مثلاً في دمياط يذكر الجامع الفاتحي.. ويسجل في الورقات التاليات وصوله إلى العريش وخان يونس ودخوله إلى غزة .. ثم مشاهداته في مدينة الرملة. وفي الورقة (٢٣ظ) يسجل وصولَهُ إلى وادي القدس وإنشاده قصيدة طويلة بذلك مطلعها:

بشراك بشراك وادي القدس قد لاحا وطي نشر الشذا في دوحه فاحا

١ دار الكتب الوطنية – القاهرة – (فن الجغرافيا) رقم ٥٥٣. ذكر كارل بروكلمان هذه النسخة الوحيدة في الجزء العاشر من تاريخ الأدب العربي وهو لما يترجم بعد إلى اللغة العربية.

وفي الورقات التاليات (٢٤و) و (٢٦و) وما بعدها: يسجل مشاهداته وتوصيفاته لسور المدينة وأبوابها وأسمائها..ثم يتابع مشاهداته في الحرم القدسي .. فيقدم وصفاً معمارياً وأبعادياً للمسجد الأقصى .. للرواق الغربي .. وللصهاريج السبعة والأربعين والبركة الكبيرة والكأس.. ومقبرة الرحمة الإسلامية ووادي جهنم ودلالته لدى اليهود..ويصف كنيسة (الجثمانية) ويسجل مشاهداته لعين سلوان وبئر أيوب.

ولا يقتصر في تسجيلاته الدقيقة على مدينة القدس فقط بل يتابع توصيفاً مماثلاً بنفس المنهج لمدينة دمشق فيسجل مشاهداته في دمشق لجميع تكويناتها المعمارية والمائية.

كذلك فإنَّ هذه المخطوطة تؤرخُ لمدينة القدس وأوضاعها قبل حوالي مائة سنة من بدء التحرك اليهودي السياسي تجاه فلسطين .. هذا التحرك الذي يعتبر مؤتمر بال في سويسرا ١٨٩٧م البدايةَ المُعْلَنَة له.

خصوصياتٌ مجتمعية وإدارية

مدينةُ القدس لمَّا تزلْ مركزاً أزلياً للخضم السياسي في قلب العالم، وفي الوقت الحالي دخلتْ في عواصفَ ذاتِ مستوياتٍ متباينة من المؤثرات السياسية.. ولكنْ، قبل الحضور الغربي الرسمي إليها (قبل ١٩١٧م) امتلكتْ الدولةُ العثمانية الساحةَ السياسية للقدس .. وكان لهذا الأداء خصوصياتٌ:

خصوصيةُ التوازن مع أوروبا والانفتاح المديني

واصل العثمانيون بحرص شديد الجمع ما بين تطبيق الأساليب الإسلامية في التسامح والاعتدال وبين تحقيق توازن في التعامل السياسي مع أوروبا.. واصلوا تطبيق نهج من الاعتدال في التعامل مع المصالح الدينية المسيحية فتم الاعتراف ببطريركية فلسطين للروم الأرثوذكس في القدس في القرن السادس عشر باعتبارها القَيِّمَة على الأماكن المقدسة. وأصبحت فرنسا في الوقت نفسه تقريباً راعية الرهبان الكاثوليك.

وفتحت الامبراطورية العثمانية أبوابها – شأنها في ذلك شأن سائر أنظمة الحكم الإسلامية السابقة عليها – أمام مئات الآلاف من اللاجئين اليهود الذين فروا من

الاضطهاد الديني المسيحي في اسبانيا وغيرها من دول العالم المسيحي. لكن الأغلبية العظمى من هؤلاء اليهود سلكت مسلك أسلافها في القرون الماضية بعد الحروب الصليبية، وفضلت ألا تعيش في فلسطين ذاتها، ومن هنا هبط عدد اليهود في القرن الأول للحكم العثماني إلى أقل من ألف شخص في جميع أنحاء مدينة القدس، وحتى القرن الثالث للحكم العثماني[٢] (منتصف القرن الثامن عشر الميلادي) بلغ عدد اليهود (١١٥ شخصاً) فقط.

وضع العثمانيون مجموعة من الأحكام واللوائح، تضمنت حقوق اليهود والمسيحيين وواجباتهم في ممارسة شعائرهم الدينية في مزاراتهم واستندت هذه الأحكام إلى: العُرف وإلى الحقوق التي أقر بها الحكام المسلمون منذ العهدة العمرية، بالاضافة إلى أن المدن الفلسطينية الساحلية تميزت باستقطاب نشاط تجاري أوروبي لم تمانعه الدولة العثمانية .. واستمرت طرق التجارة مفتوحة بين سوريا ومصر عن طريق فلسطين، والتقت كذلك طرق الحج المتوجهة إلى مكة سواء القادمة من دمشق أو القاهرة أو غيرها في بلدة العقبة الفلسطينية.وبحلول منتصف القرن التاسع عشر كانت دول أوروبية كثيرة قد افتتحت قنصليات لها في فلسطين. وقد أسفر ذلك عن عدة نشاطات أوروبية ذات أبعاد استراتيجية كان لها بالتأكيد تأثير لاحق:

فخلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري بدأت البعثات التبشيرية المسيحية (كاثوليكية – بروتستانتية – رومية أرثوذكسية) تتغلغل بمدارسها ومستشفياتها ومطابعها. وفي سنة ١٨٩٢م أكملت شركة فرنسية بناء خط حديدي يصل بين يافا والقدس، وبقيتْ فلسطين قياساً بجميع الولايات العربية في الإمبراطورية العثمانية – باستثناء بعض القطاعات من جبل لبنان- من أكثر المناطق انفتاحاً على أوروبا المسيحية.

---

٢ Ammon Cohen, *Jewish Life under Islam: Jerusalem in the Sixteenth Century*, Cambridge, Mass. and London: Harvard University Press, 1948, p. 34

سنجق القدس في التقييم العثماني/ نهاية القرن ١٩

في عام (١٨٨٧- ١٨٨٨م) قسمت المنطقة التي عرفت فيما بعد بـ (فلسطين تحت الانتداب) إلى ثلاث وحدات إدارية:سنجق القدس، وسنجقا نابلس وعكا في الشمال. أمَّا سنجق القدس فكان يتألف من نصف أراضي البلاد في الجنوب وقد حُكم من قبل الآستانة مباشرة نظراً لأهميته بالنسبة للعثمانيين.
في ذلك الوقت (نهاية القرن التاسع عشر) كان عدد سكان السناجق الفلسطينية الثلاثة: ٦٠٠,٠٠٠ نسمة لا يتجاوز عدد اليهود فيهم ٢٥٠٠ (أي نسبة ٤ بالألف). وحتى هذا الوقت كانت الأمور السكانية بل الاجتماعية طبيعية للغاية ولم يكن في وضع اليهود أدنى حضور سياسي ..كان نصف هذا العدد من اليهود من المتدينين الذين يكرسون حياتهم للعبادة والصلاة ويتعمدون الابتعاد عن الحياة العامة، أما القسم الباقي من اليهود فلم يكونوا من المواطنين العثمانيين بل من حملة جنسيات أجنبية تتمتع بحماية نظام الامتيازات.

خصوصيةُ الاعتدال والاتساع الإسلامي

وحتى هذا الوقت تقريباً لم تكن الصهيونية قد أطلتْ برؤوسها بعد.. وكانت علاقات طبيعية تاريخية مديدة تحكم بين الفلسطينيين (مسلمين ومسيحيين) واليهود .. علاقات مستقرة مسالمة تحمل أكثر من ألف سنة من التعايش الطبيعي البعيد عن الالصاق والتطرف وهما من المواليد الشرعية للصهيونية.

عرفت فلسطين مناخاً من الاعتدال والتسامح الديني، فالمسلمون الفلسطينيون كانوا يوقرون الأنبياء كافة، وهو شعور تأصل في فلسطين بسبب تقاليد الحج إلى المقامات الدينية. وكان المسلمون الفلسطينيون أكثر من غيرهم شعوراً بذلك.. وذلك بسبب وقوع المواقع المقترنة بالأنبياء في أرضهم.. فكانت المساجد والمزارات الإسلامية التي تكرم الأنبياء العبرانيين وتحمل أسماءهم باللغة العربية.. وهي من السمات العامة في يوميات الحياة الفلسطينية.. ولعل من الأمور الفريدة وسط المسلمين مسلك الفلسطينيين في الاحتفال بالأعياد الدينية التي تكرم الأنبياء العبرانيين (موسم النبي موسى – موسم النبي روبين – أربعاء النبي أيوب) .. وكذلك موقفهم من إخوتهم المسيحيين، وهي علاقات خلت من التوتر

بصورة ملفتة. وليس غريباً أن تعهد مختلف الطوائف الدينية المسيحية في القدس بمفاتيح كنيسة القيامة إلى أسرة فلسطينية مسلمة.

أخيراً

تَشَكَّلَ في ملامحِ (القدس) طابعٌ عثماني جَلِي.. لم يتشكلْ في البنية المعمارية فقط، بل كان في التراث الثقافي العريض ومنه التراث المخطوط، وامتد كذلك إلى التركيبة المجتمعية والإدارية.. مما أكد أداءً عثمانياً استغرقَ قروناً طِوالاً أضافَ إلى كتابِ التاريخ المقدسي تاريخاً نوعياً.

الأوقاف والخدمات في القدس
في القرن الثامن عشر الميلادي
١١١٢-١٢١٤هـ/١٧٠٠-١٧٩٩م

د. زياد عبد العزيز محمد المدني*

معنى الوقف: الوقف في اللغة الحبس أو المنع، ويقال التحبيس وهي مصدر من وقف أو حبس.[١]

المعنى الفقهي: اختلف العلماء في إعطاء تعريف موحد للوقف، ويكمن سبب ذلك في تكييفه وتصوير حقيقته من حيث لزومه أو عدم لزومه، وبالرجوع إلى كتب المذاهب الفقهية نجد تعريفات عدة للوقف وهي:

تعريف الحنفية: يقول السرخسي طبقا لأبي حنيفة أنّ معنى الوقف هو حبس المملوك عن التملّك من الغير.[٢]

تعريف الشافعية: الوقف صدقة محرمة موقوفة وبأنها مسبلة وبحبوسها – أي أنها محبوسة في سبيل الله.[٣]

---

* عمان – الأردن

١ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١٦هـ/١١٣١م) لسان العرب: الجزء السادس، القاهرة، ١٩٨١م، ص٤٨٩٨، سيشار إليه فيما بعد: ابن منظور، لسان العرب. وانظر أيضاً برهان الدين إبراهيم بن موسى بن أبي بكر الشيخ علي الطرابلسي الحنفي: كتاب الإسعاف في أحكام الأوقاف، مطبعة هندية، الطبعة الثانية، ١٩٠٢م، ص٣. سيشار إليه فيما بعد: الطرابلسي: الإسعاف. أحمد بن محمد بن هارون الخلال: كتاب الوقوف، م ٢، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٩م، م١، ص ٣٨. سيشار إليه هكذا: الخلال: الوقوف.

٢ أبو بكر محمد بن أحمد أبي سهل السرخسي، ت ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م، كتاب المبسوط: تحقيق أبو عبدالله الشافعي – دار الكتب العلمية – بيروت ج ١١، ص ٢٧، سيشار إليه فيما بعد: السرخسي: المبسوط. وانظر أيضاً الطرابلسي: الإسعاف، ص ٣.

٣ الإمام أبو عبد الله محمد ابن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ/٨٢٠م) كتاب الأم، ج٣، بولاق، ص ٢٧٤ .

تعريف المالكية: الوقف صدقة موقوفة أو الحبس الموقوف.[٤]

تعريف الحنابلة: الوقف هو تحبيس الأصل وتسبيل الثَمرة، ونعني بالأصل: العين الموقوفة. وأمّا تسبيل المنفعة فيعني إطلاق العين الموقوفة من غلة وثمر وغيرها للجهة المستحقة[٥] وبهذا يكون تعريف الحنابلة للوقف هو حبس العين وتسبيل ثمرتها.[٦]

ويعتبر هذا التعريف أفضل وأدق وأشمل تعريف للوقف استناداً إلى قول الرسول محمد صلى الله عليه وسلّم لعمر بن الخطاب عندما أصاب أرضاً من خيبر، فقال يا رسول الله، أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمرني ؟ فقال: احبس أصلها وسبّل ثمرتها.[٧]

وبالرغم من اختلاف الفقهاء في إعطاء تعريف واحد للوقف إلا أننا نجد اتفاقاً بينهم على:

١- الوقف هو صدقة يقصد بها التقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

٢- توزيع ثمرتها في سبيل الله.

مشروعية الوقف: استند العلماء في مشروعية الوقف إلى قوله تعالى ﴿لن تنالوا

---

٤ الإمام مالك بن أنس الأصبحي، ت ١٧٩هـ/ م، المدونة الكبرى، م ٦، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، م ٤، ص ٤١٧. سيشار إليه فيما بعد: الإمام مالك، المدونة.

٥ محمد عبيد الكبيسي: أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية – ج٢ – مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٧م، ج١، ص ٨٦. سيشار إليه فيما بعد، الكبيسي: أحكام الوقف.

٦ موفق أبو محمد بن قدامة (ت٦٢٠هـ/١٢٦٠م)، المغني، ٨ أجزاء، دار الفكر، ط١، ١٩٨٤م، ج٦، ص٢٠٦، سيشار إليه فيما بعد: ابن قدامة: المغني، محمد أبو زهرة: محاضرات في الوقف، دار الفكر العربي، ص٣٩٠. سيشار إليه فيما بعد: أبو زهرة: محاضرات في الوقف، عبد العزيز الدوري: (دور الوقف في التنمية) في كتاب أهمية الأوقاف الإسلامية في عالم اليوم، لندن، ١٩٩٦م، ص٨١، سيشار إليه فيما بعد: الدوري: دور الوقف في التنمية.

٧ محمد علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م): نيل الأوطار، شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، ٦ أجزاء، تخريج خليل مأمون شيحا – دار المعرفة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٨م ج٦، ص ٤٨٣. سيشار إليه فيما بعد. الشوكاني: نيل الأوطار، ٦ ص ٢٠. وانظر أيضاً، الخلال: كتاب الوقوف، م١، ص ٦٠.

البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.[٨] وهذا يعني أن الوقف ليس عطاءً عادياً بل فيه شيء من الشِّدة على النفس بتخلّيها عما تحبه، وفي الحديث الشريف « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» والصدقة الجارية هي الوقف لأنّ منفعتها مستمرّةً.[٩] واستند العلماء أيضاً في مشروعية الوقف إلى حديث عمر بن الخطاب بعد أن أصاب أرضا بخيبر، فقال يا رسول الله: أصبت أرضاً بخيبر لم أُصب مالاً قط انفس عندي منه فما تأمرني؟ فقال: إن شئت حبّست أصلها وتصدّقت بها . فتصدق بها عمر على ألا تباع ولا توهب ولا تورث: في الفقراء وذوي القربى والرِّقاب والضيف وابن السبيل ألا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم غير متموِّل.[١٠]

أنواع الوقف: الوقف نوعان:

(١) ذُرِّي (أهلي):

وهو ما حبسه الواقف على نفسه مدة حياته وعلى أبنائه وذريته إلى أن ينقرضوا فيؤول إلى جهة خيرية حسب شرط الواقف، وهنا يصبح الوقف خيرياً، وهذه الجهة قد تكون المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة المشرفة، أو مسجد خليل الرحمن أو مقام النبي داود أو مقام النبي موسى،[١١] وفي حالة تعذر ذلك يعود وقفاً على فقراء المسلمين في بيت المقدس، أو الفقراء في أي مكان.[١٢]

---

٨ القرآن الكريم، سورة آل عمران آية ٩٢.

٩ وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، م ٨، دار الفكر دمشق، ١٩٨٤م، م ٨، ص ١٦٠-١٦٨. سيشار إليه فيما بعد. الزحيلي: الفقه الإسلامي، دار الفكر. وانظر أيضاً: صحيح البخاري، الجامع الصحيح، طبعة لايدن، ص ٣٥٨.

١٠ الإمام الشافعي: كتاب الأم، ج٣، ص ٦٧٠.

١١ سجلات محكمة القدس الشرعية رقم ٢٠٢، ١٠ شوال ١١١٥ هـ/٧ شباط ١٧٠٤م، ص١٨٦، يوجد منها نسخة ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، ونسخة أخرى في قاعة شعبة الأرشفة والمصغرات الفيلمية في مكتبة الجامعة الأردنية سيشار إليه فيما بعد. س ش القدس.

١٢ س ش القدس ٢١٣، أواسط رمضان ١١٣٠هـ/٢٩ تموز ١٧١٨م، ص ٥١-٥٢. س ش القدس ٢١٨ ٤ جمادى الأولى ١١٣٦هـ/كانون الثاني ١٧٢٤م، ص١٦١-٣٤٦، الزحيلي: الفقه الإسلامي، ج٨، ص ١٦١.

الوقف الخيري

وهو الذي يُوقف على جهة خيرية، ومثال ذلك ما أوقفه السلاطين والأمراء والولاة وكبار الموظفين وأهل الخير على المساجد والتكايا وسبل الماء والزوايا والخوانق وقنوات المياه وفقراء الصوفية ليكون مصدر إنفاق عليها.[١٣]

وما تحول أيضاً من الوقف الذري نتيجة انقطاع نسل الواقف وعقبه وذريته حسب شروطه إلى المساجد، فمثلاً وردت حجة شرعية غير واضحة مفادها انقراض ذرية الواقف (غير معروف) وحسب شرطه يعود العقار الموقوف إلى الصخرة المشرفة، ونظراً لعدم وجود أحد من ذريته آل العقار إلى الصخرة المشرفة.[١٤]

وتصنف الأوقاف الخيرية في مدينة القدس والقرى المجاورة لها إلى ما يلي:

أ- أوقاف لغايات دينية: مثل أوقاف المسجد الأقصى المبارك والصخرة المشرفة[١٥] وأوقاف جامع ساحة باب الخليل[١٦] وأوقاف جامع المغاربة[١٧] وأوقاف الجامع العمري[١٨] وأوقاف جامع محلة صهيون[١٩] وأوقاف جامع[٢٠] قرية اللطرون[٢١]

---

١٣ عبدالفتاح محمد أبو العينين: الميراث والوصية والوقف، ط ٣، ١٩٨٢م، ص ٥٧١. سيشار إليه فيما بعد هكذا: أبو العينين: الميراث والوصية. محمد أسعد الإمام الحسيني: المنهل الصافي في الوقف وأحكامه، وكالة أبو عرفه للصحافة والنشر، ص ٤. سيشار إليه فيما بعد: الحسيني: المنهل الصافي. محمد كمال الدين إمام: الوصايا والأوقاف في الفقه الإسلامي: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٨م، ص ١٨٧. سيشار إليه فيما بعد: إمام: الوصايا والأوقاف.

١٤ س ش القدس ٢٥٠، أواسط ذي القعدة ١١٨٠هـ / ٣١ آذار ١٧٦٧م، ص ١٦٤. س ش القدس ٢٦١، محرم ١١٩٤هـ / ٨ كانون الثاني ١٧٨٠م، ص ٦٦.

١٥ س ش القدس ٢٤٦، جمادى الأولى ١١٧٧هـ/٧ تشرين الثاني ١٧٦٣م، ص ١١٦-١١٧.

١٦ س ش القدس ٢٤٣، محرم ١١٧٣هـ / ٢٥ آب ١٧٥٩م، ص ٥٠.

١٧ س ش القدس ٢٣٦، شعبان ١١٦٣هـ / ٦ تموز ١٧٥٠م، ص ٣٠٦.

١٨ س ش القدس ٢٤٣، رمضان ١١٧٣هـ / ١٧ نيسان ١٧٦٠م، ص ١٢٩.

١٩ س ش القدس ٢٥٨، محرم ١١٩١هـ / ٩ شباط ١٧٧٧م، ص ٣٠.

٢٠ س ش القدس ٢٤٩، محرم ١١٨٠هـ / ٩ حزيران ١٧٦٦م، ص ٦٦.

٢١ اللطرون: قرية تقع على بعد ٦ كيلو من الرملة من الجهة الجنوبية الغربية من عمواس على بعد ميل واحد: معجم بلدان فلسطين، تصنيفها محمد حسن الشراب، الأهلية للتوزيع، ص ٣٦٥، سيشار إليه فيما بعد: الشراب، معجم بلدان فلسطين.

وأوقاف جامع الشيخ حسين[٢٢] بقرية عين عريك[٢٣].

أوقاف لغايات علمية: مثل أوقاف المدارس والزوايا: مثل المدرسة الدوادارية[٢٤] والمدرسة الحنفية[٢٥] والمدرسة المولوية[٢٦] والمدرسة الجوهرية،[٢٧] والمدرسة الأوحدية،[٢٨] والمدرسة القادرية،[٢٩] والمدرسة الحمرا،[٣٠] والمدرسة المنجكية،[٣١] والمدرسة الأفضلية.[٣٢] والزاوية الأسعدية،[٣٣] والزاوية الأدهمية،[٣٤] وزاوية

٢٢ س ش القدس ٢٤٨، ١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م، ص ٥٥ .

٢٣ عين عريك: قرية تقع إلى الغرب من رام الله: الشراب: معجم بلدان فلسطين، ص ٥٥٩.

٢٤ س ش القدس ٢٢٣، ربيع الأول ١١٨٣هـ / ٥ تموز ١٧٦٩م، ص ١٩٥. المدرسة الدوادارية: تقع بباب العتم شمال الحرم أنشأها الأمير علم الدين أبو سنجر الدودار عام ٦٩٥هـ/ م. كامل جميل العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس – نشر بدعم من الجامعة الأردنية ١٩٨٣م. ص ٢٣٨-٢٣٩. سيشار إليه فيما بعد: العسلي: معاهد العلم.

٢٥ س ش القدس ٢٣٢، محرم ١١٥٦ هـ / ٢٥ شباط ١٧٤٣م، ص ٥٠٥. المدرسة الحنفية: بنيت عام ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، وتقع باب الدوايدارية وقد حبسها الملك المعظم شرف الدين بن عيسى الحنفي: اليعقوب: ناحية القدس ج٢، ص ٣٢١.

٢٦ س ش القدس ٢٤١، جمادى الأولى ١١٧١ هـ / ١١ كانون الثاني ١٧٥٨م، ص ٨٥. المدرسة المولوية: خانقاه تقع بحارة السعدية وأنشأتها الدولة العثمانية لاتباع الطريقة المولوية. العسلي: معاهد العلم، ص ٣٣٩.

٢٧ س ش القدس ٢٥٢، ربيع الثاني ١١٨٣هـ/ ١٥ تشرين الأول ١٧٦٩م، ص ١٤٥. المدرسة الجوهرية: تقع بباب الحديد وقفها جوهر القنقباي. العسلي: معاهد العلم، ص ١٩٦.

٢٨ س ش القدس ٢٥٦، ربيع الثاني ١١٩٤ هـ / ٦ نيسان ١٧٨٠م، ص ١٥٢. المدرسة الأوحدية: تقع بباب حطة أوقفها الملك الأوحد نجم الدين يوسف بن صلاح الدين عام ٦٩٧هـ. العسلي: معاهد العلم، ص ٢٥١.

٢٩ س ش القدس ٢٠١، ١٣ شعبان ١١١٣هـ / كانون الثاني ١٧٠٢م، ص ٣١. المدرسة القادرية: تقع بين باب حطة وباب الأسباط أنشأتها مصر خاتون عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م. محمد أحمد سليم اليعقوب: ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ج٢، منشورات البنك الأهلي الأردني ١٩٩٩م، عمان، ج٢، ص ٣٢٩. سيشار إليه فيما بعد: اليعقوب: ناحية القدس.

٣٠ س ش القدس ٢٠٩، ذي القعدة ١١٢٧هـ/٢٩ تشرين الأول ١٧١٥م، ص ٢٢٧.

٣١ س ش القدس ٢٠٨، شعبان ١١١٥هـ / ١٠ كانون الأول ١٧٠٣م، ص ٧٠. المدرسة المنجكية: تقع في باب الناظر وتنسب إلى الأمير سيف الدين منجك اليوسفي. اليعقوب: ناحية القدس، ص ٣٢٣.

٣٢ س ش القدس ٢٥٤، صفر ١١٨٧هـ/٢٤ نيسان ١٧٧٣م، ص ٧٥. المدرسة الأفضلية: تقع في حارة المغاربة وحبسها على فقهاء الشافعية السلطان الملك الأفضل، العسلي: معاهد العلم: ص ١١٦.

٣٣ س ش القدس ٢٥٦، ربيع الأول ١١٩٩هـ/ ١٢ كانون الثاني ١٧٨٥م، ص ١١٢.

٣٤ س ش القدس ٢٠٩، ربيع الثاني ١١٢٦هـ/١٧ آذار ١٧٨٤م، ص ٧٦. الزاوية الأدهمية: تقع خارج سور القدس قرب باب الساهرة: العسلي: معاهد العلم، ص ٣٥٥.

الهنود،[٣٥] والزاوية القادريـة.[٣٦]
والخانقاة الصلاحية،[٣٧] والخانقاة الفخرية[٣٨] والرواق المنصوري،[٣٩] والرباط المنصوري.[٤٠]

أوقاف لغايات إنسانية: الوقف على الفقراء والمساكين،[٤١] والبيمارستـان،[٤٢] وقناة السبيل،[٤٣] وأسبلة الماء،[٤٤] وأوقاف خاصكي سلطان.[٤٥]

كما خصص بعض الواقفين جزءاً من ريع الأوقاف الخيرية لصرفها على توزيع الخبز على الفقراء.[٤٦]

الوقف والخدمات الدينية: حظيت الخدمات الدينية بأولوية الواقفين على اختلاف فئاتهم الاجتماعية، واستمر هذا كسياسة عامة ودون انقطاع، وكان المسجد هو

---

٣٥ س ش القدس ٢٠٩، ربيع الأول ١١٢٦هـ/١٧ آذار ١٧٨٤م، ص ٧٦. زاوية الهنود: تقع في محلة باب حطة وتنسب إلى الهنود المجاورين في القدس: اليعقوب: ناحية القدس، ج٢، ص ٣٦٢.

س ش القدس ٢٠٢ ١٠ رجب ١١١٥هـ/ ١٠ تشرين الثاني ١٧٠٣م، ص ١٢١. الزاوية القادرية: تقع في محلة الواد أسسها عبدالقادر الجيلاني لاتباع الطريقة القادرية: العسلي، معاهد العلم، ص ٣٦٢-٣٦٣.

٣٧ س ش القدس ٢٥٦، ربيع الأول ١١٩٩ هـ / ١٢ كانون الثاني ١٧٨٥م، ص ١١٢. س ش القدس ٢٠٩، صفر ١١٢٧ هـ / ٦ شباط ١٧١٥م، ص ٩٩. الخانقاة الصلاحية: تقع في محلة النصاري أوقفها صلاح الدين الأيوبي، اليعقوب، ناحية القدس، ج٢، ص ٣٤٩.

٣٨ س ش القدس ٢٠٥، جمادى الأولى ١١٢١هـ / ٩ تموز ١٧٠٩م، ص ٣٢٠. الخانقاة الفخريـة: تقع ضمن المدرسة الفخرية إلى الغرب من الحرم الشريف، اليعقوب: ناحية القدس، ج٢، ص ٣٥٠.

٣٩ س ش القدس ٢١١، جمادى الأولى ١١٢٩هـ / ١٣ نيسان ١٧١٧م، ص ٧٠.

٤٠ س ش القدس ٢٦٢، ١٢ محرم ١١٩٥ هـ / ٢٨ كانون الأول ١٧٨٠م، ص ٥٩. الرباط المنصوري: يقع بباب الناظر وقفه الملك المنصور قلاوون الصالحي، سنة ٦٨١هـ. العسلي: معاهد العلم، ص ٣١٧.

٤١ س ش القدس ٢٠٩، ربيع الثاني ١١٢٦هـ / ١٦ نيسان ١٧١٤م، ص ٦٣.

٤٢ س ش القدس ٢٤١، رجب ١١٧١هـ / ١١ آذار ١٧٨٥م، ص ١٤٧-١٤٨. س ش القدس ٢٦٣، ربيع الثاني ١١٩٦هـ / ١٦ آذار ١٧٨٢م، ص ٥٦.

٤٣ س ش القدس ٢١٠، شعبان ١١٢٨هـ / ٢١ تموز ١٧١٥م، ص ١٣٢. س ش القدس ٢٠٧، ربيع الثاني ١١٢٤هـ / ٨ ايار ١٧١٢م، ص ٢١٢-٢١٣.

٤٤ س ش القدس ٢٠٨، رجب ١١٢٥هـ / ٢٤ تموز ١٧١٣م، ص ١٠٥-١٠٦.

٤٥ س ش القدس ٢١١، رجب ١١٢٧هـ / ٣ تموز ١٧١٥م، ص ١١٩.

٤٦ س ش القدس ٢٣٠، ١٠ جمادى الأولى ١١٥٣هـ/ ٦ آب ١٧٣٩م، ص ٢١٠.

محور سياسة الوقف في هذا المجال يليه المقامات والأضرحة والزوايا، وقد خصَّ الواقفون المساجد بعد انقراض ذريتهم وعقبهم وذلك بأن يؤول الوقف إلى المسجد أو إلى الزاوية أو المقام، فعلى سبيل المثال كان من شروط الواقفة آمنة عبدالله الجبالي أن يؤول الوقف بعد انقراض ذريتها ونسلهم وعقبهم إلى الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى الشريف،[٤٧] وكان من شروط الواقف عبدالله إبراهيم الداودي أن يؤول الوقف بعد انقراض ذريته إلى مسجد الصخرة المشرفة.[٤٨] وكان من شروط الواقف عبداللطيف أفندي الحسيني أن يؤول الوقف بعد انقراض ذريته إلى زاوية الشيخ محمد القرمي،[٤٩] وكان من شروط الواقف بشير المغربي أن يؤول الوقف بعد انقراض ذرية ابنته فاطمة إلى زاوية أبي مدين الغوث.[٥٠]

واشترط الواقف أحمد عبدالقديم أن يعود الوقف بعد انقراض ذريته إلى ضريح النبي إبراهيم الخليل عليه السلام.[٥١] واشترط الواقف عبداللطيف أفندي أن يؤول وقفه بعد انقراض ذريته: نصفه إلى مقام النبي موسى والنصف الثاني إلى مصالح زاوية محمد القرمي،[٥٢] واشترط محفوظ السروري أن يؤول وقفه بعد انقراض ذريته ونسله إلى مقام الخضر[٥٣] واشترطت الواقفة زينب يوسف أن يؤول وقفها بعد انقراض ذريتها ونسلهم إلى زاوية[٥٤] الشيخ لولو.[٥٥] وقد وفرت هذه الأوقاف مصدر أنفاق على المساجد والزوايا والمقامات إذ كان للمسجد موظفون يقومون بعدة وظائف مثل الإمامة والخطابة والأذان وقراءة القرآن وتنظيفه.

ويعتبر المسجد الأقصى المبارك ومسجد الصخرة المشرفة أكبر وأهم مساجد

---

٤٧ س ش القدس ٢٣٦، غرة شعبان ١١٦١هـ/ ٢٧ تموز ١٧٤٨م، ص ٥٥.

٤٨ س ش القدس ٢٤٤، أواخر جمادى الأولى ١١٧٥هـ/٢٨ تشرين الثاني ١٧٦١م، ص ١٨٢. س ش القدس ٢٤٥، ١٨ شعبان ١١٧٥هـ / ٢٥ شباط ١٧٦٢م، ص ٤٠.

٤٩ س ش القدس ٢٤٤، أواخر جمادى الثانية ١١٧٤هـ/٨ كانون الثاني ١٧٦١م، ص ١٢٢.

٥٠ س ش القدس ٢٤٥، أواخر ذي القعدة ١١٧٥هـ/ ٢٤ أيار ١٧٦٢م، ص ٥٥-٥٦.

٥١ س ش القدس ٢٤٦، جمادى الأولى ١١٧٧هـ/ تشرين الثاني ١٧٦٣م، ص ١١٦. س ش القدس ٢٤٦، ٢٢ جمادى الأولي ١١٧٧هـ/٧ تشرين الثاني ١٧٦٣م، ص ١١٨-١١٩.

٥٢ س ش القدس ٢٤٩، محرم ١١٨٠هـ/ ٩ حزيران ١٧٦٦م، ص ٦٣-٦٦.

٥٣ س ش القدس ٢٥١، أواخر جمادى الأولى ١١٨٢هـ/١٣ أيلول ١٧٢٨م، ص ١٥٠-١٥١.

٥٤ الزاوية اللؤلؤية: تقع داخل سور مدينة القدس جنوب شرقي باب العمود أوقفها بدر الدين لؤلؤ غازي سنة (٧٨١هـ/ ١٣٨٠م)، الموسوعة الفلسطينية، ص ٥٢٩.

٥٥ س ش القدس ٢٥٢، محرم ١١٨٣هـ/ ٧ أيار ١٧٦٩م، ص ٨٠.

القدس نظراً لأهميتهما الدينية، وكان لهذين المسجدين موظفون، وقد تولى هذه الوظائف الأسر المقدسية العريقة إضافة إلى كبار الموظفين الدينيين في مدينة القدس، أما الوظائف فهي رئيس الخطباء، وتولى هذه الوظيفة إبراهيم فخر الدين الجاعوني،[٥٦] ومحمد أفندي الجماعي.[٥٧] وتشير سجلات محكمة القدس الشرعية إلى أن وظيفة رئيس الخطباء بالمسجد الأقصى كانت مقررة على أبناء أبي جماعة منذ عهد صلاح الدين الأيوبي، وقد احترم العثمانيون هذا التقليد وأبقوا عائلة أبي جماعة في هذه الوظيفة،[٥٨] أما الذين تولوا وظيفة الخطابة بالمسجد الأقصى فهم أبو الهدى بن محمد أفندي مفتي الحنفية بالقدس،[٥٩] وعبدالرحمن العفيفي،[٦٠] وجار الله أفندي.[٦١]

ومن الوظائف الأخرى رئيس الأئمة، وقد تولى هذه الوظيفة محمد الموقت إمام المالكية.[٦٢] أما الذين تولوا وظيفة الإمامة بالمسجد الأقصى فهم الشيخ عثمان علي العلمي[٦٣] وخليل أفندي[٦٤] وعبدالرحيم موسى أفندي الشهير بابن قاضي السلط[٦٥] ومحمد أفندي مفتى الشافعية[٦٦] وفتح الله غضية،[٦٧] ومن الوظائف أيضاً رئيس المؤذنين، وقد تولى هذه الوظيفة الشيخ كمال فتح الله[٦٨] والشيخ كمال الدين غضية.[٦٩]

أما وظائف مسجد قبة الصخرة المشرفة فهي الإمامة، وقد تولى هذه الوظيفة

---

٥٦ س ش القدس ٢٠١، اواسط ربيع الثاني ١١١٤هـ/٢١ تشرين الثاني ١٧٠٢م، ص ٣٥٤.
٥٧ س ش القدس ٢٠٢، جمادى الثانية ١١١٥هـ / ١٢ تشرين الثاني ١٧٠٣م، ص ١٠٦.
٥٨ س ش القدس ٢٢١، رمضان ١١٣٨هـ / ٣ أيار ١٧٢٦م، ص ١٧.
٥٩ س ش القدس ٢٠٥، ٢٥ محرم ١١٢٠هـ / ٢٣ آذار ١٧٠٨م، ص ٤٤.
٦٠ س ش القدس ٢٠٢، ١٩ رجب ١١١٥هـ/١٠ تشرين الثاني ١٧٠٣م، ص ١٤١.
٦١ س ش القدس ٢٠٩، ربيع الثاني ١١٢٦هـ / ١٦ نيسان ١٧١٤م، ص ٦٣.
٦٢ س ش القدس ٢١٥، شعبان ١١٣٣هـ / ٢٨ أيار ١٧٢١م، ص ٥٤.
٦٣ س ش القدس ٢١٤، ذي الحجة ١١٣٢هـ/٤ تشرين الأول ١٧٢٠م، ص ٢١٠.
٦٤ س ش القدس ٢٥٥، ذي القعدة ١١٨٨هـ / ٣ كانون الثاني ١٧٧٥م، ص ١٧٥.
٦٥ س ش القدس ٢٧٤، ٦ شوال ١٢٠٧هـ / ١٢ أيار ١٧٩٣م، ص ١٢٩.
٦٦ س ش القدس ٢٧٣، شعبان ١٢٠٧هـ / ١٤ آذار ١٧٩٣م، ص ١٠٤.
٦٧ س ش القدس ٢٠٥، محرم ١١٢١هـ/ ١٣ آذار ١٧٠٩م، ص ٢٥٩.
٦٨ س ش القدس ٢١١، جمادى الثانية ١١٢٩هـ / ١٣ أيار ١٧١٧م، ص ٨٩.
٦٩ س ش القدس ٢٠١، أواخر شوال ١١١٤هـ / ١٨ شباط ١٧٠٣م، ص ٤٢٩.

أمين نور الدين الداودي مقابل راتب يومي قدره ٥ قطع مصرية[٧٠] كما تولاها أيضاً عبدالسلام الفتياني.[٧١]

واهتمت بعض الوقفيات الذرية بقراءة القرآن في المسجد الأقصى والصخرة المشرفة وخصصوا جزءاً من ريع الوقف الذري لشخص من حفظة القرآن الكريم، وتحديد مؤهلات هذا المقرئ إذ وقفت شريفية صالح العسلي وقفها (دار بخط داود) على أئمة المسجد الأقصى شريطة أن يقوموا بقراءة القرآن الكريم بالمسجد الأقصى،[٧٢] كما اشترط عبدالله إبراهيم الداودي أن يدفع الناظر في كل يوم جمعة قطعة مصرية إلى خطيب المسجد الأقصى لقراءة سورة الفاتحة بين الخطبتين وإهداء ذلك لروح الواقف،[٧٣] وكان من شروط محمد صنع الله الخالدي تخصيص ثمانية عشر قرشاً من ريع وقفه لأربعة أشخاص لقراءة القرآن شهرياً وختمه ثلاثة مرات في شهر رمضان وإهداء ذلك للنبي ولروح الواقف ولوالديه.[٧٤] واشترط الواقف خليل شرف الدين أبو جبنة أن يخرج من ريع وقفه في كل سنة ١٢ زلطة يدفعها الناظر إلى المجاورين التكارنه بالحرم القدسي لقراءة جزأين من القرآن الكريم وإهداء ذلك للنبي محمد ثم للواقف.[٧٥] ومن جهة ثانية كان للمساجد القائمة في مدينة القدس والقرى المجاورة لها موظفون يقومون بوظائف الإمامة والخطابة لكن ليس بنفس عدد موظفي المسجد الأقصى المبارك والصخرة نظراً لقلة مساحة هذه المساجد، ولأن أوقافها ليست بحجم أوقاف المسجدين المشار إليهما، كما أن بعض هؤلاء الموظفين تولوا أكثر من وظيفة في المسجد في آن واحد، فقد قرر النائب الشرعي تعيين محمد فضل أفندي الدجاني في وظيفة الإمامة في جامع قلاوون بمحلة النصارى ويقبض أجرته من ريع الدار الموقوفة على المسجد[٧٦]، كما قرر النائب الشرعي تعيين الشيخ جودة الله ابن الشيخ مصطفى في وظيفة الأذان بمسجد الجنات الواقع بمحلة النصارى في كل يوم قطعة مصرية

---

٧٠ س ش القدس ٢٠٢، ربيع الأول ١١١٦هـ / ٤ تموز ١٧٠٤م، ص ٧٠.

٧١ س ش القدس ٢٧٣، شعبان ١٢٠٦هـ / ٢٥ آذار ١٧٩٢م، ص ٢٢٥.

٧٢ س ش القدس ٢٤٣، ذي القعدة ١١٧٣هـ/١٥ حزيران ١٧٦٠م، ص ١٨٣-١٨٤.

٧٣ س ش القدس ٢١٣، محرم ١١٣١هـ/ ٢٤ تشرين الأول ١٧١٨م، ص ٩١-٩٤.

٧٤ س ش القدس ٢٥٠ صفر، ١١٨١هـ / ٢٩ حزيران ١٧٦٧م، ص ١٨-٢٠.

٧٥ س ش القدس ٢٥٠، جمادى الأولى ١١٨١هـ/ ٢٥ أيلول ١٧٦٧م، ص ١٢٩-١٣٣.

٧٦ س ش القدس ٢١٠، رجب ١١٢٨هـ / ٢١ حزيران ١٧١٦م، ص ١١٣.

تدفع من وقف الخانقاه الصلاحية، كما قرر أيضاً تعيين أبي الوفا العلمي في وظيفة الإمامة والأوقات الخمسة في كل يوم بمسجد الجنات بمحلة النصارى في كل يوم قطعة مصرية تدفع من وقف الخانقاه الصلاحية،[٧٧] وتولى بشير أفندي وظيفة الإمامة بالجامع الواقع بباب الساهرة في كل يوم عثماني.[٧٨]

وتولى مصطفى أفندي العفيفي نصف وظيفة الإمام بجامع الشيخ لولو الواقع بباب العمود مقابل عثماني تدفع من محصول الوقف.[٧٩]

كما تولى علي محمد ابن قاضي السلط وظيفة الإمامة بجامع الحدادين بالقرب من السوق الكبير،[٨٠] وتولى حسن أفندي المبارك وظيفة الإمام بجامع عرصة البازار،[٨١] وتولى محمد صالح الداودي وظيفة الإمامة بالمسجد الواقع بباب حطة،[٨٢] وتولى مصطفى وأخوه محمد عارف أبناء خليل نصف وظيفة الإمامة بجامع البازار،[٨٣] وتولى عبدالله الدنف وأولاده نصف وظيفة البوابة والشعالة والإمامة والأذان بجامع السيد بادار،[٨٤] وتولى أبناء مصطفى وأبناء محمد بن عبدالله قاسم الوظائف التالية بالجامع الواقع بمحلة صهيون، وهي: الإمامة والفراشة والبوابة والأذان.[٨٥] وتولى قاسم محمد قنديل وظائف تنظيف وإضاءة جامع إسماعيل الأزرق الواقع في محلة اليهود، ووظائف الأذان والإمامة بالجامع المذكور مقابل راتب من ريع وقف الجامع.[٨٦]

ومن جهة ثانية كان لمسجدي الأقصى المبارك والصخرة المشرفة وظائف خدماتية مثل التنظيف والإضاءة والبوابة، فقد تولى محمد أفندي الشيخ محمد خليل وظائف الخدمة والشعالة والفراشة بالصخرة المشرفة، ووظيفة الخدمة

---

٧٧ س ش القدس ٢١٠، رجب ١١٢٨هـ / ٢١ حزيران ١٧١٦م، ص ٩٩.

٧٨ س ش القدس ٢١٤، ربيع الأول ١١٣٢هـ/ ١٢ كانون الثاني ١٧٢٠م، ص ٧٢.

٧٩ س ش القدس ٢١٦، شوال ١١٣٣هـ / ١٧٢٦م، ص ٦٥.

٨٠ س ش القدس ٢١٤، ذي القعدة ١١٣٢هـ / ٤ أيلول ١٧٢٠م، ص ١٦٨.

٨١ س ش القدس ٢٠٣، محرم ١١١٧هـ / ٢٥ نيسان ١٧٠٥م، ص ٦.

٨٢ س ش القدس ٢١٢، رمضان ١١٣٠ هـ / ٢٩ تموز ١٧١٨م، ص ٨١.

٨٣ س ش القدس ٢٥٥، ذي القعدة ١١٨٨هـ/٢٥ كانون الثاني ١٧٧٥م، ص ١٧٥.

٨٤ س ش القدس ٢٥٣، جمادى الأولى ١١٨٥هـ / ١٢ آب ١٧٧١م، ص ٧٩.

٨٥ س ش القدس ٢٧٧، ٢١ ربيع الأول ١٢٠٩هـ/٢٦ أيلول ١٧٩٤م، ص ٣٤.

٨٦ س ش القدس ٢٧٥، جمادى الثاني ١٢٠٨هـ/٤ كانون الثاني ١٧٩٤م، ٥٠-٥١.

بالمسجد الأقصى، وتنظيف سجاد الصخرة، وإضاءة القناديل بالصخرة، وتنظيف مصاطب الصخرة، وتنظيف المسجد الأقصى.[٨٧] وتولى خليل أحمد سنطية وظيفة حفظ سجادة إمام المسجد الأقصى وفرشها وحراسة المسجد الأقصى مقابل خبز من أوقاف خاصكي سلطان.[٨٨] وتولى موسى صنع الله الخالدي رئيس الكتاب بمحكمة القدس الشرعية وظائف البواب بالمسجد الأقصى والفراشة والإضاءة والتنظيف بالصخرة المشرفة.[٨٩]

وخصص بعض الواقفين جزءاً من ريع وقفياتهم الذرية لإضاءة المسجد الأقصى، فقد خصص قاسم بك ترجمان محكمة القدس الشرعية جزءاً من ريع وقف لشراء زيت ووضعه في بئر الزيت الواقع بالمسجد الأقصى، وشراء رطلين شمع عسلي لإضاءة مسجد الحنابلة في شهر رمضان المبارك[٩٠]. كما خصص صنع الله الخالدي جزءاً من عائدات وقفه لشراء زيت ووضعه في بئر الزيت الواقع بالمسجد الأقصى،[٩١] وخصص عبدالله سموم جزءاً من ريع وقفه لشراء رطلي شمع عسلي لإضاءة جامع الملكية في شهر رمضان، وإضاءة البراق في شهر رمضان المبارك.[٩٢]

كما خصصت الدولة العثمانية ٧,٥ فضة عن كل حمل صابون يخرج من القدس لشراء فرش لمسجد الصخرة.[٩٣]

وكان للزوايا والخوانق والمقامات والأضرحة موظفون يتقاضون رواتبهم من غلة أوقاف هذه الزوايا، وقد تولى خليل عبدالله غنيم نصف وظيفة المشيخة بالزاوية القادرية،[٩٤] وتولى خليل نوح وظيفة الإمامة بالزاوية الأدهمية على أن يقبض راتبه من ريع الوقف،[٩٥] كما تولى كل من أبو الفضل وعبدالغني أبناء مصطفى العلمي

---

٨٧ س ش القدس ٢١٠، ذي الحجة ١١٢٧هـ/٢٨ تشرين الثاني ١٧١٥م، ص ٢٩.

٨٨ س ش القدس ٢٣١، ربيع الأول ١١٥٤هـ / ١٧ أيار ١٧٤١م، ص ٢٨.

٨٩ س ش القدس ٢٧٣، شعبان ١٢٠٧هـ / ١٤ آذار ١٧٩٣م، ص ١٠٨.

٩٠ س ش القدس ٢٠٧، ٢٧ شوال ١١٢٣هـ/١٢ تشرين الثاني ١٧١١م، ص ١٢٠-١٢١.

٩١ س ش القدس ٢٠٧، رمضان ١١٢٤هـ/ ٢ تشرين الأول ١٧١٢م، ص ٣٤٤-٣٤٥.

٩٢ س ش القدس ٢٢٣، ١٤ شعبان ١١٧٥هـ / ٢٥ شباط ١٧٦٢م، ص ٦-٧.

٩٣ س ش القدس ٢٧٧، محرم ١٢١٠هـ / ٨ تموز ١٧٩٥م، ص ٣.

٩٤ س ش القدس ٢١٣، جمادى الثانية ١١٣١هـ / ٢١ نيسان ١٧١٨م، ص ١٣٦.

٩٥ س ش القدس ٢٠٩، ربيع الثاني ١١٢٦هـ / ١٦ نيسان ١٧١٤م، ص ٦٦.

مشيخة الزاوية الأسعدية بطور زيتا كل يوم عثمانيان،[٩٦] وتولى الشيخ خليل بن نوح نصف وظيفة الفراشة والشعالة بالزاوية السطامية،[٩٧] وتولى عبدالغني مصطفى العلمي وظيفة المشيخة بالزاوية اليعقوبية كل يوم عثمانيان وفي نصف وظيفة قراءة الجزء الشريف بالخانقاه الصلاحية ويقبض أجرته من ريع الوقف،[٩٨] وتولى عبدالغني خليل اللطفي وظيفة البوابة بالرباط المنصوري،[٩٩] وتولى أبناء إبراهيم النمري وظيفة البوابة بمقام الشيخ أحمد الثوري مقابل عثماني وربع من ريع الوقف،[١٠٠] وتولى محمد أفندي الدقاق ربع وظيفة الشعالة والفراشة والكناسة بالرباط المنصوري،[١٠١] وتولى الشيخ مصطفى أفندي وأخوه إبراهيم أبناء أحمد أفندي الشهابي وظيفة التُرْبَدارية والخدمة على ضريح العزيز ويقبضان أجورهما من ريع الوقف، كما توليا أيضاً نصف وظيفة الإمامة بالضريح المذكور.[١٠٢]

الوقف والخدمات الاجتماعية: كان للوقف دور بارز في الحياة الاجتماعية في مجالات عدة وهي:

رعاية الفقراء والمساكين: أشترط معظم الواقفين (سواء الوقف الذري أو الوقف الخيري) أن يؤول الوقف بعد انقراض الذرية إلى فقراء ومساكين القدس أو إلى الفقراء والمساكين بشكل عام،[١٠٣] وتطالعنا الحجج الشرعية بتفاصيل دقيقة حول رعاية الوقف للفقراء، فمن خلال محاسبة وقف المغاربة نجد أن مصروفات خصصت لفقراء المغاربة وغيرهم على النحو التالي:

طعامية (إعداد وجبات للدراويش) تجهيز طعام الفقراء المغاربة بمناسبة حلول

---

٩٦ س ش القدس ٢٠٩، ذي القعدة ١١٢٧هـ/ ٢٩ تشرين الأول ١٧١٥م، ص ٢٢٧.

٩٧ س ش القدس ٢٠٢، جمادى الأولى ١١١٥هـ / ١٣ أيلول ١٧٠٣م، ص ٩٩.

٩٨ س ش القدس ٢٠٣، محرم ١١١٩هـ / ٢٥ نيسان ١٧٠٥م، ص ٢٨٥.

٩٩ س ش القدس ٢١٦، رجب ١١٣٣هـ / ٢٨ نيسان ١٧٢١م، ص ٨.

١٠٠ س ش القدس ٢٣٠، جمادى الأولى ١١٥٣هـ/ ٢٥ تموز ١٧٤٠م، ص ١٧٦.

١٠١ س ش القدس ٢٦٤، ٢٠ شعبان ١١٩٧هـ / ٢ تموز ١٧٨٣م، ص ٣٨.

١٠٢ س ش القدس ٢٧٨، ذي القعدة ١٢١١هـ/ ٢٨ نيسان ١٧٩٨م، ص ١١٧. س ش القدس ٢٧٩، ذي الحجة ١٢١٢هـ/ ١٧ أيار ١٧٩٨م، ص ١٤٥.

١٠٣ س ش القدس ٢٥٢، محرم ١١٨٣هـ / ٧ أيار ١٧٦٩م، ص ٨٠. س ش القدس ٢٥٤، ٢٠ محرم ١١٨٥هـ / ١٦ نيسان ١٧٧١م، ص ٤٩.

عيد الفطر وعيد الأضحى المبارك وتوزيع خبز في قرية عين كارم.[١٠٤]

كما خصص بعض الواقفين جزءاً من ريع أوقافهم للفقراء والمساكين، فقد كان من شروط وقف قاسم بك، ترجمان محكمة القدس، شراء أربعة أرطال خبز للفقراء والمساكين والمقيمين بالرواق المنصوري وللمساكين المقيمين بباب داود وللمكفوفين بالقدس،[١٠٥] كما خصص محمد صنع الله الخالدي جزءاً من ريع وقفه لإعداد وجبات طعام لفقراء التكارنة المقيمين قرب المدرسة العثمانية،[١٠٦] كما خصص جزءاً من ريع وقفه لشراء أربعة أرطال خبز وتوزيعه على الفقراء والمساكين في شهر رمضان ونصف رطل خبز للمساكين بباب داود ونصف رطل خبز للمقيمين برواق المدرسة العثمانية وثلاثة أرطال خبز على الفقراء المتقطعين،[١٠٧] كما كان للوقف دور في رعاية الأيتام وكفالتهم، إذ تبين من المحاسبة التي أصدرها الوصي على اليتيم خليل عبداللطيف أن اليتيم المذكور كان يتناول سنويا مخصصات (علوفة) من الأوقاف التالية: علوفة وقف الخليل ٤٠ زلطة، وعلوفة وقف الصخرة ٦٠ زلطة، وعلوفة التكية ٣٣ زلطة.[١٠٨]

وكان للوقف دور في رعاية المطلقات والأرامل من النساء سواء زوجات الواقف أم بناته غير المتزوجات، إذ كان من شروط بعض الواقفين السكن واستغلال الوقف بعد وفاة الواقف، أما إذا تزوجت بعد وفاته فتزول عنها المنفعة، فإذا تطلقت تعود إليها المنفعة بالوقف فعلى سبيل المثال عين الواقف الحاج عبدالرحمن الشهير بالنعاجي لابنته مويده السكن بالدار التي أوقفها.[١٠٩]

وكان من شروط قاسم بك الترجمان أن يكون لزوجتيه صفية شاهين ولطيفه عبدالله السكن بالدار التي أوقفها، وتخصيص مبلغ ١٠٠ قرش من ريع الوقف لزوجته لطيفة.[١١٠] وكان من شروط الواقف عبدالله إبراهيم الداودي تخصيص

١٠٤ س ش القدس ٢٢٩، ١٠ صفر ١١٥١هـ/ ٣١ أيار ١٧٣٨م، ص ١٢١.

١٠٥ س ش القدس ٢٠٧، شوال ١١٢٣هـ/ ١٢ تشرين الثاني ١٧١١م، ص ١٢٠-١٢١.

١٠٦ س ش القدس ٢١٨، محرم ١١٣٦هـ/ ١ تشرين الاول ١٧٢٣م، ص ٢٥٣-٢٥٤.

١٠٧ س ش القدس ٢١٣، محرم ١١٣١هـ/ ٢٤ تشرين الثاني ١٧٨٨م، ص ٩١-٩٤.

١٠٨ س ش القدس ٢٧١، ذي الحجة ١٢٠٤هـ/ ١٣ آب ١٧٩٠م، ص ٧١-٧٢.

١٠٩ س ش القدس ٢٠٢، ١٠ ربيع الثاني ١١١٥هـ / ١٤ آب ١٧٠٣م، ص ١٢-١٣. س ش القدس ٢٠٢، ١٠ شوال ١١١٥هـ/ ٧ شباط ١٧٠٤م، ص ١٨٦.

١١٠ س ش القدس ٢١٣، ١١٣١هـ/ ١٧١٨م، ص ٩٣-٩٦.

جزء من ريع وقفه لزوجته وهو حنطة تتناولها من الوقف ما دامت على قيد الحياة.[١١١]

وخصص بعض الواقفين جزءاً من ريع أوقافهم للمناسبات الدينيـة، فقد اشترط الواقف عبدالله إبراهيم الداودي أن يخرج في كل سنة من ريع الوقف عشرون فضة مصرية لقراءة المولد وهو مولد النبـي محمد صلى الله عليه وسلم.[١١٢]

وكان للوقف دور في رعاية مصادر المياه وتوفير المياه مجاناً لكل من يحتاجها، فقد أسهمت الأوقاف في بناء الأسبلة التي انتشرت في أحياء مدينة القدس، فقد أنشأ محمد صنع الله الخالدي سبيلاً للماء وعين له موظف لملء السبيل بالماء مقابل أجرة من ريع الوقف، كما أنار أعلى السبيل.[١١٣] وأنشأ قاسم بك الترجمان سبيلاً للماء قرب المدرسة التنكزية، وخصص لمن يملأ فيـه قطعتين مصرية،[١١٤] وخصص محمد صنع الله الخالدي جزءاً من ريع وقفه لسقي أبناء السبيل.[١١٥]

وخصصت السيدة صالحة الشرفا جزءاً من أجرة الدار التي أوقفتها لدفع أجرة السقا الذي ينقل الماء إلى السبيل الواقع قرب باب داود،[١١٦] وتولى عبدالخالق عبد المعطي وظيفة ملء سبيل الماء الواقع بسطح الصخرة، وهو وقف المرحوم حسن أفندي، وأن يتناول أجرته من وقف خاصكي سلطان،[١١٧] وأنشأ مصطفى آغا سبيلًا للماء قرب باب الناظر بالمسجد الأقصى وأوقف له أوقافاً للصرف على السبيل،[١١٨] وتولى إسماعيل علي السقا وضع الماء بالسبيل الواقع قرب جامع المغاربة مقابل قطعتين مصريتين من الوقف،[١١٩] وتولى الحاج حجازي أحمد وأحمد ابن زين المقدم ملء سبيل باب القلعة بالماء والموقوف عليه دار بمحلة الشرف.[١٢٠] وكان

---

١١١ س ش القدس ٢٤٤، أواخر جمادى الأولى ١١٧٥هـ/٢٨ تشرين الثاني ١٧٦١م، ص ١٨٢.

١١٢ س ش القدس ٢٤٤، أواخر جمادى الأولى ١١٧٥هـ/٢٨ تشرين الثاني ١٧٦١م، ص ١٨٢.

١١٣ س ش القدس ٢٠٨، رجب ١١٢٥هـ / ٢٤ تموز ١٧١٣م، ص ١٠٥-١٠٦.

١١٤ س ش القدس ٢٠١، أواخر شعبان ١١١٣هـ/ كانون الثاني ١٧٠٢م، ص ٣٠-١٣١.

١١٥ س ش القدس ٢٠٧، ربيع الثاني ١١٢٤هـ/ ٨ أيار ١٧١٢م، ص ٢١٢-٢١٣.

١١٦ س ش القدس ٢٠٩، شوال ١١٢٦هـ/ ١٠ تشرين الأول ١٧١٤م، ص ٢٥٦-٢٥٧.

١١٧ س ش القدس ٢٦٤، ربيع الثاني ١١٩٨هـ/ ٢٣ شباط ١٧٨٤م، ص ١٣٧.

١١٨ س ش القدس ٢٧٧، شعبان ١٢١٠هـ/ ١٠ شباط ١٧٩٦م، ص ١١٤.

١١٩ س ش القدس ٢١٥، ١٣ صفر ١١٣٢هـ/ ١٤ كانون الأول ١٧١٩م، ص ١٤.

١٢٠ س ش القدس ٢١٧، ذي الحجة ١١٣٣هـ/ ٢٣ أيلول ١٧٢١م، ص ٤١.

للأوقاف دور في صيانة قناة السبيل الواردة من برك سليمان إلى الحرم القدسي إذ خصص جزء من ريع حمام العين الجاري في وقف الصخرة لصيانة وترميم هذه القناة،[١٢١] كما كان للوقف دور في صيانة بعض برك المياه في القدس، إذ إن بركة حمام السيدة مريم وهي وقف المدرسة الصلاحية قد تضررت من جراء الأمطار والسيول وأدى ذلك إلى تعطيل الحمام الذي يتغذى بالماء من البركة المذكورة، وأذن النائب الشرعي بتعمير البركة على أن يصرف ذلك من ريع الوقف،[١٢٢] وتولى الحاج حجازي حسن وأحمد بن زين المقدم تعبئة مسقاة سبيل باب القلعة بالماء الموقوف عليه دار بمحلة الشرف، ووظيفة تعبئة المسقاة الشرقية بالماء مقابل ٥ قطع مصرية سنوياً،[١٢٣] وتولى عبدالكريم نمر رعاية السبيل وتوصيل مياهها إلى الكأس وبركة النارنج والمحكمة وعين باب السلسلة مقابل ٤٥ فضة من حمام السلطان.[١٢٤] كما كان للأوقاف دور في رعاية وترميم قناة السبيل، فقد صدر البيورلدي التالي من والي الشام «إعلام إلى وكيل متولي أوقاف الصخرة المشرفة ومتولي وقف خاصكي سلطان ومتولي وقف المدرسة الدنكزية؛ نعرفكم أننا أذنا لكم بأن تعطون كل يوم عن حمام العين الجاري في الأوقاف المذكورة ثلاثين مصرية من وقف الصخرة المشرفة وخمسة عشر مصرية من وقف المدرسة الدنكزية وخمسة عشر من حمام السلطان و ٢٤ مصرية من وقف خاصكي سلطان إلى خدَّام قناة السبيل الجارية بمدينة القدس لأجل تعمير وترميم القناة وأجرة معلمين».[١٢٥]

التكايا والأوقاف: لعبت التكايا دوراً بارزاً في الرعاية الاجتماعية إذ اختصت برعاية العجزة والذين لا معيل لهم والأرامل وفقراء المتصوفة والدراويش والغرباء والمسافرين الذين لا يجدون مأوى لهم،[١٢٦] ووجدت في القدس تكية واحدة وهي تكية خاصكي سلطان (ويشار إليها أيضاً باسم العمارة العامرة) وتقع في عقبة الست،

١٢١ س ش القدس ٢١٣، ١٥ ذي الحجة ١١٣٠هـ/ ٢٦ تشرين الأول ١٧١٨م، ص ١٦١.

١٢٢ س ش القدس ٢١٧، غرة محرم ١١٣٤هـ/٢٢ تشرين الأول ١٧٢١م، ص ١٠٠-١٠١.

١٢٣ س ش القدس ٢١٧، ذي الحجة ١١٣٣هـ / ٢٣ أيلول ١٧٢١م، ص ٤١.

١٢٤ س ش القدس ٢١٥، رجب ١١٣٣هت/ ٢٨ نيسان ١٧٢١م، ص ١٢٢.

١٢٥ س ش القدس ٢١٣، ذي الحجة ١١٣٠هـ/ ٢٦ تشرين الأول ١٧١٨م، ص ١٦١.

١٢٦ إبراهيم بيومي غانم: الأوقاف والسياسة في مصر – دار الشروق – القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٩٨م، ص ٣٠٧. سيشار إليه فيما بعد. غانم: الأوقاف والسياسة.

وأنشأتها خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني عام ١٥٥٢م وأوقفت عليها أوقافاً كثيرة جداً حتى تتمكن من الاستمرار في تقديم المساعدات على أكمل وجه، وتنتشر هذه الأوقاف في سناجق القدس وغزة ونابلس وطرابلس وغيرها. وتضم هذه التكية مسجداً وعمارة تضم مطبخاً وفرناً وخمسين حجرة وخاناً واسعاً أوقفته على أبناء السبيل.[١٢٧] وتعتبر هذه التكية من المؤسسات الخيرية المهمة حيث كانت تقدم معونات للفقراء وشيوخ الصوفية والعلماء، فقد أمر أحمد باشا الجزار تخصيص ٤٨ رغيف خبز في اليوم من خبز العمارة العامرة وجوربة (حساء) وتوزيع ذلك على المقيمين بزاوية المغاربة.[١٢٨] كما تم تخصيص ٢٤ رغيف خبز يومياً من العمارة العامرة إلى علي آغا التلمساني شيخ المغاربة،[١٢٩] وتخصص طاسة جوربة وعدد من أرغفة الخبز إلى جلبي مصطفى آغا،[١٣٠] وتخصيص رطل قمح يومياً من فائض غلال التكية إلى الشيخ نورة عبدالله خادم الصخرة،[١٣١] وتم تعيين ٨ أرغفة خبز من العمارة العامرة للسيد خليل عبدالله السراج،[١٣٢] كما حصل بعض أئمة المساجد على مساعدات من العمارة العامرة إذ تم تخصيص ١٥ رغيف خبز للسيد مصطفى محمد العفيفي إمام جامع الشيخ لولو إضافة إلى جزء من ريع وقف الجامع.[١٣٣] وكان للتكية دور في رعاية الأسبلة في القدس إذ تم تخصيص جزء من ريع الوقف أو من خبز العمارة كرواتب للموظفين الذين يقومون بخدمة ورعاية هذه الأسبلة. وقد تنازل محمد السلمي بالفراغ عن طاستين شوربة و ٦ أرغفة خبز من وقف خاصكي سلطان لمن يكون (سقا) السبيل الواقع بالمسجد الأقصى تجاه جامع المغاربة.[١٣٤] وتولى يوسف آغا قائمقام القدس الأسبق وظيفة النظر على السبيل الكائن بالمسجد الأقصى قرب باب الناظر الذي أنشأه مصطفى

---

١٢٧ كامل جميل العسلي: من أثارنا في بيت المقدس. نشر بدعم من الجامعة الأردنية – عمان ١٩٨٢م، ص ١٧. سيشار إليه فيما بعد. العسلي: من آثارنا.

١٢٨ س ش القدس ٢٥٦، صفر ١١٩٦هـ/ ١٦ كانون الثاني ١٧٨٢م، ص ٢٠.

١٢٩ س ش القدس ٢٧٢، جمادى الأولى ١٢٠٥هـ/ ٦ كانون الثاني ١٧٩١م، ص ٩٧.

١٣٠ س ش القدس ٢١٤، شعبان ١١٣١هـ/ ١٩ حزيران ١٧١٩م، ص ١١٣.

١٣١ س ش القدس ٢٥٦، شوال ١١٩٦هـ/ ٩ نيسان ١٧٨٢م / ص ٣٥.

١٣٢ س ش القدس ٢١٥، رجب ١١٣٢هـ/ ٩ أيار ١٧٢٠م، ص ٥٧.

١٣٣ س ش القدس ٢١٦، شوال ١١٣٣هـ/ ١٧٢٧م، ص ٦٥.

١٣٤ س ش القدس ٢١٤، ربيع الثاني ١١٣٢هـ/ ١١ شباط ١٧٢٠م، ص ٧٧، ١٧٨.

آغا ووضع الماء في السبيل كل يوم ٢٤ رغيف خبز من العمارة العامرة.[١٣٥] كما تم تخصيص ٩ أرغفة خبز من وقف العمارة للحاج محمد مصطفى الحوراني متولي الوقف والسقاية بالسبيل بالحرم القدسي ووقف كوجك باشا.[١٣٦]

وحصل بعض أعيان وعلماء القدس على مساعدات من التكية مع أنهم لم يكونوا بحاجة إليها، إذ أشارت إليهم السجلات باسم وجوه مرتزقة وقف أخباز خاصكي سلطان وهم: عبدالله أفندي نقيب الأشراف، وحسن أفندي مفتي القدس، وحسن أفندي ونجم الدين أفندي وأحمد أفندي الشهابي وأبو العلا أفندي وأحمد أفندي الموقت.[١٣٧]

دور الأوقاف في رعاية التعليم: تنوعت مؤسسات التعليم في القدس كالمساجد والمدارس والزوايا والخوانق، وكانت هذه المؤسسات تنشأ بموجب وقفيات حسب شرط المؤسس حيث شكل ريع أوقافها مصدر إنفاق على هذه المؤسسات.

المسجد الأقصى المبارك

كان المسجد الأقصى بالإضافة إلى كونه مركزاً للعبادة مركزاً تعليمياً يتم فيه تدريس العلوم الدينية منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب وحتى نهاية العصر العثماني،[١٣٨] ومن الدروس التي كانت تدرس في هذا المسجد: حلقات التصدير حيث يقوم المدرس الشيخ بعقد حلقة تسمى حلقة التصدير داخل المسجد الأقصى يتم خلالها تفسير الأمور الدينية،[١٣٩] ويتضح من سجلات المحكمة الشرعية في القدس أن من الذين تولوا وظيفة التصدير والتدريس في المسجد الأقصى من رجال الدين والأعيان أو من العلماء الذين قدموا إلى القدس: الشيخ

---

١٣٥ س ش القدس ٢٧٧، شعبان ١٢١٠هـ / ١٠ شباط ١٧٩٦م، ص ١١٤.

١٣٦ س ش القدس ٢٥٢، صفر ١١٨٣هـ/ ٦ حزيران ١٧٦٩م، ص ٩٣.

١٣٧ س ش القدس ٢٥٩، ربيع الأول ١١٩٢هـ / ٣٠ آذار ١٧٧٨م، ص ٩٧.

١٣٨ كامل جميل العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس – الجامعة الأردنية ١٩٨١م عمان، ص ٢٥ –٢٦، سيشار إليه فيما بعد. العسلي: معاهد العلم.

١٣٩ س ش القدس ٢٤٣، شعبان ١١٧٢هـ/ ١٩ آذار ١٧٥٩م، ص ٣.

عامر المصري الذي تولى التدريس[١٤٠] والشيخ عبدالله اللطفى الذي تولى وظيفة التصدير مقابل راتب يومي قدرة عثماني يصرف من ريع الوقف،[١٤١] والشيخ محمد أحمد الخليلي الذي تولى نصف وظيفة التصدير بحرم المسجد الأقصى[١٤٢] مقابل راتب يومي قدره ثماني عثمانيات يتناولها من محصول أوقاف المسجد الأقصى، والشيخ موسى الفتياني الذي تولى وظيفة التصدير بالمسجد الأقصى، والشيخ محمد أفندي صالح مفتي الشافعية الذي تولى وظيفة التصدير مقابل أجر من ريع الوقف.[١٤٣]

المدارس: أنشأ السلاطين والأمراء والحكام والأعيان ورجال الدين مدارس في مدينة القدس لأهداف سياسية بقصد تدعيم حكمهم أو التقرب إلى عامة الشعب وتخريج القضاة والخطباء والموظفين اللازمين لإدارة الدولة ومقاومة المذهب الشيعي الذي انتشر في عهد الدولة الفاطمية،[١٤٤] وكانت تدرس في هذه المدارس حسب ما ورد في سجلات محكمة القدس الشرعية العلوم الدينية، وكانت الأوقاف التي أوقفها مؤسسو هذه المدارس مصدر إنفاق عليها، وتنقسم الوظائف في هذه المدارس قسمين:

وظائف تعليمية ووظائف إدارية: وسنتناول في هذه الدراسة أسماء المدارس التي ورد ذكرها في سجلات محكمة القدس الشرعية ومدرسيها والوظائف فيها، وأولى هذه المدارس المدرسة الصلاحية التي أسسها الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي عندما فتح القدس، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة تمثلت في الأراضي الزراعية.[١٤٥] أما مواد التدريس فهي الفقه ودرَّس بها موسى عبدالرحمن المبارك

---

١٤٠ س ش القدس ٢١٠، ربيع الثاني ١١٢٨هـ/ ٢٥ آذار ١٧١٦م، ص.

١٤١ س ش القدس ٢١٤، ١٠ محرم ١١٣٢هـ/ ١٤ تشرين الثاني ١٧١٩م، ص ١٦٠.

١٤٢ س ش القدس ٢١٦، شوال ١١٣٣هـ/ ٢٦ تموز ١٧٢١م، ص ٧٣.

١٤٣ س ش القدس ٢٧٩، شوال ١٢١٢هـ/ ٢٩ آذار ١٧٩٨م، ص ١٣٢.

١٤٤ العسلي: معاهد العلم: ص ١٥-١٦.

١٤٥ س ش القدس ٢١٠، ص ١٧٣.

والشيخ عبدالله إنشاء الله نور الله،[١٤٦] وللمدرس معيد[١٤٧] في هذه المدرسة يقوم بإعادة الدرس بعد انتهاء المدرس منه، وهذا دلالة على مكانة هذه المدرسة، ومن الذين تولوا إعادة الدرس «المعيد» في هذه المدرسة الشيخ محمد وأخوه الشيخ أحمد أبناء عبدالقادر اللطفي.[١٤٨] والشيخ عبدالله إنشاء الله نور الله[١٤٩] وبشير الدين[١٥٠] وأبو بكر وأحمد أبناء يوسف الوفائي[١٥١] وفيض الله أفندي العلمي.[١٥٢]

ومن المدارس الأخرى المدرسة الحنفية، ويتضح من محاسبة وقف هذه المدرسة أن مواد التدريس هي الحديث وقراءة القرآن، وبلغ عدد المدرسين فيها (٢٦) مدرساً[١٥٣] إضافة إلى بعض المعيدين.[١٥٤] والمدرسة الباسطية التي أوقفها القاضي زين الدين الباسطي الدمشقي سنة ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م[١٥٥] التي كان يدرس فيها الحديث وقراءة القرآن[١٥٦] ثم المدرسة المنجكية التي أنشأها منجك نائب الشام سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م،[١٥٧] وتولى التدريس بها فيض الله العلمي[١٥٨] والشيخ بشير نجم الدين ابن أمين أفندي،[١٥٩] ثم المدرسة التنكزية التي أنشأها تنكز نائب الشام سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م[١٦٠] إذ تولى التدريس فيها محمد أفندي الخالدي مقابل أجر من

---

١٤٦ س ش القدس ٢١٣، ٢٨ شوال ١١٣٠هـ/٢٨ آب ١٧١٨م، ص ٢٤.

١٤٧ المعيد وظيفته أن يشرح الدرس للتلاميذ بعد الدرس. انظر: تاج الدين عبدالوهاب السبكي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م) معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، ط١، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٤٨م، ص ١٠٨.

١٤٨ س ش القدس ٢١٢، ذي الحجة ١١٢٩هـ/٦ تشرين الثاني ١٧١٧م، ص ٢٩.

١٤٩ س ش القدس ٢١٣، ٢٨ شوال ١١٣٠هـ/٢٨ آب ١٧١٨م، ص ٥٤.

١٥٠ س ش القدس ٢١٤، ربيع الأول ١١٣٢هـ/١٢ كانون الثاني ١٧٢٠م، ص ٧٢.

١٥١ س ش القدس ٢١٤، ٥ محرم ١١٣٢هـ/٢ تشرين الثاني ١٧٢٠م، ص ١٦٢.

١٥٢ س ش القدس ٢١٧، ٨ ذي الحجة ١١٣٥هـ/٢ أيلول ١٧٢٣م، ص ٤٥.

١٥٣ س ش القدس ٢٢٣، محرم ١١٤٣هـ/١٧ تموز ١٧٣٠م، ص ٣٨٣-٣٨٤.

١٥٤ س ش القدس ٢٥٢، جمادى الأولى ١١٨٣هـ/٢ أيلول ١٧٦٩م، ص ١٤٥.

١٥٥ الحنبلي: الأنس الجليل، عمان ١٩٧٣م، ص ٣٩.

١٥٦ س ش القدس ٢٢٣، محرم ١١٤٣هـ/١٧ تموز ١٧٣٠م، ص ٣٨٤ .

١٥٧ الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢، ص ٣٧.

١٥٨ س ش القدس ٢١٧، ٨ ذي الحجة ١١٣٥هـ/٢ أيلول ١٧٣٤م، ص ٤٥.

١٥٩ س ش القدس ٢٠٨، شعبان ١١١٥هـ/١٠ كانون الأول ١٧٠٣م، ص ٧.

١٦٠ الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢، ص ٣٥.

حمام العين وقف المدرسة المذكورة.[١٦١] وإضافة إلى المدرسين والمعيدين وجدت وظيفة مؤدب الأطفال في بعض المدارس، فعلى سبيل المثال تولى الشيخ عثمان علي العلمي وظيفة مؤدب الأطفال بالمدرسة الجوهرية.[١٦٢]

أما الوظائف الإدارية في المدارس فهي: البواب وإضاءة القناديل (الشعَّال)، والمنظف (الكناس)، فقد تولى أبناء الحاج إبراهيم عنتر نصف وظيفة البوابة بالمدرسة الصلاحية،[١٦٣] وتولى عثمان العلمي ربع وظيفة البوابة بالمدرسة الجوهرية،[١٦٤] وتولى كل من أحمد وعبدالله ومحمد خليل ومصطفى أبناء أحمد المحدث الموقت وظائف البوابة والشعالة والفراشة بالمدرسة الأفضلية.[١٦٥]

الزوايا: كان للزوايا دور في رعاية التعليم بفضل الأوقاف التي أُوقفت عليها إذ تشير سجلات محكمة القدس الشرعية إلى الزاوية الحسينية الواقعة داخل المسجد الأقصى يتم فيها تعليم الذكر والعبادة وقراءة القرآن[١٦٦] وأن الزاوية الأدهمية تعطى فيها دروس الفقه، وقد تولى هذه الوظيفة خليل نوح مقابل أجر من ريع الوقف.[١٦٧]

الخوانق:[١٦٨] كان للخوانق دور في رعاية التعليم، وعندما فتح الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي أنشأ خانقاه باسمه «الخانقاه الصلاحية» سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وأوقف عليها أوقافاً وكان من شروطه أن يصرف ريع الوقف على نظارها وشيوخها والمقيمين بها،[١٦٩] وكان لهذه الخانقاه شيوخ فقد عُين محمد صالح أفندي العلمي

---

١٦١ س ش القدس ٢٦٣، رجب ١١٩٥هـ/٢٣ تموز ١٧٨١م، ص ٢٨.

١٦٢ س ش القدس ٢٢٦، ذي الحجة ١١٤٥هـ/١٥ أيار ١٧٣٣م، ص ٥٧. س ش القدس ٢٦٣، صفر ١١٩٥هـ/٢٧ كانون الثاني ١٧٨١م، ص ٣٧.

١٦٣ س ش القدس ٢١٨، ٢٥ شوال ١١٤٣هـ/١٥ تموز ١٧٢٢م، ص ٢٧.

١٦٤ س ش القدس ٢٢٦، ١٩ ذي الحجة ١١٤٥هـ/٥ أيار ١٧٣٣م، ص ٥٧.

١٦٥ س ش القدس ٢٥٥، صفر ١١٧٤هـ/١٢ أيلول ١٧٦٠م، ص ١١٥.

١٦٦ س ش القدس ٢٠١، شعبان ١١١٤هـ/٢١ كانون الأول ١٧٠٢م، ص ٣٩٤.

١٦٧ س ش القدس ٢٠٢، جمادى الأولى ١١١٥هـ/١٢ أيلول ١٧٠٣م، ص ٢٩.

١٦٨ الخانقاه: كلمة فارسية تطلق على المباني التي تقام لايواء الصوفية الذين يقيمون فيها للعبادة.

١٦٩ س ش القدس ٢١٤، رجب ١١٣٢هـ/٩ أيار ١٧٢٠م، ص ١١٤.

شيخاً على الصوفية المقيمين بالخانقاه الصلاحية وأن يقوم بالإمامة والأذكار وإرشاد الصوفية.[١٧٠]

الربط: الرباط هو بيت المجاهدين، واتخذه الصوفيون مكان إقامة دائمة لخوض الجهاد الروحي، ووجدت في القدس ربط منها الرباط المنصوري الذي يقع بباب الناظر الذي أوقفه الملك المنصور قلاوون الصالحي سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م.[١٧١] وقد تولى مصطفى وأخوه محمد عارف أبناء خليل نصف وظيفة تأديب الأطفال في هذا الرباط.[١٧٢]

ثم رباط بيرم جاويش الذي أنشأه جاويش بن مصطفى سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م،[١٧٣] وكان لهذا الرباط مكتب لتأديب الأطفال، وتولى محمد بن الخواجه وظيفة تأديب الأطفال بهذا المكتب مقابل أجر من الدار الموقوفة على هذا الرباط.[١٧٤]

الأوقاف والرعاية الصحية: عندما حرر صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس أنشأ مؤسسات تعليمية وأوقف عليها أوقافاً بلغت (٦٥) كرما تشتمل على أشجار مختلفة الثمار و (٤٤) قطعة أرض زراعية و (٦) موارس وبيارة وخمسة جور وأربعة صوانات[١٧٥]، ومن هذه المؤسسات البيمارستان الصلاحي عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وزود هذا البيمارستان بما يحتاجه من أدوية وأطباء،[١٧٦] واستمر هذا البيمارستان قائماً إلى فترة الدراسة، وهو يتكون من قسمين: قسم للجراحة، وتولى يوسف الرملي خدمة أمراض الجراحة مقابل أجر يومي ٣ عثمانيات تدفع من ريع الوقف،[١٧٧] كما

١٧٠ س ش القدس ٢٧٦م، ٥ صفر ١٢٠٩هـ /٢٨ آب ١٧٩٤م، ص ٢٨.

١٧١ الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٣.

١٧٢ س ش القدس ٢٥٥، ذي القعدة ١١٨٨هـ/٣ كانون الثاني ١٧٧٥م، ص ١٧٥.

١٧٣ العسلي: معاهد العلم: ص ٣٢٥.

١٧٤ س ش القدس ٢٦٣، شعبان ١١٩٥هـ/٢٣ تموز ١٧٨١م، ص ٣٧.

١٧٥ س ش القدس ٢٢٥، جمادى الثانية ١١٥١هـ/١٦ أيلول ١٧٣٨م، ص ١٩٥-٢٠٠.

١٧٦ أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق ١٩٣٩م، ص ٢٣٠، العسلي: معاهد العلم، ص ٢٩٤.

١٧٧ س ش القدس ٢٣٢، ذي الحجة ١١٥٠هـ/٢٢ آذار ١٧٣٨م، ص ١٠٠.

تولى كل من خليل ورجب أبناء النقيب درويش العلمي عملية صناعة الأشربة إضافة إلى وظيفة أمين المستودع (المخزنجية).[١٧٨]

أما القسم الآخر من البيمارستان فهو مخصص للأمراض العقلية.[١٧٩]

١٧٨ س ش القدس ٢٠٢، شعبان ١١١٥هـ/١٠ كانون الأول ١٧٠٣م، ص ١٦١.

١٧٩ س ش القدس ٢٠٢ ذي الحجة ١١١٥هـ/٦ نيسان ١٧٠٤م، ص ٢٥٠.

مقدمة عن القضاء والعلاقات الاجتماعية في القدس خلال النصف الأول من القرن ١٦م «من خلال سجلات محكمة القدس الشرعية»

د. عبلة سعيد المهتدي*

تعتمد هذه الدراسة بالدرجة الأولى على أقدم سجلات محكمة القدس الشرعية المدونة في زمن الحكم العثماني والمحفوظ صور عنها على ميكروفيلم لدى مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، إذ تعتبر هذه السجلات من أولى وأهم المصادر الرسمية التي تؤرخ للقدس ولمختلف جوانب الحياة فيها خلال تلك الفترة.

فعلى الرغم من دخول العثمانيين إلى مدينة القدس سلماً بتاريخ ٤ ذي الحجة سنة ٩٢٢هـ الموافق ١٥١٦/١٢/٢٨م[١]، غير أن أقدم سجل متوفر لدى محكمة القدس الشرعية يعود تاريخه إلى ٧ شعبان سنة ٩٣٥ [١٥٢٩/٤/١٦م] حتى ١٨ شوال ٩٣٦ [١٥٣٠/٦/١٤م]، وعدد صفحاته يبلغ (٣٥٠) صحيفة، أما السجل الذي يليه في التاريخ مباشرة فهو يحمل رقم (١)،[٢] وهو الأمر الذي يدلل على فقدان ما تم توثيقه قبل تاريخ ٧ شعبان سنة ٩٣٥ [١٥٢٩/٤/١٦م] أي لمدة ثلاثة عشر عاماً تقريبًا، وهي الفترة المبكرة جداً من العهد العثماني في القدس.

والسجلات الشرعية الأولى المتوفرة، هي على الرغم من سوء وضعها حيث نجد كثيراً من صفحاتها قد فقدت بعض أجزائها، أو أنها تآكلت بفعل الزمن، بالإضافة إلى رداءة خط تدوينها؛ حيث الكلمات متشابكة الأحرف بعضها ببعض وغير منقطة، إلا أنها توفر لنا مادة غنية بالوثائق والمعلومات الخاصة بتلك المرحلة المبكرة من الحكم العثماني للقدس، إذ تُقدّم لنا صورة جيدة عن دور

---

* الجامعة الأردنية – عمان، الأردن

١ عبلة المهتدي، القدس تاريخ وحضارة (٣٠٠٠ ق.م-١٩١٧م)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٠م، ص٣١٧. سيشار إليه لاحقا: المهتدي، القدس تاريخ وحضارة.

٢ رقم الفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات ودراسات بلاد الشام / الجامعة الأردنية: ١، سجل رقم ١، تاريخ السجل من ١٤ شوال سنة ٩٣٦هـ/[١٥٣٠/٦/١٠م] إلى ١٩ صفر ٩٣٨هـ/[١٥٣١/٩/٣٠م].

القضاء بالنسبة للحياة الاجتماعية في القدس، مع بعض الدلالات الواضحة على التغير المرحلي الذي كانت تشهده مدينة القدس خلال تلك الفترة، فعلى سبيل المثال نلحظ في السجل الأول والنصف الأول من السجل الذي يحمل رقم (١) أن العملة المملوكية وهي الدراهم الفضة الحلبية، كانت لا تزال متداولة بكثرة بين العامة من الناس،[٣] ثم نلحظ بعد ذلك كيف بدأ العامة من الناس التداول بالعملة الرسمية للدولة العثمانية، وهي الدراهم الفضة العثمانية.[٤]

الأسس التشريعية والتنظيمية التي بُني عليها الجهاز القضائي في القدس، وآلية عمله وتنفيذه خلال فترة الدراسة

منذ بداية نشأة الدولة الإسلامية وعبر مراحل تطورها حتى تاريخ نشوء الدولة العثمانية، اتخذت من الشريعة الإسلامية مصدراً لها لاستنباط الأحكام والتشريعات،[٥] كما أن من أبرز سمات التشريع في تلك الفترة أنها أعطت «ولي الأمر» صلاحية التشريع لما فيه صالح الرعية وبناء الدولة بما لا يتناقض مع الشريعة الإسلامية.[٦]

---

٣ رقم الفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات ودراسات بلاد الشام/الجامعة الأردنية: ١أ، سجل محكمة القدس الشرعية رقم (بلا)، تاريخه: ٧ شعبان ٩٣٥هـ/ [١٥٢٩/٤/١٦م]- ١٨ شوال ٩٣٦هـ/ [١٥٣٠/٦/١٤م]، حجة رقم: بلا، صفحة السجل: ٢، ت: ٧ شعبان٩٣٥هـ/ [١٥٢٩/٤/١٦م]؛ حجة رقم: بلا، صفحة السجل: ٥٤، ت: ٢٩ رجب ٩٣٥هـ/ [١٥٢٩/٤/٩م]؛ حجة رقم: بلا، صفحة السجل: ١٠٢، ت: ٢٧ شوال ٩٣٥هـ/ [١٥٢٩/٧/٤م]. سيشار إليه لاحقا: س: بلا، ح ، ص؛ سجل محكمة القدس الشرعية رقم (١)، ت: ١٤ شوال سنة ٩٣٦هـ/ [١٥٣٠/٦/١٠م] -١٩ صفر ٩٣٨هـ/ [١٥٣١/٩/٣٠م]، مصور على ميكروفيلم ومحفوظ لدى مركز الوثائق والمخطوطات ودراسات بلاد الشام- الجامعة الأردنية، عمان/ الأردن. حجة رقم: ٦، صفحة السجل: ٢، ت: ٢٤ شوال ٩٣٦هـ/ [١٥٣٠/٦/٢٠م]؛ حجة رقم: ٧٦، صفحة السجل: ٢٠، ت: ١٦ ذو القعدة٩٣٦هـ/ [١٥٣٠/٧/١٢م]؛ حجة رقم: ٥٠٣، صفحة السجل: ١٢٧، ت: ١٥ ربيع الأول٩٣٦هـ/ [١٥٣٠/١١/٦م]. سيشار إليه لاحقا: س ١، ح ، ص.

٤ س: بلا، ح: بلا، ص: ١٠، ت: ١٢ شعبان ٩٣٥هـ/[١٥٢٩/٤/٢١م]؛ ح: بلا، ص: ٢١، ت: ٢٣شعبان ٩٣٥هـ/[١٥٢٩/٥/٢م]؛ س: ١، ح: ٦٢٧، ص: ١٥٣، ت: ٩ ربيع الأخر٩٣٧هـ/ [١٥٣٠/١١/٢٩م]؛ ح: ٦٢٩، ص: ١٥٣، ت: ٩ ربيع الأخر٩٣٧هـ/ [١٥٣٠/١١/٢٩م]؛ ح: ٦٨٩، ص: ١٦٩-١٧٠، ت: ٢٨ ربيع الأخر٩٣٧هـ/ [١٥٣٠/١٢/١٨م]؛ ح: ١٣٠٤، ص: ٣٢٧، ت: ٧ ذو القعدة ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٦/٢٢م]؛ ح: ١٣٠٥، ص: ٣٢٧، ت: ٨ ذو القعدة ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٦/٢٣م].

٥ ابن القيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت: ٧٥٢هـ/١٣٥١م) ، ٤ج، القاهرة، ١٩٥٥م، ج٤، ص ٣٧٢ و ٣٧٩ ؛ تفسير ابن كثير، ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت: ٧٤٤هـ/)، ج٢، ص٦٨.

٦ أورهان صادق جانبولات، قوانين الدولة العثمانية وصلتها بالمذهب الحنفي، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف عارف خليل أبو عيد، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٩م، ص ١٦. سيشار إليه لاحقا: جانبولات، قوانين الدولة العثمانية وصلتها بالمذهب الحنفي.

ومما لا شك فيه أن الدولة العثمانية استفادت كثيراً من التشريعات والأحكام الإسلامية التي وضعت من قِبل تلك الدول التي سبقتها عندما سنّت تشريعاتها الخاصة بها،[٧] ولمّا كان التشريع الإسلامي قبلها اتجه نحو التعاون بين القضاء والإفتاء لتقديم إضافات أساسية للتشريعات، فقد استمر هذا التعاون بين القضاء والإفتاء منذ بدايات العهد العثماني، إذ نجد أن اهتمام الدولة العثمانية بالأحكام الشرعية يعود إلى عهد مؤسسها «عثمان بك»، فمن خلال أحد الفرمانات التي أصدرها نجد أنه أمر فيها الأمراء (قادة العسكر) بأن لا يفارقوا الأحكام الشرعية، وأن يستعينوا بفتاوى العلماء قبل أن يقوموا بأي تصرف.[٨]

وبتقدم الدولة العثمانية وتطورها، تم العمل على صياغة وتنظيم هذه الأحكام والتشريعات بشكل قانوني ومتقدم على ما تم وضعه سابقاً، وخرجت باسم «قانوننامه»[٩] لتسد حاجات القضاة وتسهّل عملهم، وكانت تُرسَل إليهم بانتظام ويُطلب منهم تطبيقها،[١٠] غير انه مع توسع حدود الدولة العثمانية ودخول شعوب جديدة تختلف في الأعراف والعادات والتقاليد تحت ظل حكمها، أدى ذلك إلى مواجهة الدولة لمشكلات كثيرة مما أوجب إعطاء العرف والعادة أهمية كبيرة ضمن قوانين آل عثمان،[١١] وهو الأمر الذي يشير إلى الدور الكبير لمؤسسة شيخ الإسلام في تكييف الاجتهادات الفقهية بما يتناسب مع التحولات الاجتماعية التي كانت تستجد في الدولة، والتي كانت تدفعهم للبحث عن الأحكام الشرعية المناسبة لها،[١٢] وما ورد في مقدمة قانون نامة يبين أن السلطان سليمان كان يؤكد

---

٧ أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح سعداوي، منشورات منظمة المؤتمر الإسلامي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، استانبول، ١٩٩٩م، جـ ١، ص٤٥٥. سيشار إليه لاحقاً: إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة.

٨ جانبولات، قوانين الدولة العثمانية وصلتها بالمذهب الحنفي، ص١٩-٢٠.

٩ قانون نامه: مصطلح مكون من كلمتين الأولى» القانون»، التي تعني مقياس كل شيء، والثانية « نامه» وهي كلمة فارسية تعني الكتاب أو الورقة أو الرسالة، وعليه فالقانوننامه يقصد بها الكتب التي تجمع بعض النظم أو القوانين المعمول بها في الدولة العثمانية. خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، منشورات منظمة المؤتمر الإسلامي- مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الإسلامية (ارسيكا)، إستانبول، ٢٠٠٠م ص٥٢٩. سيشار إليه لاحقا: ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني؛ جانبولات، قوانين الدولة العثمانية وصلتها بالمذهب الحنفي، ص٣٨.

١٠ إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، جـ ١، ص٤٥٩؛ جانبولات، قوانين الدولة العثمانية وصلتها بالمذهب الحنفي، ص١٦.

١١ جانبولات، قوانين الدولة العثمانية وصلتها بالمذهب الحنفي، ص١٩.

١٢ محمد سراج، الفقه الإسلامي بين النظرية والتطبيق، الإسكندريه، ١٩٩١م، ص٢٠٥-٢١٠.

على أهمية الأخذ بالأعراف في الدولة العثمانية، وذلك بقوله: « فقد صدر الحكم الجليل القدر، والفرمان النافذ نفاذ القضاء والقدر، بجمع مراسم وقواعد الملك السلطاني وقوانين العرف العثماني في مجلد يحتويها، ويضم كل نواحيها، ...».[١٣]

وفي سبيل توحيد القوانين المتبعة من قبل قضاة الدولة، تم في عهد محمد الفاتح اعتماد شرح كتاب «درر الحُكام في شرح غرر الأحكام» للمنلا حنفي محمد[١٤] كمرجعٍ أساسي للمحاكم الشرعية، وكقانون مدني للدولة العثمانية، لكن فيما بعد وتحديدًا في زمن السلطان سليمان القانوني أي خلال فترة الدراسة تم اعتماد كتاب «ملتقى الأبحر» لإبراهيم حلبي[١٥] ليكون مرجعاً للمحاكم الشرعية،[١٦] وبناءً عليه كان قضاة الشرع الشريف في القدس أيضاً يعتمدون هذا المرجع في أحكامهم.

وبما أن مولد ونشأة الدولة العثمانية على يد مؤسسها «عثمان بك» (التي اتسمت الدولة والسلالة باسمه) كان في بدايات القرن الرابع عشر الميلادي،[١٧] بينما كان دخول العثمانيين إلى مدينة القدس في منتصف العقد الثاني من القرن السادس عشر، أي بعد ما يزيد على مائتي عام على تأسيس الدولة، لذا بدخولهم القدس كانوا قد أرسوا القواعد التشريعية والتنظيمية لإدارة البلاد والمناطق المفتوحة والتابعة لهم، إذ بفتحهم بلاد الشام وفلسطين قسموها إدارياً وعسكرياً، وجُعلت القدس سنجقاً (وهي أصغر وحدة إدارية) تابعة لولاية[١٨] الشام.[١٩]

وبما أن العثمانيين كانوا عند فتحهم لأية منطقة جديدة يحرصون على تثبيت حكمهم فيها بتعيينهم قاضياً روميا ليتولى حكم الشرع فيها، وأمير صوباشي[٢٠] ليتولى

---

١٣ ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني؛ ص٥٤٩.

١٤ منلا حنفي محمد (ت: ٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، درر الحكام في شرح غرر الأحكام، ٢ج، منشورات دار الطباعة العامة، الأستانة، ١٨٨٦م.

١٥ إبراهيم حنفي، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحلبي(ت: ٩٥٦هـ/١٥٤٩م)، ملتقى الأبحر، منشورات در سعادت، الأستانة، ١٩٠٥م.

١٦ جانبولات، قوانين الدولة العثمانية وصلتها بالمذهب الحنفي، ص٧٦-٧٧.

١٧ إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، جـ ١، ص٥.

١٨ كانت الولاية تشكل أكبر الوحدات الإدارية في الدولة العثمانية وتتشكل من مجموعة من السناجق. إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، جـ ١، ص٢٦٠.

١٩ عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون (١٥١٦-١٩١٦)، ط١، دمشق، ١٩٧٤م، ص٩٥-٩٦.

٢٠ الصوباشي: ١- قائد عسكري في الولاية يكون فوق مستوى السباهي (صاحب التيمار) في قوات التيمارات، وتحت مستوى أمير السنجق. ٢- هو الممثل الذي يعينه الوالي أو أمير السنجق لجمع موارده المالية وتنفيذ بعض أوامره.

إدارة الأمور وتنفيذ الأحكام في تلك المنطقة،[٢١] فقد طبقوا ذلك أيضاً في القدس حيث عملوا على تعيين قاضي القضاة وشيخ الإسلام أمثال «عبد الودود ولي الدين بن محمود الحنفي» العثماني لحكمها،[٢٢] والأمير جعفر صوباشي لمدينة القدس.[٢٣]

الجهاز القضائي في القدس خلال فترة الدراسة كان يتشكل مما يلي

أولاً: قاضي القضاة (حاكم الشرع)

بما أن المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي للدولة العثمانية، فقد كان قاضي القضاة (الحاكم) يُعين من العثمانيين الأحناف، وكان يشار إلى ذلك عند ذكر اسمه مثال على ذلك «مولانا أقضى القضاة الشمس محمد بن الزيني محمود الحنفي الرومي العثماني مولى القدس الشريف وتوابعه»[٢٤] و»مولانا القاضي الشمس أحمد بن مولانا مسعود العثماني الحنفي مولى القدس الشريف وتوابعه».[٢٥]

ولم يكن قاضي القضاة (الحاكم) في القدس يُميّز بلقب محدد إذ كانت تطلق عليه ألقاب عديدة للتبجيل، منها: «مولانا الأفندي[٢٦] قاضي القضاة وشيخ الإسلام»،[٢٧] أو «أقضى القضاة الهمام أول ولاة الإسلام مولى محروسة القدس الشريف»،[٢٨] أو

فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في الدفاتر المهمة، إعداد وترجمة، ٣ج، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠٠٥ و٢٠٠٦م و٢٠٠٧، ج١(٩٥١هـ/١٥٤٤م- ٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م)، ص٣٨٣. سيشار إليه لاحقاً: بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية.

٢١ إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، جـ ١، ص٢٤٥؛ وأنظر: Halil Inalcık, *The Ottoman Empire The Classical Age, (1300-1600)*, London, 1973, p. 48

٢٢ س: بلا، ح: بلا، ص:١٤، ت: ١٧ شعبان٩٣٥هـ/[١٥٢٩/٤/٢٦م].

٢٣ س: بلا، ح: بلا، ص:٥، ت: ٩ شعبان٩٣٥هـ/[١٥٢٩/٤/١٨م].

٢٤ س:١، ح: ١٢٥٢، ص:٣١٢ ، ت: اواخر شعبان ٩٢٨هـ/[١٥٢٢/٧م].

٢٥ س:١، ح: ٧٠٢، ص:١٧٢، ت: سلخ ربيع الآخر ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٢/٢٠م].

٢٦ الأفندي: لقب أطلق في العهد العثماني على رجال الهيئة العلمية القضائية، ويقصد به انه من كبار القضاة العلماء. محمد أحمد سليم اليعقوب ، ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ٢ج، الناشر البنك الأهلي الأردني، عمان، ١٩٩٩م، ج١، ص٢٠٩. سيشار إليه لاحقا: اليعقوب، ناحية القدس الشريف

٢٧ س: بلا، ح: بلا، ص:١٣٣، ت: ٢٩ ذو القعدة ٩٣٥هـ/[١٥٢٩/٨/٤م]؛ س: ١، ح: ٨٩٠، ص:٢٢١، ت: ١٢ شعبان ٩٣٧هـ /[١٥٣١/٣/٣١م].

٢٨ س: ١، ح: ٣٨١، ص:١٠٢، ت: سلخ جمادى الأول ٩٣٩هـ/[١٥٣٣/١/٢٦م].

«مولانا القاضي وشيخ الإسلام الحنفي مولى القدس الشريف».[٢٩]

وكانت الدولة العثمانية تشترط فيمن يولى القضاء أن يتمتع بقدر معين من دراسة العلوم الشرعية، إذ يجب أن يكون متخرجاً من إحدى مدارس الدولة الرسمية والموجودة في كل من بورصة، أو أدرنة، أو إستانبول، وبعد تخرجه يتوجب عليه ملازمة أحد القضاة لفترة معينة حتى يتدرب على القيام بمهام القضاء،[٣٠] لذا كان قضاة القدس من كبار علماء الشريعة الإسلامية والمدرسين،[٣١] وكانت تطلق عليهم ألقاب معينة لبيان المرتبة العلمية التي وصلوا إليها في العلوم الشرعية، ومن هذه الألقاب «مولانا الشيخ الإمام العالم العلامة أقضى القضاة شمس الدين مفتي المسلمين»،[٣٢] و«مولانا وسيدنا العبد الفقير الحاكم أقضى القضاة تاج الدين صدر المدرسين مفيد السائلين،[٣٣] و«أقضى القضاة الهمام أول ولاة الإسلام مولى محروسة القدس الشريف».[٣٤]

وكان قاضي القدس (الحاكم) كباقي قضاة الدولة العثمانية يُعين بموجب براءة سلطانية (فرمان) لمدة سنة،[٣٥] وكان يتبع قاضي الشام،[٣٦] ولا تكون له أية علاقة إدارية بأهل العرف أو الحكام الإداريين في السنجق أمثال أمير السنجق أو الصوباشي، لكنه يتعاون معهم من خلال عمله كحاكم للشرع في السنجق، كما كانوا يتعاونون هم معه بإحضار المتهمين إلى مجلس الشرع الشريف (المحكمة) لتتم محاكمتهم،[٣٧] أو من خلال قيام أحدهم بالإدلاء بالشهادة لتثبيت الحقوق أو الجرم على أحد الأطراف.[٣٨]

---

٢٩ س: ١، ح: ٤٩٩، ص:١٢٦، ت: ١٤ ربيع الأول ٩٣٧هـ/[٥/١١/١٥٣١م].

٣٠ ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، ص١٨٧.

٣١ إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، جـ ١، ص٢٩٧.

٣٢ س: ١، ح: ٦٣، ص:١٦-١٧، ت: ١١ ذو القعدة ٩٣٦هـ/[٧/٧/١٥٣٠م].

٣٣ س: ١، ح: ٣٤٨، ص:٩٤، ت: ٢٦ جمادى الآخر ٩٣٩هـ/[٢٢/١/١٥٣٣م].

٣٤ س: ١، ح: ٣٨١، ص:١٠٢، ت: سلخ جمادى الآخر ٩٣٩هـ/[٢٦/١/١٥٣٣م].

٣٥ اليعقوب ، ناحية القدس الشريف، ج١، ص٢٢٩.

٣٦ س: ١، ح: ٩٩٠، ص:٢٤٦، ت: بلا؛ ح: ١٠١٣، ص:٢٥٢ ، ت: بلا.

٣٧ إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ص٤٥٧.

٣٨ س: ١، ح: ٨٦٥، ص:٢١٥، ت: ١٥ جمادى الآخر ٩٣٧هـ/[٣/٢/١٥٣١م].

وكان حاكم الشرع يولى أحيانا قضاء القدس وتوابعه فقط[٣٩] أو أن يولى بالإضافة إلى قضاء القدس قضاء مدن أخرى كمدينة الخليل،[٤٠] أو أنه يولى بالإضافة إلى قضاء القدس قضاء مدينة الخليل ومدينة نابلس.[٤١]

وكان قاضي الشرع لا يُعزل من منصبه إلا إذا ارتكب مخالفة تستوجب ذلك، أو أن يطلب هو إعفائه من منصبه. وفي حال تعيين قاضي جديد للقدس كانت ترد رسالة من استانبول إلى القدس تتضمن اسم القاضي الجديد، وكان يهدف هذا الإجراء ليكون بمثابة إعلان رسمي صادر مباشرة من الباب العالي إلى الرعية لإتباع أحكام القاضي الجديد والانصياع لأوامره وتنفيذها.[٤٢]

وبعد انتهاء فترة حكم القاضي العثماني للقدس، كان يولى أحيانا قضاء مناطق أخرى في فلسطين أمثال «الجمالي يوسف» حيث ولِّي قضاء القدس الشريف ومن بعدها تولى قضاء صفد،[٤٣] وفي بعض الأحيان لا يرحل عن المدينة وإنما كان يستقر فيها ويتعامل بالتجارة.[٤٤]

وكان قاضي القدس يَحصل على دخله بشكل يومي، ويبدو انه كان يختلف بين يوم وآخر وذلك حسب عدد القضايا والمسائل المنظورة في مجلسه، حيث قُدِّر مرتب قاضي القدس مقابل حكمه لفترة معينة بالتخمين عن كل يوم ستون درهماً عثمانياً،[٤٥] كما كان القاضي يتناول نسبة من قيمة التركة عند تقسيمها بين الورثة، وكانت تبلغ «ربع العُشر» وتدفع له من قبل الورثة.[٤٦] وإلى جانب ذلك كان يترتب على معلمين القصابة في القدس تقديم كل يوم رطلين من اللحم لمولانا الأفندي [القاضي].[٤٧]

وكان القاضي خلال النصف الأول من القرن السادس عشر يتمتع بسلطات واسعة في حكم القدس، حيث كان يصدر أحكامه بحق مختلف العناصر السكانية

---

٣٩ س: ١، ح: ٧٠٢، ص:١٧٢، ت: سلخ ربيع الآخر ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٢/٢٠م].

٤٠ س: ١، ح: ١١٢١، ص:٢٨٠، ت: ٢٨ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٥/١٦م].

٤١ س: ١، ح: ٦٤، ص:١٧، ت: ١١ ذو القعدة ٩٣٦هـ/[١٥٣٠/٧/٧م].

٤٢ اليعقوب، ناحية القدس الشريف ج١، ص٢٣٠.

٤٣ س: ١، ح: ٨٢٥، ص:٢٠٦، ت: ٩ شعبان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٣/٢٨م].

٤٤ س: ١، ح: ٨٩٠، ص:٢٢١، ت: ١٢شعبان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٣/٣١م].

٤٥ س: ١، ح: ٩٥٨، ص:٢٣٨، ت: أواسط رجب ٩٣٧هـ/[أوائل/٣/١٥٣١م].

٤٦ س: ١، ح: ١٠٧١، ص:٢٦٧، ت: ٢١ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٥/٩م].

٤٧ س: ١، ح: ٢٨٥، ص:٧٨، ت: ٣٠ صفر ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٠/٢٢م].

والطوائف الدينية الثلاث الموجودة في القدس من مسلمين ومسيحيين ويهود، كما لم يقتصر عمله على إصدار الأحكام الشرعية في القضايا والمسائل الشرعية فقط وإنما الحقوقية والجزائية أيضاً.

فبالإضافة إلى الحكم في الدعاوى المتعلقة بالعلاقات الأسرية من عقود الزواج،[٤٨] والخُلع،[٤٩] وعودة الزوجة لعصمة زوجها بعد الطلاق،[٥٠] والنفقة للزوجة والأولاد،[٥١] والوصاية[٥٢] وغيرها من الدعاوى الشرعية، كان ينظر أيضًا في الدعاوى المتعلقة بالعلاقات التجارية والاقتصادية، وما ينتج عنها من خلافات ومنازعات حول حقوق وذمم،[٥٣] كما كان يشرف على مختلف نواحي الحياة المدنية ويتأكد من ضبط الأمور الأساسية كعمليات تسعير المواد التموينية الرئيسة في القدس أو التقيد بالأوزان المحددة لبيع بعض المواد كالخبز،[٥٤] وهو من يقوم بتعيين وتثبيت من يتولى وظيفة المُدرس في القدس،[٥٥] وحبس الأوقاف،[٥٦] والدعاوى المتعلقة بالتيمارات[٥٧] والمشاكل التي كانت تحدث بين أصحابها من السباهية وبين الآخرين.[٥٨]

وعلى الرغم من سعة سلطات القاضي التي كانت تطال معظم جوانب الحياة في

---

٤٨ س: ١، ح: ٢٦، ص:٦، ت: مستهل ذو القعدة ٩٣٦هـ/[١٥٣٠/٦/٢٧م]؛ ح: ٢٣٩، ص:٦٣، ت: ١٠ صفر ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٠/٢م].

٤٩ س: ١، ح: ٢٩٢، ص:٨١، ت: ٥ ربيع الأول ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٠/٢٧م]؛ ح: ٩٩٨، ص:٢٤٨، ت: ٨ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٤/٢٦م].

٥٠ س: ١، ح: ٩١٥، ص:٢٢٧، ت: ١٨ شعبان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٤/٦م].

٥١ س: ١، ح: ٧٨٧، ص:١٩٩، ت: ٢٩ جمادى الأولى ٩٣٧هـ/[١٥٣١/١/١٨م]؛ ح: ١١١٦، ص:٢٧٨، ت: ٢٧ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٥/١٥م].

٥٢ س: ١، ح: ٧١٩، ص:١٨١، ت: ١١جمادى الأولى ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٢/٣١م].

٥٣ س: ١، ح: ٧٠٩، ص:١٧٣، ت: مستهل جمادى الأولى ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٢/٢١م].

٥٤ س: ١، ح: ١٠٦٢، ص:٢٦٤، ت: ١٩ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٥/٧م].

٥٥ س: ١، ح: ١٠٥١، ص:٢٦٢، ت: ١٨ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٥/٦م].

٥٦ س: ١، ح: ٧٣٣، ص: ١٨٤، ت: ١٦ جمادى الأولى ٩٣٧هـ/[١٥٣١/١/٥م].

٥٧ التيمار: الإقطاع، حيث أن الأساس في نظام التيمار هو أن تترك الدولة للفئات العسكرية التي تريد مكافئتها على الخدمات التي تتولى القيام بها حق قيامهم باسمهم ولحسابهم بجباية بعض حاصلات الضرائب بدلا من حصولهم على رواتب شهرية، ومن الرسوم التي يتولى السباهي جبايتها رسم المزرعة، ورسوم العُشر، والدخان، والطابو والعديد من الرسوم الأخرى. للمزيد: إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة،ج١، ص٦٥٠-٦٥١.

٥٨ س: ١، ح: ١٠٤، ص:٢٧، ت: ٤ ذي الحجة ٩٣٦هـ/[١٥٣٠/٧/٢٩م]؛ ح: ١٢٥، ص:٣٣، ت: ١٥ ذي الحجة ٩٣٦هـ/[١٥٣٠/٨/٩م]؛ ح: ١٦٨، ص: ٤٤، ت: ٣ محرم ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/٨/٢٦م].

القدس، نلحظ من خلال الحجج الشرعية أن حاكم الشرع (القاضي) لم يكن يصدر كافة قراراته متفرداً فيها، وإنما كانت تصدر في بعض الأمور بوجود ومشاركة أصحاب العلاقة، فمثلا عملية تسعير المواد التموينية في القدس مثل الأرز والسمن والدبس والصابون واللوز والأجاص والعنب والسميد والخبز وغيرها من المواد التموينية كانت تتم بحضور جماعة من أهل السوق والمحتسب.[٥٩] كما انه في بعض الأحيان كان يصدر بعض الأحكام الشرعية وهو في داره كتنصيب ناظر وصي على طفلة يتيمة، ومن ثم يحضر إلى مجلس الشرع ويقدم إشهاداً بذلك الحكم أمام جمع من القضاة.[٦٠]

وفي حال تقدَّم أحد المتضررين من حكم القاضي في القدس بشكوى إلى باشا الشام، كانت ترد صورة حكم من باشا الشام حول تلك الدعوى لقاضي القدس، وإذا كان الحكم الصادر من باشا الشام حول حقوق مادية يحصل الباشا على نسبة من عشر المال المحكوم فيه،[٦١] وكان باشا الشام كثيراً ما يتدخل في المنازعات بين القضاة والسباهية.[٦٢]

ثانياً: نواب الشرع

نظراً للخصوصية التي كانت تتميز بها المدينة المقدسة عن غيرها من المدن الأخرى، كان يوجد في القدس خلال فترة الدراسة أربعة نواب للقاضي الحاكم، وكانوا يعينون من العناصر المحلية، أي قاضي لكل مذهب من المذاهب الإسلامية الأربعة (الحنفي،[٦٣] والشافعي،[٦٤] والحنبلي،[٦٥] والمالكي[٦٦])، وكان القاضي الحنفي

---

٥٩ س: ١، ح: ٢٨٦، ص:٧٨، ت: ٣٠ صفر ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٠/٢٢م].

٦٠ س: ١، ح: ٣١١، ص: ٨٤، ت: بلا.

٦١ س: ١، ح: ٧١٩، ص:١٧٦، ت: أواسط ربيع الثاني ٩٣٧هـ/[أوائل/١٥٣٠/١٢م].

٦٢ س:١، ح: ١٠٤، ص:٢٧، ت: ٤ ذي الحجة ٩٣٦هـ / [١٥٣/٧/٢٩]؛ ح: ١١٠، ص:٢٩، ت: ٤ ذي الحجة ٩٣٦هـ /[١٥٣/٧/٢٩].

٦٣ س: بلا، ح: بلا، ص:٢، ت: ٧ شعبان٩٣٥هـ/[١٥٢٩/٤/١٦م].

٦٤ س: بلا، ح: بلا، ص:١٧٤، ت: ٢٣ محرم ٩٣٦هـ/[١٥٢٩/٩/٢٦م]؛ س:١، ح: ٨٧٧، ص:٢١٨، ت:١٧ جمادى الأخر ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٢/٥م].

٦٥ س: بلا، ح: بلا، ص:١٥٣، ت: ٢٢ ذو الحجة ٩٣٥هـ/[١٥٢٩/٨/٢٧م]؛ س: ١، ح: ١٤١٠، ص:٣٥٦-٣٥٧، ت: ٨ ذو الحجة ٩٣٥هـ/[١٥٢٩/٨/٢٣م].

٦٦ س: ١، ح: ١٤٠٢، ص:٣٥٥، ت: ٧ ذو الحجة ٩٣٥هـ/[١٥٢٩/٨/٢٢م]؛ س: بلا، ح: بلا، ص:١٢٨، ت: ٢٤ ذو القعدة ٩٣٥هـ/[١٥٢٩/٧/٣٠م].

يُقدَّم على غيره من القضاة، وكان يلقب كل واحد منهم بخليفة الحكم بالقدس الشريف، أمثال «مولانا الأفندي أقضى القضاة وشيخ الإسلام النجمي الديري[٦٧] الحنفي الحاكم بالقدس الشريف»،[٦٨] ويرد في معظم الحجج الشرعية التأكيد على أن المستمسكات الشرعية قد ثبتت لديه، وأنه حكم بموجبها، لذا يمكننا القول إن هذا القاضي النائب كان هو الحاكم التنفيذي في القدس.

ولا غرابة في تعيين القضاة النواب من أهل البلاد المحليين، طبقاً لما ذكرناه سابقاً من اهتمام الدولة العثمانية بالأخذ في أعراف وعادات وتقاليد البلاد المفتوحة في القضاء وخصوصاً إذا ما توفرت الشروط العلمية الواجب توفرها في القاضي، كما أن تعيين قضاة القدس من أبناء البلاد المحليين يبين رفعة المستوى العلمي الذي كان يتمتع به علماء الشرع من أهل فلسطين في تلك الفترة.

وكان القاضي الشافعي في القدس يأتي في المرتبة الثانية في إصدار الأحكام الشرعية بعد القاضي الحنفي، وكان القاضي الحنفي يصادق على أحكامه، وفي حال وقوع نزاع حول حكم صادر من قبل القاضي الشافعي، ولم يُصادق عليه لاحقاً كان لا يعتمد،[٦٩] كما كان القاضي الشافعي يصادق أحياناً على بعض الأحكام الشرعية الصادرة عن النائب الحنفي،[٧٠] وكان القاضي الشافعي ينظر في كل ما يتعلق بالأوقاف الجارية تحت نظره، كأن يجري عقود تأجير للأراضي الوقفية[٧١] أو العقارات[٧٢] أو يحكم بصحة تلك العقود أو مخالفتها للشرع الشريف في حال وقوع نزاع حولها،[٧٣] أو

٦٧ آل الديري: ينسبهم السخاوي في كتابه «الضوء اللامع» إلى « الدير» الذي بحارة المرداويين من بيت المقدس، في حين ينسبهم العليمي إلى قرية اسمها الدير بالقرب من نابلس في فلسطين، وبأن أصولهم تعود إلى قبيلة عبس من عرب الحجاز. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، (ت: ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ج، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م، ج٣، ص٢٤٩؛ العليمي العمري، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٢٧هـ/١٥٢١م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ج، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٣، ج٢، ص٢٢١ و٢٢٢-٢٢٥ و٢٢٧ و ٢٢٩. سيشار إليه لاحقا، العليمي، الأنس الجليل.

٦٨ س: ١، ح: ١٠٤٩، ص:٢٦٢، ت: ١٧ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٥/٥م]؛ س:٢، ح: ٥٥٨، ص:١٢٨، ت: ٢٧ شوال ٩٣٨هـ /[١٥٣٢/٦/٢م].

٦٩ س: ١، ح: ١٠٩٣، ص:٢٧٢، ت: ٢٥ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٥/١٣م].

٧٠ س: ١، ح: ٩٩٠، ص:٢٤٦، ت: بلا؛ ح: ٩٩١، ص:٢٤٧، ت: ٦ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٤/٢٤م].

٧١ س: ١، ح: ١٠٢٠، ص:٢٥٣، ت: ١٣ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٥/١م].

٧٢ س: ١، ح: ٧٤٩، ص:١٨٩، ت: ٢٣ جمادى الأولى ٩٣٧هـ/[١٥٣١/١/١٢م].

٧٣ س: ١، ح: ١٠٦، ص:٢٨، ت: ٤ ذو الحجة ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/٧/٢٩م].

في عقود البيع لغراس الأراضي والقرى والمزارع،[٧٤] وغير ذلك من الأمور.

ولم يقصر نظر القاضي الشافعي على المسائل والدعاوى المتعلقة بشؤون وحقوق أتباع مذهبه فقط، وإنما أيضاً كان يحكم في الدعاوى القائمة بين المسلمين والنصارى[٧٥] أو بين المسلمين من الأحناف كالحكم في دعوى بين قاضي حنفي وأحد الأشخاص من العامة،[٧٦] أو الشهادة أحيانا مع القاضي الحنفي على توكيل شرعي،[٧٧] أو الحكم في صحة الإشهاد بين طرفين حول حقوق عينية،[٧٨] أو في حالات تعدي على إحدى المزارع دون وجه حق،[٧٩] وكذلك الحكم بالاعتقال لمن تثبت إدانته،[٨٠] وغير ذلك من الأحكام الأخرى.

أما قاضي القدس الحنبلي،[٨١] فكان يُعين إما من العثمانيين[٨٢] أو من أهل البلاد المحليين،[٨٣] وكان القاضي الحنفي يصادق على الأحكام الصادرة من قبل القاضي الحنبلي ويحكم بموجبها.[٨٤]

وأما القاضي المالكي،[٨٥] فكان يُعين من أهل البلاد المحليين،[٨٦] وعلى الرغم من قلة الأحكام الشرعية الصادرة عن القاضيين الحنبلي والمالكي، إلا أن بعض المسائل والدعاوى كانت تستوجب الفصل فيها من قبل قضاة تلك المذاهب، فمن خلال إحدى الدعاوى حول صحة وقوع الطلاق بين زوجين بعد أن أوقع زوج على زوجته طلقتين وخُلع، نجد أن القاضي الحنبلي ألغى الخُلع، وحكم

٧٤ س: بلا، ح: بلا، ص:٩، ت: ١١شعبان ٩٣٥هـ/[١٥٢٩/٤/٢٠م].

٧٥ س: ١، ح: ٣١٥، ص:٨٥، ت: ٩ ربيع الأول ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٠/٣١م].

٧٦ س: ١، ح: ٦٣٢، ص:١٥٦، ت: ١١ ربيع الآخر ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٢/١م].

٧٧ س: ١، ح: ٤٣٦، ص:١١٤، ت: ١٢ جمادى الآخر ٩٥١هـ/[١٥٤٤/٨/٣١م].

٧٨ س: ١، ح: ٨٧٧، ص:٢١٨، ت: ١٧ جمادى الآخر ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٢/٥م].

٧٩ س: ١، ح: ٦٠٢، ص:١٤٧، ت: ٤ ربيع الثاني ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١١/٢٥م].

٨٠ س: ١، ح: ٦٩٣، ص:١٧٠، ت: سلخ ربيع الآخر ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٢/٢٠م].

٨١ المذهب الحنبلي: نسبة إلى الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ/٨٥٥م).

٨٢ س: ١، ح: ١١٢١، ص:٢٨٠، ت: ٢٨ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٥/١٦م].

٨٣ س:١٧، ح: ٣، ص: ٣٦٤، ت: ٣ شوال ٩٥٢هـ /[١٥٤٥/١٢/٨م].

٨٤ س: ١، ح: ٩٩٣، ص:٢٤٧، ت: ٦رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٤/٢٤م].

٨٥ المذهب المالكي: نسبة إلى الفقيه مالك بن أنس الحميري (ت: ١٧٩هـ/٧٩٥م).

٨٦ س: ١٤، ح:٦٢٠، ص:٨٣٥، ت: ١٠ جمادى الثاني ٩٤٥هـ /[١٥٣٨/١١/٢م].

بأنه لم ينقض عدد الطلاق وأعاد الزوجة إلى عصمة زوجها بعقد جديد، وبذلك الحكم أجاز بموجب مذهبه ما لا يجوز بموجب المذهب الحنفي.[٨٧]

غير أننا نلحظ أن كلمة الفصل النهائية على صحة الأحكام المهمة والمتعلقة مثلا ببيع بعض الأملاك في القدس، حتى ولو تم إعطاء الإذن بالبيع من قبل القاضي المالكي وثبوت صحته من قبل القاضي الشافعي، كانت لا تتم إلا من قبل القاضي الحنفي وهو من يقضي بتنفيذه.[٨٨]

بالإضافة إلى القضاة النواب الأربعة، كان يوجد في محكمة القدس عدد من القضاة من الدرجة الثانية، وكان يُعينهم قاضي القدس الحنفي من أبناء البلاد المحليين، وكانوا يشهدون على الدعاوى التي تنظر أمامهم كشهود للحال.[٨٩]

ونلحظ من خلال أقدم سجلين شرعيين من سجلات محكمة القدس الشرعية وجود عدد كبير من القضاة (نواب الشرع) مدونة أسماؤهم كشهود للحال، غير أن هذا العدد تناقص خلال الستة الأشهر اللاحقة في السجل رقم (١) وما تبعه من سجلات مما يشير إلى استتباب الأمن والحكم في المدينة حيث تناقص عددهم بشكل واضح.

وقد لا يقتصر عمل نواب الشرع أحياناً على النظر والحكم والإشهاد في الدعاوى، وإنما كانوا يتخذون بعض الخطوات الإجرائية أحياناً، فمثلا عند وقوع خلافات بين فلاحي قرية ما والسباهي صاحب التيمار في تلك القرية على مقدار الضرائب المفروضة عليهم، كانت تُحلُّ تلك الخلافات بتوجه أحد نواب الشرع مع جمع من أهل الخبرة إلى تلك القرية لتخمين المزروعات، وتحديد قيمة الضرائب الواجبة على الفلاحين، والشهادة بذلك أمام السباهي صاحب التيمار.[٩٠]

---

٨٧ س: ١، ح:١١٠٥، ص:٢٧٦، ت: ٢٦ رمضان ٩٣٧هـ/[١٤/٥/١٥٣١م].

٨٨ س: ١، ح:١١٣٦، ص:٢٨٣، ت: ٣ شوال ٩٣٧هـ/[٢٠/٥/١٥٣١م].

٨٩ أسفل كل حجة من الحجج الشرعية المدونة في سجلات محكمة القدس الشرعية مسطرة بعبارة شهود الحال، وفي أسفلها تدون أسماء القضاة والكاتب والشهود.

٩٠ س:١، ح: ٤٤، ص:٩، ت: ٩ ذو القعدة ٩٣٦هـ/ [٢/٧/١٥٣٠م].

ثالثاً: الموظفون التابعون للقاضي في المحكمة، وهم

الكتَّاب

كان يتوجب على من يتولى وظيفة الكتابة أن يكون على درجة علمية جيدة، وعارفاً بأصول الشرع الإسلامي الشريف والكتابة فيه، لأهمية دوره في كتابة الحجج الشرعية، حيث كان يكتبها على نسختين تحفظ الأولى في ديوان القاضي، في حين تعطى الثانية لصاحب الدعوى.[٩١]

ونلحظ أن بعض القضاة (نواب الشرع) كانوا يتولون عملية الكتابة أحياناً،[٩٢] كما أن بعض الكتاب كانوا يتولون عملية القضاء والحكم في بعض الدعاوى، لكن على أن يُنقل الحكم للقاضي للمصادقة عليه والحكم بصلاحه وإنفاذه.[٩٣] وكان كتاب الشرع في القدس من أبناء البلاد المحليين، وفي غالب الأحيان كان يذكر مع اسم الكاتب اسم مذهبه مثل خليل الحنفي،[٩٤] وعمران الحنبلي[٩٥] وأحمد الحنبلي،[٩٦] مما يشير إلى تمييز الدولة بين أتباع المذاهب المختلفة، كما أن مدة تعيينهم لم تكن تحدد بفترة زمنية محددة.

أمين المحكمة (آمر المحكمة)

هو من تقع عليه مسؤولية تسلم وحفظ جميع المقتنيات المحفوظة لدى المحكمة لحين البت فيها،[٩٧] وكذلك جمع رسوم المحكمة من أصحاب الدعوى[٩٨] وذلك بحضور القاضي.[٩٩]

---

٩١ الماوردي، أبو الحسن علي ابن محمد بن حبيب(ت: ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، محي الهلال السرحان (محقق)، أدب القاضي، ٢ج، سلسلة إحياء التراث الإسلامي، بغداد، ١٩٧١م، ج٢، ص٦٥. سيشار إليه لاحقا: الماوردي، أدب القاضي.

٩٢ س:١، ح: ٢٢٨، ص:٥٦، ت: بلا.

٩٣ س: ١،ح: ٢٢، ص: ٥، ت: ختام شوال ٩٣٦هـ / [١٥٣٠/٦/٢٦م].

٩٤ س:بلا، ح: بلا، ص:٣٤، ت: ٢ رمضان ٩٣٥هـ/ [١٥٢٩/٥/١٠م]؛

٩٥ س: ١، ح: ٩٠٣، ص: ٢٢٤، ت: ١٥ شعبان ٩٣٧هـ / [١٥٣١/٤/٣م].

٩٦ س:١، ح: ١٢٤٢، ص:٣٠٩، ت: بلا.

٩٧ س: ١، ح: ٣٥٨، ص: ٩٦، ت: ٢٤ جمادى الآخر ٩٣٩هـ / [١٥٣٣/١/٢٠م].

٩٨ اليعقوب، ناحية القدس الشريف، ج١، ص٢٣٣.

٩٩ س: ١٢، ح: ٢، ت: ٢٠ جمادى الأولى ٩٤٧هـ /[١٥٤٠/٩/٢١م]؛ س: ١٥، ح: ١، ص:٧٩، ت: ٢١ رمضان ٩٤٩هـ/ [١٥٤٢/١٢/٢٨م].

الشهود،[١٠٠] وهم نوعان

الأول: شهود الحال الثابتون، وهم من أبناء البلاد المحليين المدرّبين والقادرين على معرفة دلالات الألفاظ الواردة في الحجج التي يشهدون عليها،[١٠١] وعملهم في المحكمة وظيفياً إذ نلحظ تكرار توقيعهم في أسفل الحجج.

الثاني: وهم شهود الاختصاص، وهم من يطلب إحضارهم للشهادة من قبل القاضي، وذلك لخبرتهم وعلمهم فيما يتعلق بقضية ما، كأن يشهد المعمارباشي في قضية بناء.[١٠٢]

ترجمان[١٠٣] المحكمة

هو من كان يتولى عملية الترجمة من اللغة العربية أو الإفرنجية إلى العثمانية مثلا أو بالعكس، وخصوصاً بين القضاة من العثمانيين وأصحاب الدعاوى الشرعية من أهل البلاد، وكانت هذه الوظيفة تتوارث عن الآباء والأجداد، وكان الترجمان يتناول مرتبه من رسوم الدعاوى، وكان عمله يقتصر على داخل المحكمة فقط،[١٠٤] وكانوا يوقعون بأسمائهم كشهود للحال في الدعاوى التي يقوموا بالترجمة فيها،[١٠٥] وفي بعض السنوات كان يوجد في محكمة القدس أكثر من ترجمان.

المحضرون

كان يطلق عليهم أيضا «رسل الشرع»،[١٠٦] وتتلخص واجباتهم في تنفيذ أوامر القاضي بإحضار المطلوبين للمثول أمامه في مجلس الشرع الشريف.

---

١٠٠ الشهود: جمع شاهد، وهو من يقوم بالإخبار بحق الغير على آخر سواء كان حق الله أو حق البشر، ويكون الإخبار عن علم ويقين. السرخسي، محمد بن احمد بن أبي بكر (ت: ٤٩٠هـ/١٠٩٧م)، المبسوط، ٣٠ ج، ط٢، دار المعرفة، بيروت(د.ت)، ج١٦، ص١١٣.

١٠١ Bakhit Adnan Muhammad, *The Ottoman Province of Damascus in the Sixteenth Century*, Librairie du Liban, Beirut, 1982, p. 18

١٠٢ اليعقوب، ناحية القدس الشريف، ج١، ص٢٣٣-٢٣٤.

١٠٣ محمد سعيد القاسمي (ت: ١٣١٧هـ/١٩٠٠م)، جمال الدين القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، وخليل بن مصطفى العظم (ت: ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م)، قاموس الصناعات الشامية،٢ج في ١م، حققه وقدم له ظافر القاسمي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٨م، ص٦٩-٧٠. سيشار إليه لاحقا: القاسمي، قاموس الصناعات الشامية.

١٠٤ الماوردي، أدب القاضي، ج١، ص٦٩٥.

١٠٥ س: ١، ح: ١٠٠٧، ص: ٢٥٠، ت: ١١ رمضان ٩٣٧هـ / [١٥٣١/٤/٢٩م].

١٠٦ اليعقوب، ناحية القدس الشريف، ج١، ص٢٣٤-٢٣٥.

السَّجَّان

تتلخص مهامه في حفظ من تثبت إدانتهم داخل السجن التابع لمجلس الشرع الشريف، ولا يُطلق سراح أحدٍ إلا بإذن من القاضي، كما كان على السجان خدمة المساجين.[١٠٧] وكان السجن عبارة عن القبو المعد للجند في البيمارستان الصلاحي في القدس والساحة أمامه، وكان السجان هو من يتولى استئجاره من الناظر على أوقاف البيمارستان بمبلغ من الدراهم الفضة العثمانية.[١٠٨]

أما المقر الرئيسي لانعقاد مجلس الشرع الشريف (محكمة القدس الشرعية) فقد كان في مبنى المدرسة التنكزية الواقعة إلى يمين الداخل إلى الحرم الشريف من باب السلسلة،[١٠٩] إلا أن مجلس الشرع كان ينعقد في بعض الحالات القليلة جداً في المدرسة المنجكية،[١١٠] وكان ينعقد يومياً وفي أيام الجمعة، فيما عدا أيام عيد الفطر السعيد وعيد الأضحى المبارك.[١١١]

مقدمة عن الواقع الاجتماعي في القدس خلال النصف الأول من القرن السادس عشر

للتعرف على حقيقة الواقع الاجتماعي الذي كان سائداً في مدينة القدس في مطلع العهد العثماني، لا بد لنا بداية من التعرف على الطبيعة السكانية التي كانت موجودة في المدينة خلال تلك الفترة.

وبما أن دفاتر التحرير العثمانية تعتبر من أغنى المصادر التي يمكن استخلاص المعلومات الدقيقة منها عن الواقع السكاني في كامل لواء القدس خلال فترة الدراسة، فإن المعلومات الواردة في دفتر تحرير (T.D. ٤٢٧) للفترة (٩٣٢هـ/١٥٢٥-١٥٢٦م- ٩٣٤/ ١٥٢٧-١٥٢٨م) تشير إلى أن مدينة القدس كان يسكنها أبناء الطوائف الدينية الثلاث من مسلمين ونصارى ويهود، وبأن المسلمين كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة من السكان، وأن عدد سكانها كان على النحو التالي:

---

١٠٧ س: ١، ح: ٦٩٨، ص: ١٧١، ت: الأول من جمادى الأول ٩٣٧هـ/ [١٥٣٠/١٢/٢١م]؛ س٣، ح٤، ص٣٠٤، ت: ٧ محرم ٩٤٠هـ/ [١٥٣٣/٧/٢٩م].

١٠٨ س: ١، ح: ١٠٢٠، ص: ٢٥٣، ت: ١٣ رمضان ٩٣٧هـ/ [١٥٣٠/٥/١م].

١٠٩ عارف العارف (ت:١٩٧٣م)، المفصل في تاريخ القدس، ط١، القدس، ١٩٦٠، ص٣١٢.

١١٠ س: ١، ح: ٩٩٨، ص: ٢٤٨، ت: ٨ رمضان ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٤/٢٦م].

١١١ اليعقوب، ناحية القدس الشريف، ج١، ص٢٣٢.

مسلمون: (٦٢٨) خانة،[١١٢] (٢) مجرد،[١١٣]
نصارى: (١١٩) خانة، و(٠) مجرد،
يهود : (١٩٩) خانة، و(٠) مجرد.

أي أن مجموع الخانات (الأسر) في مدينة القدس كان يبلغ (٩٤٦) خانة و(٢) مجردين.[١١٤] في حين يبين دفتر تحرير (T.D. ١٠١٥) للعام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨-١٥٣٩م) أن عدد سكان المدينة كان على النحو التالي:

مسلمون: (١١٦٨) خانة، و(٧٩) مجرد،
نصارى: (١٧٦) خانة، و(٢٦) مجرد،
يهود : (٢٢٤) خانة، و(١٩) مجرد.

أي أن مجموع الخانات في مدينة القدس صار يبلغ (١٣٧٩) خانة و(١٠٨) مجردين.[١١٥]

وبمقارنة بسيطة بين الإحصائيتين الواردتين في الدفترين نلحظ زيادة واضحة وكبيرة في عدد سكان المدينة، وبنسبة تبلغ (٤٥,٥٪) وهي نسبة كبيرة جداً خلال مدة قصيرة لا تتجاوز ثلاثة عشر عاماً، الأمر الذي يشير إلى زيادة الهجرة الداخلية من القرى المحيطة في الناحية إلى المدينة بنسبة كبيرة،[١١٦] وان السبب الرئيسي في ذلك أن مدينة القدس بدأت تشهد حالة من الأمن والاستقرار بعد ما كانت تشهده في أواخر العهد المملوكي من تعسّف النواب بالأهالي، والقيام بمصادرة أموالهم،

١١٢ الخانة: يقصد بها الأسرة، وهي وحدة إحصاء عثمانية يتراوح معدلها بين خمسة وسبعة أنفار. محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية ، لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد والغزة [غزة] والقدس الشريف من دفتر تحرير (T.D.٤٢٧)، تاريخ (٩٣٢هـ/١٥٢٥-١٥٢٦م- ٩٣٤هـ/١٥٢٧-١٥٢٨م)، منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي- لندن،عمان، ١٤٢٦هـ /٢٠٠٥م، ص٢٨. سيشار إليه لاحقاً: دفتر تحرير (T.D. ٤٢٧)، البخيت والسوارية.

١١٣ المجرد: ويقصد به الأعزب أو الغريب عن السكان.

١١٤ دفتر تحرير (T.D. ٤٢٧)، البخيت والسوارية، ص٢٩.

١١٥ محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، لواء القدس الشريف، لواء القدس من دفتر لواء القدس الشريف من دفتر تحرير (T.D. ١٠١٥)، تاريخ (٩٤٥هـ/١٥٣٨-١٥٣٩م)، منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي- لندن، عمان، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص١١. سيشار إليه لاحقاً: دفتر تحرير (T.D. ١٠١٥ ٤٢٧)، البخيت والسوارية.

١١٦ اليعقوب، ناحية القدس الشريف، ج١، ص٣٧.

وحتى قتل البعض منهم في بعض الأحيان،[١١٧] أضف إلى ذلك ما عاشته المدينة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي من كوارث طبيعية، حيث ضربها زلازل كبير في ذي القعدة من عام ٩٠٢هـ/ تموز ١٤٩٧م أدى إلى هدم عدد كبير من بيوتها،[١١٨] ومن انتشار الأوبئة فيها عدة مرات كمرض الطاعون الذي أصابها في عام ٨٨١هـ/ ١٤٧٧م ووصفه العليمي بقوله «ولم يكن طال بلدة من البلاد أكثر من بيت المقدس»[١١٩] فأدت جميع هذه العوامل سابقاً إلى الارتحال والهجرة عنها.

وأوضحت دفاتر التحرير العثمانية أماكن تمركز كل طائفة من أبناء الطوائف الدينية الثلاث في المدينة، فبحسب دفتر التحرير (T.D. ٤٢٧) يبين أن تمركز المسلمين كان في المحلات التالية: محلة باب حِطة (١١٥) خانة، ومحلة الزراعنة (١١٠) خانات، ومحلة باب القطانين (١٠٢) خانة، ومحلة شرف/علم (٨٩) خانة، وغيرها من المحلات لكن بأعداد أقل.[١٢٠] في حين يبين دفتر التحرير (T.D. ١٠١٥) أن أكثر سكان المدينة المسلمين يتمركزون في كل من المحلات التالية: محلة شرف (٢٦٦) خانة، ومحلة باب حِطة (١٦٦) خانة، ومحلة الزراعنة (١٥٩) خانة، ومحلة باب القطانين (١٢٨) خانة، ومحلة بني زيد (١١٧) خانة، ومحلة باب العمود (١٠١) خانة وغيرها من المحلات أيضا وبأعداد أقل.[١٢١]

ومما سبق نلحظ كيف انه مع مرور الزمن اختلفت الكثافة السكانية في محلات القدس الإسلامية حيث تقدمت محلة الشرف على محلة باب حِطة مثلا، في حين احتفظت محلتا الزراعنة وباب القطانين بنفس النسبة السكانية تقريباً مقارنة مع الزيادة السكانية العامة في المدينة.

وأما بالنسبة للنصارى، فبحسب دفتر (T.D. ٤٢٧)[١٢٢] يبين أنهم كانوا يتبعون ثلاث طوائف رئيسية في المدينة وهي جماعة الملكية[١٢٣](٩٦) خانة، وجماعة اليعاقبة[١٢٤]

---

١١٧ المهتدي، القدس تاريخ وحضارة، ص٢٨١.

١١٨ دفتر تحرير (T.D. ٤٢٧)، البخيت والسوارية، ص٣١.

١١٩ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣١٨.

١٢٠ دفتر تحرير (T.D. ٤٢٧)، البخيت والسوارية، ص٣٢-٣٣.

١٢١ دفتر تحرير (T.D. ١٠١٥ ٤٢٧)، البخيت والسوارية، ص١٣-١٤.

١٢٢ دفتر تحرير (T.D. ٤٢٧)، البخيت والسوارية، ص٥١.

١٢٣ س: ١، ح: ١٠٥٠، ص: ٢٦٢، ت: ١٨ رمضان ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٥/٦م].

١٢٤ س: ١، ح: ٦٢، ص: ١٦، ت: ١٥ ذو القعدة ٩٣٦هـ/ [١٥٣٠/٧/١١م].

(١٥) خانة، وجماعة السريان[١٢٥] (٨) خانات، في حين تُبين السجلات الشرعية وجود طوائف نصرانية أخرى في المدينة خلال تلك الفترة منها الأرمن[١٢٦]،[١٢٧] والروم[١٢٨] والأقباط[١٢٩]،[١٣٠] والكرج[١٣١]،[١٣٢] والحبش.[١٣٣]

وتؤكد الحجج الشرعية على تعدد طوائف النصارى في القدس خلال تلك الفترة، إذ يظهر ذلك من ورود أسماء العديد من الأديرة في المدينة منها دير السلطان[١٣٤]،[١٣٥] ودير السرب،[١٣٦] ودير السريان،[١٣٧] ودير الطواويس، ودير الزيتونة،[١٣٨] ودير

---

١٢٥ س: ١، ح: ٢٣٤، ص: ٦١، ت: ٨ صفر ٩٣٧هـ/ [١٥٣٠/٩/٣٠م].

١٢٦ طائفة الأرمن: كانت تأتي بالمرتبة الثانية بعد طائفة الروم الأرثوذكس في القدس، والدليل على ذلك كثرة عدد المؤسسات الدينية التي امتلكوها في المدينة، وقد سكنوا في حي خاص بهم سمي حي أو حارة الأرمن، لكن في عهد المماليك كانت أعدادهم آخذة في النقصان بسبب تشدد سلاطين المماليك في معاملتهم على اعتبار أنهم أصدقاء الفرنجة. المهتدي، القدس تاريخ وحضارة، ص٢٨٨؛ زياد عبد العزيز المدني، مدينة القدس وجوارها في أواخر العهد العثماني (١٢٤٦- ١٣٣٦هـ/ ١٨٣١-١٩١٨م)، ط١، عمان، ٢٠٠٤م.، ص٢٢١؛ اليعقوب، ناحية القدس الشريف، ج١، ص٣٩.

١٢٧ س:٤، ح:١، ص:٣٣١، ت: ٢٨ صفر ٩٤١هـ/ [١٥٣٤/٩/٨].

١٢٨ س: ١، ح: ١٠٥٠، ص: ٢٦٢، ت: ١٨ رمضان ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٥/٦م].

١٢٩ القبط (الأقباط): كلمة قبط تعريب لكلمة يونانية تعني مصري؛ وهي تستخدم للدلالة على المصريين المسيحيين، وكانت طائفة منهم قد قدمت إلى مدينة القدس للزيارة ومن ثم الإقامة بها، وكان لهم في القدس ثلاثة أديرة خلال فترة الدراسة وهي دير أندرياس خارج سور القدس، ومقام الخضر عليه السلام وكان يقع في حارة باب العامود، ودير واحد هو دير السلطان الذي أعاده السلطان صلاح الدين الأيوبي لهم بعد أن اغتصبه اللاتين منهم زمن الصليبيين. اليعقوب، ناحية القدس الشريف، ج٢، ص٤٦٦-٤٦٧؛ المدني، مدينة القدس وجوارها، ص٢٤٠.

١٣٠ المهتدي، سجل محكمة القدس الشرعية رقم ١/القسم الأول، ص١٣٥.

١٣١ طائفة الكرج: أصولهم من بلاد جورجيا إحدى المناطق الشرق آسيوية القريبة من روسيا.
Amnon Cohen & Bernard Lewis, *Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century*, Princeton University Press: Princeton, NJ, 1978, p. 88

١٣٢ س:٤، ح: ٥، ص:٣٠٧، ت: ١٢ صفر ٩٤١هـ/ [١٥٣٤/٨/٢٣].

١٣٣ س:٤، ح:٣، ص:١٣٦، ت: ١١ ذي القعدة ٩٤٠هـ/ [١٥٣٤/٦/٢٣].

١٣٤ دير السلطان: دير لطائفة الأقباط بمدينة القدس ويقع في الجهة الجنوبية من كنيسة القيامة، وقد سمي بذلك نسبة إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي أعاده للأقباط بعد أن اغتصبه جماعة اللاتين زمن الصليبيين، ومبنى الدير يتكون من طابقين تستخدم غرف لسكن الرهبان المقيمين فيه. اليعقوب، ناحية القدس الشريف، ج٢، ص٤٦٧؛ عارف العارف، المسيحية في القدس مطبعة دير الروم الأرثوذكس، القدس، ١٩٥١م، ص١٣١و ١٨٣.

١٣٥ س: ١، ح: ٦٢، ص: ١٦، ت: ١٥ ذو القعدة ٩٣٦هـ/ [١٥٣٠/٧/١١م].

١٣٦ س: ١، ح: ٤٩٩، ص: ١٢٦، ت: ١٤ ربيع الأول ٩٣٧هـ/ [١٥٣٠/١١/٥م].

١٣٧ س: ١، ح: ٥٥٢، ص: ١٣٦، ت: ٢٧ ربيع الأول ٩٣٧هـ/ [١٥٣٠/١١/١٨م].

١٣٨ س: ١، ح: ٨٧٩، ص: ٢١٨، ت: ٨ شعبان ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٣/٢٧م].

الأرمن،[١٣٩] وغير ذلك من الأديرة.

ويبدو أن الدولة كانت تتشدد في تحديد عدد أنفار الجوالي من النصارى الممكن استقدامهم إلى مدينة القدس للإقامة والعمل فيها، حيث كانت تفرض غرامة مالية على كافلهم أو رئيس طائفتهم قدرها ألف درهم فضة عثمانية يدفعها لملك الأمراء (قائد العسكر) في حال تجاوزه العدد المحدد، أو في حال تبين وجود أشخاص منهم لم يشملهم الإحصاء في المدينة.[١٤٠]

وأما عن أماكن سكناهم في المدينة، فقد كانت في الناحية الشمالية الغربية وفي حارات صغيرة نسبياً أهمها حارة النصارى، وأولاد قبطية، والإفرنج والتبانة وسكنها معهم المسلمون،[١٤١] كما سكن بعضهم مع المسلمين في محلتي شرف والريشة.[١٤٢]

وأما اليهود، فقد بيّن دفتر (T.D. ٤٢٧) أن وجودهم انحصر فقط في مدينة القدس دون غيرها من مناطق اللواء، وكان محل سكناهم في «محلة اليهود» أو كما كانت تُدعى أيضا «الحارة الوسطى أو «حارة اليهودية».

وعلى الرغم من أن عدد اليهود حسب ما ذكرناه سابقاً وبناءً على دفتر (T.D. ٤٢٧) كان يبلغ (١٩٩) خانة، ويبدو للوهلة الأولى أكبر من عدد المسيحيين في المدينة البالغ (١١٩) خانة، غير أن النصارى سكنوا أيضاً القرى المختلفة في اللواء كما فعل المسلمون، إذ سكن النصارى كلاً من بيت جالا (١٢٩) خانة، وطيبة الاسم النصارى (٩٨) خانة، وبيت لحم (٦٠) خانة، وتقوع (٥٥) خانة،[١٤٣] وغيرها من القرى لكن بنسبة أقل، الوضع الذي يؤكد على أن اليهود خلال تلك الفترة لم تزد نسبتهم عن (٨,٥٪) من مجمل سكان لواء القدس.

أما بالنسبة للعناصر السكانية المختلفة في المدينة، فيلاحظ إلى جانب العناصر

---

١٣٩ س: ١، ح: ٩٢١، ص: ٢٢٨، ت: ١٨شعبان ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٤/٦م].

١٤٠ س: ١، ح: ١٣٥، ص: ٣٥، ت: ١٧ ذو الحجة ٩٣٦هـ/ [١٥٣٠/٨/١١م]؛ ح: ٤١٢، ص: ١٠٨، ت: ١٠ رجب ٩٣٩هـ/ [١٥٣٣/٢/٥م].

١٤١ دفتر تحرير (T.D. ٤٢٧)، البخيت والسوارية، ص٥١.

١٤٢ س٤، ح٤، ص٣٠٨، ت: ١٣ صفر ٩٤١هـ/ [١٥٣٤/٨/٢٤].

١٤٣ دفتر تحرير (T.D. ٤٢٧)، البخيت والسوارية، ص٥٢-٥٣.

المحلية وجود عناصر أخرى غير المحلية منها الأروام (الأتراك)[١٤٤] والأكراد[١٤٥] وكذلك من المماليك الشراكسة أمثال «الشهابي أحمد بن قانصوه الشركسي»،[١٤٦] كما كانت توجد عناصر أخرى قادمة من المناطق العربية المحيطة من عجلون[(١٤٧)]، والكرك،[١٤٨] ومصر،[١٤٩] والشام،[١٥٠] وذلك بهدف الإقامة والعمل والاتجار فيها. أو عناصر أخرى قادمة إلى المدينة بهدف مجاورة الحرم القدسي، ومنهم من قدم من الداخل الفلسطيني كالرملة،[١٥١] وغزة،[١٥٢] أو من خارجها من المغرب،[١٥٣] وأنطاكية،[١٥٤] وحلب،[١٥٥] وطرابلس الشام،[١٥٦] والهند.[١٥٧]

أما العلاقات بين السكان، فقد كانت تتسم بالود وحسن الجوار بين المسلمين والنصارى حيث سكنوا معاً في حارات مشتركة كما أشرنا سابقاً، كما أن الدولة سنّت تشريعات تنظم العلاقة بين الطرفين.[١٥٨]

أما بالنسبة لليهود وعلاقاتهم مع أهل المدينة، فمن خلال الحجج الشرعية يتبين لنا أنه خلال فترة الدراسة كان يفرض على اليهود في منطقة بلاد الشام

---

١٤٤ س: ١، ح: ١٢٢٩، ص: ٣٠٥، ت: ١٨ شوال ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٦/٤م].

١٤٥ س: بلا، ح: بلا، ص: ٢٢، ت: ٢٤ شعبان ٩٣٥هـ/ [١٥٢٩/٥/٣م]؛ س: ١، ح: ٩٠، ص: ٢٤، ت: ٢٠ ذو القعدة ٩٣٦هـ/ [١٥٣٠/٧/٢٢م]؛

١٤٦ س: بلا، ح: بلا، ص: ١٩٩، ت: مستهل ربيع أول ٩٣٦هـ/ [١٥٢٩/١١/٣م].

١٤٧ س: ١، ح: ١١٥٥، ص: ٢٨٧-٢٨٨، ت: ٨ شوال ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٥/٢٥م].

١٤٨ س: ١، ح: ١١٢٥، ص: ٢٨٠، ت: ٢٩ رمضان ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٥/١٧م]؛ س: بلا، ح: بلا، ص: ٤٣، ت: ٤ جمادى الأول ٩٣٨هـ/ [١٥٣١/١٢/١٣م].

١٤٩ س: بلا، ح: بلا، ص: ١١، ت: ١٤ شعبان ٩٣٥هـ/ [١٥٢٩/٤/٢٣م]؛ س: ١، ح: ١٥٠، ص: ٣٨، ت: ٢٣ ذو الحجة ٩٣٦هـ/ [١٥٣٠/٨/١٧م].

١٥٠ س: بلا، ح: بلا، ص: ٣١، ت: آخر شعبان٩٣٥هـ/ [١٥٢٩/٥/٨م].

١٥١ س: ١، ح: ٤٧٦، ص: ١٢١، ت: بلا.

١٥٢ س: ١، ح: ١٠٣٧، ص: ٢٥٧، ت: ١٧ رمضان ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٥/٥م].

١٥٣ س٢، ح٤، ص٦١، ت: ٧ صفر ٩٣٦هـ/ [١٥٢٩/١٠/١٠م].

١٥٤ س: ١، ح: ٢٥٦، ص: ٦٨، ت: ١٨ صفر ٩٣٧هـ/ [١٥٣٠/١٠/١٠م].

١٥٥ س: ١، ح: ٩٦١، ص: ٢٣٩، ت: ٢٨ شعبان ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٤/١٦م].

١٥٦ س٣، ح١١١٧، ص٤٦٥، ت: غرة ذو القعدة ٩٥٢هـ/ [١٥٤٦/١/٤م].

١٥٧ س٢، ح٢٤٥، ص١٣٤، ت: ٢٥ ربيع أول ٩٣٧هـ/ [١٥٣٠/١١/١٦م].

١٥٨ اليعقوب، ناحية القدس الشريف، ج١، ص٥٠.

ومصر ارتداء «عمامة صفراء» لتميزهم عن باقي أفراد المجتمع العربي، وهو الوضع الذي كان يدفع البعض منهم إلى التظاهر باعتناق الإسلام لكي يخلعوا عنهم زِيّهم المميز، خصوصاً عند تنقلهم بين منطقة وأخرى، كي لا يتم التعرف إلى هويتهم حال اختلافهم عن غيرهم من أبناء الدولة، وعند عودتهم إلى حارتهم «حارة اليهود» في القدس كانوا يعودون إلى ارتداء تلك العمامة،[١٥٩] الأمر الذي يؤكد على عدم تقبلهم في النسيج الاجتماعي للبلاد.

ومن جانب آخر، يبدو أن الخلاف بين المسلمين واليهود في المدينة يرجع إلى ذلك التاريخ المبكر، نتيجة لما كان يتبعه اليهود في أداء شعائرهم في المدينة كرفع الأصوات في صلواتهم وبشكل مخالف للأوامر الصادرة إليهم، مما كان يثير استفزاز المسلمين ويدفعهم إلى تقديم شكوى بحق اليهود إلى قاضي القدس، كتلك التي قدمت بتاريخ ٢٨ ذو القعدة سنة ٩٤٥هـ[١٦٠]/[١٨/٤/١٥٣٩م].

أما على الصعيد الاقتصادي، فإن جميع المؤشرات العامة عن المدينة تبين أن القدس كانت مركزاً تجارياً نشطاً، وأن اقتصادها اتسم بالتنوع بين التجارة والصناعة والتنوع في أصناف الخدمات المتوفرة، حيث تشير قيود الحجج الشرعية إلى وجود العديد من الأسواق منها سوق القدس، الذي يبدو أنه كان سوقاً كبيراً وعاماً بباب العمود، لذا كان يطلق عليه اسم السوق[١٦١] دون ذكر اسمه وربما يقصد به سوق التجار،[١٦٢] وكذلك سوق الدخان، وسوق الفخر في محلة باب العمود،[١٦٣] وسوق القطن (في باب القطانين)،[١٦٤] وسوق الخُضر، وسوق العطارين،[١٦٥] وسوق [اللحامين]،[١٦٦] وسوق [الصاغة]،[١٦٧] وبناء عليه

---

١٥٩ س: ١، ح: ٩٠٨، ص: ٢٢٥، ت: ١٦شعبان ٩٣٧هـ/ [٤/٤/١٥٣١م].

١٦٠ اليعقوب، ناحية القدس الشريف، ج١، ص٥٢.

١٦١ س: ١، ح: ١١٦٨، ص: ٢٩١، ت: ١١ شوال ٩٣٧هـ/ [٢٨/٥/١٥٣١م]؛ ح: ١١٨٠، ص: ٢٩٣، ت: ١٢ شوال ٩٣٧هـ/ [٢٩/٥/١٥٣١م].

١٦٢ س : ١، ح: ١٠٢٨، ص: ٢٥٥، ت: ١٥ رمضان ٩٣٧هـ/ [٣/٥/١٥٣١م].

١٦٣ س : ١، ح: ٧٤٣، ص: ١٨٨، ت: ١٨ جمادى الأولى ٩٣٧هـ/ [٧/١/١٥٣١م].

١٦٤ س : ١، ح: ٨٩١، ص: ٢٢١، ت: ١٣ شعبان ٩٣٧هـ/ [١/٤/١٥٣١م].

١٦٥ س : ١، ح: ١٠٢٨، ص: ٢٥٥، ت: ١٥ رمضان ٩٣٧هـ/ [٣/٥/١٥٣١م].

١٦٦ س : ١، ح: ٨٦١، ص: ٢١٤، ت: ١٤ جمادى الأخر ٩٣٧هـ/ [٢/٢/١٥٣١م].

١٦٧ س : ١، ح: ٧٨٣، ص: ١٩٨، ت: ٢٩ جمادى الأولى ٩٣٧هـ/ [١٨/١/١٥٣١م].

فإن الحركة التجارية في هذه الأسواق كان لا بد أن تؤثر إيجاباً على الحياة الاقتصادية والاجتماعية بشكل عام في القدس، كما نجد أيضا أسماءً للعديد من المصابن في المدينة، منها مصبنة بقرب سوق الفخر،[١٦٨] وأخرى في حارة اليهود[١٦٩] حيث كانت تشتهر المدينة بصناعة الصابون نتيجة لوفرة إنتاج زيت الزيتون في منطقة اللواء، كما كانت توجد المطاحن لطحن الحبوب، والحمامات العامة التي كانت تؤدي دورا مهماً في الحياة الاجتماعية في القدس، حيث كان يوجد فيها حمامات خاصة بالرجال، وأخرى خاصة بالنساء يترددن عليه مقابل رسم معين،[١٧٠] وجميع هذه المرافق بحاجة لأيدي عاملة تقوم عليها، لذا تمكّنا من التعرف على أنواع مختلفة من المهن، والحرف التي كانت متداولة في تلك الحقبة، منها التاجر،[١٧١] والصبان،[١٧٢] والطحان،[١٧٣] والحلواني،[١٧٤] والصباغ،[١٧٥] والقطاني،[١٧٦] والمدوار[١٧٧] في الطواحين، والمعمار،[١٧٨] والصانع[١٧٩] في الحمامات، وبائعي اللحوم،[١٨٠] والصاغة[١٨١] وغيرها من الحرف، ولا نغفل عن ذكر الحرم القدسي الشريف وما كان يوفره من الوظائف الكثيرة لأبناء المدينة،

---

١٦٨ س : ١، ح: ٢٩، ص: ٦، ت: ٣ شوال ٩٣٦هـ/ [١٥٣٠/٥/٣٠م].

١٦٩ س : ١، ح: ٤٧، ص: ١١، ت: ١٧ جمادى الآخر ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٢/٥م].

١٧٠ س:١، ح:٢٥١، ص:٦٦، ت: ١٥ صفر ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٠/٧م].

١٧١ س:١، ح: ١٢٢، ص:٣٢، ت: ١٤ ذو الحجة ٩٣٦هـ/[١٥٣٠/٨/٨م].

١٧٢ س:١، ح: ٩٨١، ص:٢٤٣-٢٤٤، ت: ٤ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٤/٢٢م].

١٧٣ س:١، ح: ٧٢٥، ص:١٧٨، ت: ١٠ جمادى الأولى ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٢/٣٠م].

١٧٤ س:١، ح: ٣٨٣، ص:١٠٣، ت: ٧ رجب الفرد ٩٣٩هـ/[١٥٣٣/٢/٢م].

١٧٥ س:١، ح: ٩٧٦، ص:٢٤٢، ت: ٣ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٤/٢١م].

١٧٦ س:١، ح: ٨٠٩، ص:٢٠٣، ت: ٥ جمادى الآخر ٩٣٧هـ/[١٥٣١/١/٢٤م].

١٧٧ المدوار: هو من يقوم بمهمة إدارة الطاحونة يدوياً. س:١، ح: ٨٣٥، ص:٢٠٨، ت: ١٠ جمادى الآخر ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/١/٢٩م].

١٧٨ س:١، ح: ٥٨٤، ص:١٤٣ ، ت: بلا.

١٧٩ الصانع في الحمامات: أو كما كان يطلق عليه أيضا « البلان» وهو من يقوم على خدمة المستحم، مثل تدليك جسم المستحم وصبغ شعره، ويقول اليعقوب إنه من الملاحظ أن بعض من قاموا بهذا العمل كان من العبيد في القدس. اليعقوب، ناحية القدس الشريف، ج٢، ص٤٥٦؛ القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج١، ص١٠٨؛ س:١، ح: ٩٨١، ص:٢٤٣-٢٤٤ ، ت: ٤ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٤/٢٢م].

١٨٠ س:١، ح: ١١٨١، ص:٢٩٥، ت: ١٤ شوال ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٥/٣١م].

١٨١ س١، ح١٣٥٤، ص٤٢٧، ت: ٢٦ صفر ٩٣٨هـ/[١٥٣١/١٠/٧م].

مثل الخطباء[١٨٢] والأئمة، والمؤذنين،[١٨٣] وقراء القرآن الكريم،[١٨٤] والمؤقتين،[١٨٥] والفرّاشين والشعالين،[١٨٦] وغيرها من الوظائف.

وبالرغم من جميع ذلك، إلا أن هنالك العديد من المؤشرات على ضيق ما في أيدي العامة من المال، فمثلا يمكننا استخلاص المعلومات عن الملاءة المالية لأفراد ذلك المجتمع من خلال التركات، حيث نجد تركات القضاة (حكام الشرع) السابقين، ورجال الحكم، والموظفين، والتجار وكان يدعى الواحد منهم بالخواجا[١٨٧] أو الخواجكي مثلا، تشتمل على عبيد وجواري معتوقين،[١٨٨] وحصص كثيرة في أراض وغراس[١٨٩] بالإضافة إلى مقتنيات متنوعة كتركة أحدهم التي كانت تشتمل على ذهب وخمس بيت ودكان، وزوج أساور ذهب مبرومة، وزوج خلاخل فضة، ونحاس، وستة أذرع جوخ أحمر وفرو قيمة كل ذراع مبلغ فضة،[١٩٠] في حين نلحظ تركات كثير من العامة من الناس تبدو شحيحة جداً ولا تزيد عن بعض القطع من ملابس الأبدان، كما نلحظ ندرة ذكر مادة الذهب في التركات عموما[١٩١] مما يشير إلى ندرة امتلاكه بين الناس في القدس خلال تلك الفترة. أضف إلى ذلك ما ذكرناه سابقاً حول تشدد الدولة في تلك الفترة في تحديد أسعار المواد التموينية الرئيسية في القدس ومعاقبة كل من يخالف، وذلك بهدف تيسير اقتنائها من قبل الجميع وعدم حصرها فقط لدى الفئة المقتدرة من المجتمع.

ومما يلفت الأنظار في مجتمع القدس خلال فترة الدراسة، أن المرأة كان لها

---

١٨٢ س:١، ح: ٥٠٩، ص:١٢٨ ، ت: ١٦ ربيع الأول ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١١/٧م].

١٨٣ س١٧، ح٣٦، ص٥٥، ت: ٢٨ رجب ٩٥٢هـ/[١٥٤٥/١٠/٥م]

١٨٤ س:١، ح: ٩٤٤، ص:٢٣٣ ، ت: ٢٤ شعبان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٤/١٢م].

١٨٥ المؤقتون: المسئولون عن تحديد أوقات الصلاة في الحرم. س١٧، ح٩٧٧، ص٢٨٤، ت: ١٩ شعبان ٩٥٢هـ/ [١٥٤٥/١٠/٢٥م].

١٨٦ الشعالون: المسئولون عن إشعال القناديل والشموع في المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة وفي المتوضأ. اليعقوب، ناحية القدس الشريف، ج١، ص٢٥٢.

١٨٧ س:١، ح: ١١٢٧، ص:٢٨١، ت: ٢٩ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٥/١٧م].

١٨٨ س:١، ح: ٨٢٥، ص:٢٠٦، ت: ٩ شعبان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٣/٢٨م]؛ ح: ٩٣١، ص:٢٣١، ت: ٢٠شعبان ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٤/٨م].

١٨٩ س:١، ح: ٩٢٥، ص:٢٢٩، ت: بلا؛ ح: ٩٣١، ص:٢٣١، ت: ٢٠شعبان ٩٣٧هـ/ [١٥٣١/٤/٨م].

١٩٠ س٤، ح٣، ص٢٥، ت: بلا.

١٩١ س:١، ح: ٦٥١، ص:١٦٠، ت: أوائل ربيع الأول ٩٣٧هـ/[١٥٣١/١٠م].

دور متميز في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، حيث كانت تملك العقارات من حوانيت ودور وحصص في غراس أشجار،[١٩٢] وكانت تقوم بنفسها بإجراء عقود التأجير في المحكمة الشرعية للعقارات الموقوفة عليها في القدس،[١٩٣] أو تأجير حصتها في عقار تملكه،[١٩٤] أو بيع ما تملكه من الغراس،[١٩٥] كما كانت تنشئ الأوقاف،[١٩٦] وكان القاضي يوافق على كفالة المرأة في المال والذمة.[١٩٧]

ونتيجة لتملك المرأة المقدسية خلال تلك الفترة ووفرة المال بيدها، نلحظ كثرة عقود الزواج لمن سبق لها الزواج، وقد توفي عنها زوجها أو خلعها من عصمته، في حين تقل نسبة الزواج من البنات البكر، علماً أنه كان مجازاً عقد زواج البنات القاصرات،[١٩٨] أما البنت البكر البالغ فكثيراً ما كان القاضي يعقد زواجها بموجب اعترافها بالبلوغ وتصديق والدها على ذلك.[١٩٩]

ومع مرور الزمن أصبح عقد الزواج يتضمن بالإضافة إلى ذكر حقوق المرأة من قيمة معجل ومؤجل الصداق، إلى تكفل الزوج بقدر معين من الكسوة للزوجة[٢٠٠] في كل عام، في حين لم يكن يرد هذا الالتزام من الزوج في عقود الزواج المبكرة.

ونخلص في جميع ما ذكرناه، إلى رفعة مستوى القضاء والقضاة في القدس خلال فترة الدراسة، كما أن تميز المجتمع المدني لمدينة القدس بالكثافة السكانية وتعدد أنواع عناصرها وطوائفها طبقا لمعايير ذلك الزمن، وأيضا لتنوع العلاقات التجارية والاقتصادية التي كانت تمتاز بها، فإن جميع تلك العوامل تجعلها عرضة لقدر اكبر من المشاكل التي قد تنشأ نتيجة لتلك العلاقات، وهنا يتأكد لنا الدور الهام الذي لعبه القضاء في القدس خلال فترة الدراسة.

---

١٩٢ س:١، ح: ٧٠٦، ص:١٧٣، ت: مستهل جمادى الأولى ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٢/٢١م].

١٩٣ س:١، ح: ١٥٧، ص:٤١، ت: ٢٩ ذو الحجة ٩٣٦هـ/[١٥٣٠/٨/٢٣م].

١٩٤ س:١، ح: ٧٣٥، ص:١٨٥، ت: ١٧ جمادى الأولى ٩٣٧هـ/[١٥٣١/١/٦م].

١٩٥ س:١، ح: ٦٥١، ص:١٦٠ ، ت: أوائل ربيع الأول ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٠م].

١٩٦ س:١، ح: ٢٦٧، ص:٧١، ت: ٢٠ صفر ٩٣٧هـ/[١٥٣٠/١٠/١٢م].

١٩٧ س:١، ح: ١٠٦٠، ص: ٢٦٤، ت: ١٩ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٥/٧م].

١٩٨ س:١، ح: ٢١، ص: ٥، ت: منتهى شوال ٩٣٦هـ/[١٥٣٠/٦/٢٦م].

١٩٩ س:١، ح: ٨٦٩، ص: ٢١٦، ت: ١٥ جمادى الآخر ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٢/٣م].

٢٠٠ س:١، ح: ١٠٠٣، ص: ٢٤٩، ت: ١٠ رمضان ٩٣٧هـ/[١٥٣١/٤/٢٨م].

المصادر

أولا: المصادر الأساسية

- **سجلات محكمة القدس الشرعية** المصورة على ميكروفيلم ومحفوظة لدى مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.

السجلات ذات الأرقام: بلا، ١، ٢، ٣، ٤، ١٢، ١٤، ١٥، ١٧، ٣١ و ٤٧.

- **لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد والغزة [غزة] والقدس الشريف من دفتر تحرير** (T.D.٤٢٧)، تاريخ (٩٣٢هـ/١٥٢٥-١٥٢٦م-٩٣٤هـ/١٥٢٧-١٥٢٨م)، دراسة وترجمة محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي- لندن و عمان، ١٤٢٦هـ /٢٠٠٥م.٣

- **لواء القدس من دفتر لواء القدس الشريف من دفتر تحرير** (T.D.١٠١٥)، تاريخ (٩٤٥هـ/١٥٣٨-١٥٣٩م)، دراسة وترجمة محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي- لندن و عمان، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

ثانيا: المصادر الثانوية

- إبراهيم حنفي، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحلبي(ت: ٩٥٦هـ/١٥٤٩م)، **ملتقى الأبحر**، منشورات در سعادت، الأستانة، ١٩٠٥م.

- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، (ت: ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، ١٢ج، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م.

- السرخسي، محمد بن احمد بن أبي بكر (ت: ٤٩٠هـ/١٠٩٧م)، **المبسوط**، ٣٠ ج، ط٢، دار المعرفة، بيروت(د.ت).

- العليمي العمري، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٢٧هـ/١٥٢١م)، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ٢ج، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٣.

- فاضل بيات، **بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في الدفاتر المهمة**، اعداد وترجمة، ٣ج، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠٠٥، ٣ج، ج١، (٩٥١هـ/١٥٤٤م- ٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م).

- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت: ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م)، **تفسير ابن كثير**، القرآن الكريم ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٠.

- الماوردي، أبو الحسن علي ابن محمد بن حبيب(ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، محي الهلال السرحان (محقق)، **أدب القاضي**، ٢ج، سلسلة إحياء التراث الإسلامي، بغداد، ١٩٧١م،

- محمد سعيد القاسمي (ت: ١٣١٧هـ/١٩٠٠م)، جمال الدين القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، وخليل بن مصطفى العظم (ت: ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م)، **قاموس الصناعات الشامية**،٢ج في ١م، حققه وقدم له ظافر القاسمي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٨م.

- منلا حنفي محمد (ت: ٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، **درر الحكام في شرح غرر الأحكام**، ٢ج، منشورات دار الطباعة العامة، الأستانة، ١٨٨٦م.

المراجع العربية

أكمل الدين إحسان أوغلي (إشراف)، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة** (مجلدان)، نقله إلى العربية صالح سعداوي، منشورات منظمة المؤتمر الإسلامي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، استانبول، ١٩٩٩م.

أورهان صادق جانبولات، **قوانين الدولة العثمانية وصلتها بالمذهب الحنفي**، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف عارف خليل أبو عيد، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٩م.

خليل ساحلي أوغلي، **من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني**، منشورات منظمة المؤتمر الإسلامي- مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الإسلامية (إرسيكا) ، إستانبول، ٢٠٠٠م.

زياد عبد العزيز المدني، **مدينة القدس وجوارها في أواخر العهد العثماني** (١٢٤٦-١٣٣٦هـ/١٨٣١-١٩١٨م)، ط١، عمان، ٢٠٠٤م.

عارف العارف (ت: ١٩٧٣م)، **المفصل في تاريخ القدس**، ط١، القدس، ١٩٦٠م.

المسيحية في القدس، مطبعة دير الروم الأرثوذكس، القدس، ١٩٥١م.

عبد الكريم رافق، **العرب والعثمانيون (١٥١٦-١٩١٦)**، ط١، دمشق، ١٩٧٤م.

عبلة المهتدي، **القدس تاريخ وحضارة (٣٠٠٠ ق.م-١٩١٧م)**، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٠م.

محمد أحمد سليم اليعقوب، **ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**، ٢ج، الناشر البنك الأهلي الأردني، عمان، ١٩٩٩م.

محمد سراج، **الفقه الإسلامي بين النظرية والتطبيق**، الإسكندرية، ١٩٩١م.

المراجع الأجنبية

Amnon Cohen & Bernard Lewis, *Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century*, Princeton University Press: Princeton, NJ, 1978.

Halil İnalcık, *The Ottoman Empire in The Classical Age, 1300-1600*, London, 1973.

Muhammad Adnan Bakhit, *The Ottoman Province of Damascus in the Sixteenth Century*, Librairie du Liban, Beirut, 1982.

النهضة العمرانية في بلاد الشام أواخر العهد العثماني: القدس وحلب نموذجا

أ. د. عمر الدقاق*

حلب والقدس مدينتان عربيتان إسلاميتان شقيقتان، وقد جمعتهما منذ القدم أواصر جمة، دينية وقومية وثقافية وعمرانية. وكان أن انعكس تلاحمهما جلياً في نفوس الأجيال وعبر التاريخ. ويتبدى ذلك في قول شيخ المعرة قبل نحو ألف من السنين:

يا شاكي النوب انهض طالباً حلباً نهوض مضنى، لحسم الداء ملتمس
واخلع حذاءك إن حاذيتها ورعاً كفعل موسى كليم الله في القدس

إن حلب والقدس على تباعدهما في المكان هما توأمان في القلب، وما يجمع المدينتين ويقارب بينهما أكبر بكثير مما يفرقهما ويباعد بينهما. ومع ذلك سوف ينصب معظم كلامي على مدينة حلب التي تتجلى فيها معالم النهضة العمرانية في العهد العثماني على نحو أوضح وأصرح. ثمة مقولة مفادها أننا إذا أردنا أن نرى الشيء على حقيقته علينا أن نبتعد عنه قليلا ...، وأيضا إذا أردنا أن نتبين حقيقة موقعنا في الحاضر علينا أن نلتفت قليلا إلى الماضي.

وعلى ذلك أقول: لقد طغت أهواء السياسة المتضاربة على الشرق العربي الإسلامي في تلك الحقبة الأخيرة من تاريخنا الحديث، ووصلت الأمور إلى مدى تشويه الوقائع وطمس الحقائق، واستفحلت أحوال المسلمين بين قطر وقطر، بل بين فئة وفئة.

في ذلك الحين كان الشيخ محمد عبده ومعه جمهور كبير من العالم الإسلامي يردد مقولته في جريدته «العروة الوثقى» (إن المحافظة على الدولة العلية العثمانية

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية. حلب – سوريا

هي ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله وبمحمد رسول الله).

وكان أن وقع ذلك الشرخ الكبير في ديار العرب والمسلمين حين وقفت في الطرف المقابل جموع الناس في بلاد الحجاز والشام والعراق، وحملت السلاح ضد الدولة العثمانية، معلنة ثورتها العربية الكبرى إبان الحرب العالمية الأولى.

وقد انجلت تلك الأحداث الجائحة عن خيبة مريرة وصدمة أليمة في نفوس الجيل، بعد ان تبين للجميع، مع كل الأسف والأسى أن ما كان يتراءى لهم ماءً زلالاً لم يكن في حقيقة الأمر إلا سراباً خادعاً. ووقعت القدس وما حولها في أيدي البريطانيين ووقعت دمشق وحلب وسائر مدن الشام في أيدي الفرنسيين. والآن، وبعد ان قرّت المنازع وهدأت الخواطر واتضحت الرؤى، يغدو لزاماً على الباحث المعاصر أن يعيد النظر في كثير من المقولات التاريخية السائدة، وان يمتلك رؤية موضوعية منصفة، تعيد الاعتبار لفترة مترجرجة من حياة أمتنا المعاصرة ... إذ ليس في واقع الحياة بياض مطلق ولا سواد مطلق.

بالأمس القريب تألقت مدينة حلب عاصمة للثقافة الإسلامية، واليوم تتألق القدس عاصمة للثقافة العربية. إنهما معا العاصمتان التاريخيتان للعروبة والاسلام.

منذ أن دخلت بلاد الشام في حوزة الاسلام بعزيمة الخليفة عمر بن الخطاب وقادته الصحابيين العظام خالد بن الوليد وأبو عبيدة الجراح وعياض بن غنم، تم وضع أسس حضارية مباركة تجلت في مدن القدس ودمشق وحلب. وقد تعاقبت دول المسلمين وملوكهم على حكم البلاد عبر العصور إلى أن تمكن العثمانيون من السيطرة على الأقطار الشامية في ضحى القرن السادس عشر، واتخذوا مدينة استامبول عاصمة للسلاطين المسلمين للمرة للمرة الأولى بعد المدينة المنورة ودمشق وبغداد.

من قبل، وفي السنة السابعة عشرة للهجرة دخل القائد العربي عياض بن غنم مدينة حلب بعد أن انتدبه أبو عبيدة الجراح للمضي نحو شمال بلاد الشام. وقد أعطى أهلها الأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم وقلعتهم. وتقع حلب في أقصى الشمال من بلاد الشام، وهي واسطة العقد في طريق الحرير بين بلاد الشرق وأوربا. وتبعد عن الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط مئة كيلومتر، وعن نهر الفرات شرقا نحو ٩٠ كم. وترتفع ٣٧٠م عن

سطح البحر، وتبلغ مساحتها عشرة آلاف كم.[١]

لقد دخل الفاتحون المسلمون مدينة حلب من باب انطاكية، وفي ذلك المكان بنوا مسجدا هو الأول في المدينة حين تم لهم فتحها واسمه مسجد الغضائري ويعرف بمسجد شعيب. ومنذ ذلك الحين من الفتح الإسلامي تعاقبت على حلب وسائر بلاد الشام عهود ودول بدءا من عصر الخلفاء الراشدين ثم الأمويين فالعباسيين فالزنكيين فالأيوبيين فالمماليك، وأخيرا العثمانيين، الذين حكموا بلاد الشام منذ سنة ١٥١٦م إلى سنة ١٩١٨م.

وإذ ذاك يبدأ عهد جديد دأب فيه العثمانيون على إغناء البلاد بإنشاء المرافق الحيوية وإعمار المساجد وبناء المشافي والمدارس وسائر دور العلم والإدارة، ولا سيما بعد ظهور المعمار سنان التركي نابغة الهندسة المعمارية في ذلك الوقت المبكر من حياة الدولة العثمانية. وكان أن تألقت في حياة بلاد الشام نهضة عمرانية متنامية ذات خصوصية متميزة، ومنذ ذلك الحين دخلت حلب في طور ازدهار غير معهود على الصعيد الاقتصادي والعمراني، وغدت ثالثة مدن الدولة العثمانية.

ويغلب على القدس وحلب منذ القدم نسيج عمراني متشابه مازال ملموساً بين الأحياء القديمة للمدينتين وأسوارهما المنيعة وأبوابهما الحصينة، وكذلك الحارات المبلطة فيها والصاعدة أحيانا، مثل حي العقبة بحلب ونحو ذلك.

وقد ازداد التلاحم بين هاتين المدينتين حلب والقدس عبر التاريخ حين اجتاح الصليبيون بلاد المشرق الإسلامي واحتلوا الرها وانطاكية وما بعدهما حتى وصلوا إلى القدس سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩م واستباحوها وفتكوا بأهلها وعاثوا فسادا بالمسجد الأقصى وأحرقوا منبره ومحرابه. وفي إثر ذلك تنادى أهل حلب إلى صنع منبر جديد نفيس مرصع بالصدف والعاج كي يرسل إلى القدس عند استردادها من أيدي الصليبيين، ليوضع في مكانه بالمسجد الأقصى. وبعد أن أتم الحلبيون صنع المنبر على خير ما يرام سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م وضعوه في الجامع الأموي الكبير إلى أن يحين يوم التحرير المنشود. وهذا ما كان بعد حين في إثر انتصار صلاح الدين يوم حطين واستعادته بيت المقدس في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م. وحينئذ أرسل صلاح الدين إلى ابنه في حلب الملك الظاهر غازي يستعجله في

---

١ حلب بين التاريخ والهندسة، محمود فيصل الرفاعي، منشورات معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب ١٩٩٦م، ص ٦-٨.

أن يوافيه بالمنبر المنتظر. وقد تم ذلك بالقدس في يوم مشهود.

واليوم تنعم حلب بالعديد من الصروح العمرانية الماثلة، والمنشآت الحضارية المهمة التي تنتشر في رحاب هذه المدينة التاريخية العريقة والتي تزدهي بمساجدها العامرة وقبابها الرحيبة ومآذنها الرشيقة، فضلا عن خاناتها وأسواقها ومدارسها وحماماتها ..، ومن أبرز تلك الصروح والمنشآت جامع العثمانية والبهرامية والمولوية ومدرسة العادلية والخسروية ثم المكتب السلطاني والمدرسة الرشدية والمستشفى الوطني والسراي القديمة ومبنى أبي الهدى الصيادي، وساعة باب الفرج ومنتزه السبيل ومحطة سكة حديد بغداد .... أما المساجد فقد تكاثرت في حلب على مر العصور وتعاقب الحكام حتى بلغت اليوم ٤٦١ مسجداً[٢] موزعة في كل أحياء المدينة وحاراتها.

المساجد والمدارس

كان أول صرح معماري ديني عرفته حلب في بدايات العهد العثماني هو (مسجد الخسروية) وذلك بأمر واليها خسرو باشا في عهد السلطان سليمان القانوني(١٥٢٠-١٥٦٦م). وصممه المهندس سنان. فقد بني على الطراز العثماني القديم، وذلك في سنة ٩٥١ هـ/١٥٤٤م.

وتبدى أهمية الخسروية هذا المسجد العثماني العريق في أنه مالبث أن انقلب إلى مدرسة بل مدرسة داخلية أيضاً بتوابعها وسائر مرافقها. وبذلك تعد الخسروية منشأة دينية تربوية رائدة. كما انها إنجاز مهم في مجال الهندسة المعمارية الإسلامية، عندما أصبحت مدرسة رائدة فضلاً عن كونها مسجداً منذ ذلك الحين المبكر، وعلى مر القرون الاربعة العثمانية التالية وغدت النموذج العثماني المفضل والمحتذى لفن العمارة الإسلامية في حلب. وقد تم تجديد الخسروية فيما بعد من قبل ولاة حلب، وكسي محرابه وعلى جانبيه بالبورسلين والموزاييك وسوى ذلك من التحديث مما لم يكن معروفا قبل ذلك الحين.[٣]

٢ الهندسة الإنشائية في مساجد حلب، نجوى عثمان. معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب ١٩٩٢م.

٣ الهندسة الانشائية في مساجد حلب، معهد التراث – جامعة حلب ١٩٩٢م.

وما زالت مدرسة الخسروية منذ عهد منشئها خسرو باشا تمارس مهامها الدينية والتعليمية دون توقف حتى أيامنا هذه، حيث تولى التدريس فيها علماء أجلاء، منهم الشيخ أحمد الزرقا والمؤرخ الشيخ راغب الطباخ. كما تخرج فيها نخبة من أعلام المدينة مثل الشيخ محمد الحكيم مفتي حلب ومعروف الدواليبي الحقوقي البارز والسياسي السابق ومحمد يحيى الكيالي مدير أوقاف حلب ومصطفى الزرقا الأستاذ الجامعي والفقيه العالم ... وغير هؤلاء من رجال الدين والإدارة والسياسة في سوريا.[٤] حتى لقب جامع الخسروية ومدرسته بأزهر حلب.

وأهم المنشآت الدينية التالية وفق النموذج العثماني بعد ذلك جامع ومدرسة العادلية وجامع البهرامية وجامع ومدرسة العثمانية. فقد تطورت هذه المساجد — المدارس بعد الخسروية وأصبحت تمتاز بوجود إيوانات داخل القبلية ترتفع قليلا عن أرض القبلية، وقد أضيفت بقصد التعبد أيضاً.

وفي عهد السلطان سليمان القانوني أيضاً أمر محمد باشا بن دوقه كين بإنشاء (جامع العادلية)، وتم بناؤه سنة٩٥٩ هـ/١٥٥٥م. وبعد سنوات أيضاً أنشأ والي حلب بهرام باشا مسجد (البهرامية) سنة ٩٩٠هـ/١٥٨٢م وذلك في حي الجلوم الكبرى. وبعد ذلك تم تحديثه وصار أول مسجد تجر إليه المياه الساخنة للوضوء.

وعلى هذا الغرار توالى خارج الأسوار توسع بناء المساجد في ذلك الحين من القرن السابع عشر من مثل جامع أبشير باشا (الصوف) وذلك في حي الجديدة سنة ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م.

ثم شهد القرن الثامن عشر تطورا ملحوظا في حلب على الصعيد العمراني كان من أبرز ملامحه بناء جامع العثمانية أو المدرسة العثمانية سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م باسم بانيه عثمان بن عبد الرحمن باشا والي حلب يومئذ. ومدرسة العثمانية تعد من أشهر معالم حلب العمرانية إلى الآن، وقد انشئت في الأصل لتدريس الطلاب وفق مستوى أعلى ثانوي على أيدي نخبة من المدرسين العلماء. وقد ضُممت هذه المنشأة التعليمية المتطورة لتكون أيضاً مدرسة داخلية[٥] تضم أربعين غرفة لإقامة المدرسين وطالبي العلم ومبيتهم فضلا عن مسكن للإمام والمؤذن.. وتتشكل العثمانية أيضاً من ثلاثة أروقة طويلة تمتد من الجنوب إلى الشمال،

---

٤ كتاب خواطر وذكريات أسعد كوراني، دار الريس، بيروت ٢٠٠٠م ، ص ٨-٩.

٥ حلب، عمارة المدينة القديمة محمود زين العابدين، حلب ٢٠٠٦م، ص ٤٤-٤٦.

تعلوها ١٣ قبة محمولة على ١٣ عموداً، وأيضاً ١١ قبة محمولة على ١١ عمودا في الرواق الغربي. والرواق الشرقي تعلوه ١٧ قبة محمولة علي ١٥ عموداً. أما القبلية فهي مربعة الشكل. ومئذنة العثمانية ترتفع بمقدار ٣٠ متراً[٦] وهي ذات رأس مخروطي معهود في الطراز العثماني السائد. وبالنظر إلى الأهمية المعمارية لهذه المدرسة العثمانية في حلب فقد أولاها عدد من الدراسين الأكاديميين عنايتهم ووجدوا فيها نموذجا رفيعاً لنضج المدرسة المعمارية العثمانية.[٧] ومن مزايا هذه المدرسة قبتها الرحيبة في شكل نصف كرة تتوضع في جنباتها ست عشرة نافذة، تدعمها ٨ دعامات موزعة على زوايا الجهات الأربع.

وكان أن بلغ النشاط العمراني أوجه في القرن التاسع عشر، وذلك على كل صعيد في مدينة حلب. وفي صدد المساجد والجوامع السالفة نشطت جهود الدولة في ترميم ما اهترأ بنيانه بفعل تقادم الزمان أو ما تهدم بعضه من قباب ومآذن بفعل الزلازل، كما تم توسيع ما اقتضاه التزايد السكاني وامتداد أنحاء المدينة، وقد شمل ذلك التجديد مساجد أرطولو وحج موسى وأبو الدرجين والحموي والبلاط الفوقاني والجلبي والأبراج وخان الجمرك والأعجام والبصمجي والأربعين وعشرات كثيرة من أمثال هذه المدارس التي أحصاها ووثقها الباحثون المعاصرون.[٨]

أما المساجد التي تم بناؤها في ذلك القرن التاسع عشر المواكب لزمن الوجود العثماني في حلب وسائر بلاد الشام فهي كثيرة تبعا لازدهار المدينة المطرد وتناميها السكاني والاقتصادي. وكان طبيعياً أن يقام معظم هذه المنشآت في خارج الأسوار فضلا عن داخلها. ومن مساجد هذه الفترة المتأخرة من ذلك العصر جامع المولوية (الملخانة) في منطقة باب الفرج الذي تم تشييده ثم تجديده سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م. والمساجد التالية بعد ذلك والتي يمكن أن تعد حديثة، أنشئ معظمها في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م) مثل جامع زكي باشا في حي الاسماعيلية وقد بني سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م، ثم استحدث فيه المنبر سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م.

٦ حلب، عمارة المدينة القديمة، محمود زين العابدين، ص ٤٧.

٧ أسهبت المهندسة نجوى عثمان بدراساتها العديدة في هذا الصدد وكذلك المهندس محمود زين العابدين في مؤلفات مماثلة.

٨ أسهبت المهندسة نجوى عثمان بدراساتها العديدة في هذا الصدد وكذلك المهندس محمود زين العابدين في مؤلفات مماثلة.

الأسواق والخانات

في جملة ما تمتاز به مدينة حلب القديمة أسواقها المميزة وخاناتها المشهورة التي تنبئ عن مدى ما بلغته المدينة من تقدم عمراني وازدهار اقتصادي. وكثير من هذه الخانات يرجع إلى أزمنة سالفة من عهود الأيوبيين والمماليك. لقد عرفت حلب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نموا مطردا في مجال السكان والعمران والتجارة كان أبرز مظاهره ازدياد أهمية الأسواق والخانات في الوسط الصناعي والمهني والتجاري، وحركة تبادل السلع بين أواسط المدينة وأريافها. غير أن الحركة التجارية بلغت أوج ازدهارها بين حلب وسائر المدن في شرق البلاد مثل العراق ومصر وايران والهند، وفي غربها مثل اليونان وايطاليا وهولندا وبريطانيا.... فعلى حين كانت مساحة هذه الأسواق والخانات ونحوها من المنشآت والمتاجر في بدايات القرن السادس عشر مما يعرف باسم (المدينة) لا يتعدى خمسة هكتارات، أصبحت في القرنين التاليين أكثر من عشرة هكتارات،[٩] أي أن مساحة الوسط التجاري أصبحت بعدئذ مضاعفة. كما تكاثرت الأسواق واستطالت إلى أبعد مدى، ويعود ذلك إلى مبادرات حميدة من بعض ولاة حلب وما تم من تعاون بينهم وبين العديدين من باشوات المدينة وأغنيائها، ولاسيما غنى صندوق مؤسسة الأوقاف وتكاثر الوقفيات، ومن ثم وفرة الإنفاق على مجمل الحركة الاقتصادية والعمرانية. وكان نصيب خان الجمرك الرحيب الذي أنشأه والي حلب ابراهيم زاده سنة ٩٨٢ هـ/١٥٧٤م وافرا في هذا المجال، وأصبح من أغنى الأسواق والمتاجر. كما امتازت هذه الخانات والأسواق بالتخصص على صعيد تبادل المنتجات والمصنوعات ومختلف السلع، مثل أسواق الصاغة والحبال والصابون والعطارين والجوخ والعبي... ويقارب هذا الخان في أهميته خان الوزير الذي يمتاز بخصوصيته العمرانية أيضاً، وخاصة واجهته الخارجية فضلا عن واجهته الداخلية. وقد تم بناؤه – كما يذكر الغزي في تاريخه – سنة ١٠٩٣هـ/ ١٦٨١م وفي عهد والي حلب مصطفى باشا قره حسين الذي كان مقربا للسلطان وحاظيا بثقته. وقد خصص لخان الوزير هذا وقف غني أيضا. وهو اليوم يملأ العين في أسفل سفح قلعة حلب بواجهته المتميزة الجميلة التي تتناوب عليها الأحجار السود والبيض، وبتيجانه المخرمة ونقوشه البديعة على نحو معجب.

---

٩ حلب عمارة المدينة القديمة، محمود زين العابدين، ص ٤٨–٤٩.

والذي يعنينا ضمن الحيز المتاح لنا هو الجانب العمراني لهذه الخانات. إنها بالاجمال ذات باحة واسعة مربعة الشكل. ومبنى الخان عادة مؤلف من طابقين، أرضي وعلوي، حيث يضم الأول مكاتب التجار والعاملين معهم وأماكن جانبيه لتخزين البضائع الصادرة والواردة، وكذلك مواقع في الأطراف للقوافل الذاهبة الآيبةمن بغال وجمال ... على حين يختص الطابق العلوي المطل على الساحة بغرف النزلاء ومقرات لبعض الصناعات الجلدية والخشبية والنسيجية... وفي ركن الخان بالاجمال يقوم مسجد صغير عثماني الطابع. ويتصدر الخان أو واجهته باب ضخم عال من الخشب الصلد يتيح للقوافل العابرة من جمال ونحوها الدخول والخروج من خلال مصراعيه الكبيرين اللذين يغلقان عادة بعد الغروب حتى الصباح حماية للبضائع المختزنة. وفي أسفل الباب الضخم باب صغير يسمى (الخوخة) يتيح لصاحب الشأن الولوج منه إلى الداخل بعد قرع السقاطة في حالات خاصة. ومن خانات حلب بالإضافة إلى خان الجمرك وخان الوزير يمكننا ان نذكر خان الصابون وخان استامبول وخان الشونة وخان النحاسين وخان البنادقة وخان العلبية وخان الحرير... ومعظم هذه الخانات بنيت تباعا في ولاية حلب خلال الحكم العثماني.

ومجمل القول إن هذه الخانات التجارية إنما كانت في الوقت نفسه فنادق لقاصدي المدينة من رجال الأعمال الغرباء والأجانب. كما أنها كانت أيضاً مقرات للعديد من القنصليات الأجنبية المعتمدة في حلب. وأن أسواق المدينة المسقوفة في معظمها والتي يبلغ طولها ١٤ كم متصلة متلاحمة وتتوالى بانتظام على حسب اختصاصها وأنواع سلعها، وهي تبدو أشبه بـ (مول) عصري بالغ الكبر.

المدارس العصرية

في بداية العهد العثماني كانت ولاية حلب وسائر ولايات الشام تعيش في حالة ركود وانحطاط. والتعليم الديني كان متخلفاً يقتصر على الكتاتيب (شيخ، خوجة) بالمساجد والزوايا المتناثرة في حارات المدينة، حيث يجتر الأولاد معارف محدودة مكرورة تنحصر في تلاوات رتيبة لسور القرآن. ولم تكن هناك منشآت تعليمية أو مدارس ذات شأن، إلى أن بنيت مدارس الخسروية والعادلية والعثمانية والأحمدية.

والشعبانية.... وبقي التعليم مع ذلك هابطا والأمية فاشية. وحينئذ وفي عصر متأخر بادر الوالي اسماعيل باشا إلى دراسة الأوضاع التعليمية المتردية وكتب تقريراً مفصلاً رفعه إلى الباب العالي سنة ١٨٥٥م، ثم كان من نتيجة ذلك أن أصدر السلطان عبد الحميد الثاني قانون إصلاح التعليم في الدولة العثمانية، تضمن إشراف الحكومة على عملية التعليم. كما عمدت الدولة إلى انشاء معاهد متقدمة لتعليم الفتيان (تعليم ثانوي) وعرفت باسم «المكاتب الرشدية»، وذلك وفق الأنظمة والمناهج الحديثة. وبني لهذا الهدف ما سمي بالمدارس الرشدية في مدن حلب ودمشق والقدس، بحيث يتم التدريس فيها بالتركية والعربية. وكانت جهود جميل باشا والي حلب سنة ١٨٧٩م مثمرة في تأسيس مدارس ابتدائية ورشدية. وأعقب ذلك إنشاء مدرسة « شمس المعارف» و «المدرسة الشرقية» بمساعي الوالي رشيد طليع الذي عهد بإدارتها إلى ناظم قطر آغاسي الذي درس الحقوق في جامعة استامبول. وكان من أساتذتها مصطفى اللبابيدي والشيخ محمد بيانوني والشيخ حامد هلال. وفي هذه المدرسة تخرج العديد من أعلام حلب ومنهم ناظم القدسي رئيس الجمهورية فيما بعد ومعروف الدواليبي وزير الدفاع ثم أحمد الأشرفي وعبد الودود كيالي ... وبعضهم تابع تحصيله الجامعي في استامبول وألمانيا ... وقد تظاهر طلاب هذه المدرسة بعد ذلك ضد تهديد فرنسا باحتلال البلاد. وتوالى حينئذ انشاء المدارس في أحياء الفرافرة وباب النصر والبياضة مثل الهاشمية والمنصورية والحمدانية و الرحيمية، ثم العرفان والفيوضات.

ومن أشهر هذه المنشآت التعليمية الرسمية المكتب السلطاني، أو التجهيز سنة ١٨٩٢، ومكتب الصنائع سنة ١٩٠١م ثم دار المعلمات سنة ١٩١٥م والميتم الإسلامي سنة ١٩١٧م ...إلخ.

والمدرسة الأشهر في حلب على الاطلاق هي (سلطان مكتبي) أي المكتب السلطاني وفق ما هو منقوش مع الطرة فوق الباب الداخلي. وقد تم بناؤها في حي الجميلية سنة ١٨٩٢م. وتعد صرحاً عمرانياً متميزاً لا مثيل لروعته الهندسية في الولايات العثمانية عدا استامبول. وقد أحدث فيها قسم داخلي لمبيت الطلاب الوافدين من ريف المدينة، ثم أسست فيها مكتبة قيمة سنة ١٩١٩م. وفي سنة ١٩٢٠م حملت اسم مدرسة التجهيز بحلب ثم التجهيز الأولى سنة ١٩٤٢م، وأخيراً ثانوية المأمون سنة ١٩٤٧م.

وتعد مدرسة التجهيز العريقة (ثانوية المأمون) الوجه المشرق التعليمي والتربوي والنضالي في حياة حلب وسائر ربوع بلاد الشام. إنها منارة الوعي وكعبة العلم التي انبثقت منها أجيال مستنيرة وأعلام نبهاء متميزون دأبوا على رفع شأن أمتهم العربية والنهوض بوطنهم إلى مراقي العزة والتقدم. وبسبب تردي حالة المبنى وإهماله خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين ونتيجة لما ألحقه بها من أذى بعض العابثين من الطلاب بادر أحد رجال الأعمال الأوفياء، وهو طالب سابق إلى ترميمه وتجديده وتحديثه على نفقته خلال الأعوام ٢٠٠٧-٢٠٠٩. وقد بعث ذلك الصرح العريق اليوم متألقاً وكأنه في ريعان شبابه.

منشآت ومرافق ومعالم

عديدة هي المرافق والمنشآت التي بناها العثمانيون في جنبات حلب أيضاً في مطلع القرن العشرين والسنوات التي تلته، ومنها المدرسة الرشدية العسكرية، وثكنة الترك (ابراهيم هنانو) المطلة على حي أقيول شرقي حلب، وثكنة الألمان (طارق بن زياد) المشرفة على حي السبيل شمالي المدينة. فقد شهدت حلب نشاطاً عمرانيا مكثفاً كان من أبرزه شق طريق حيوي طويل في محاذاة الأسوار وذلك في سنة ١٨٩١م واشتهر باسم جادة الخندق وسماه أهل حلب درب العربية. وقد امتد من أمام باب الحديد متجها صوب حي الجبيلة على مقربة من السراي القديمة، ماراً بجانب باب النصر، حتى وصل إلى ساحة باب الفرج حيث توقف عند قبر السهروردي. ثم جددته البلدية سنة ١٩٠٦م ورصفته بأحجار بازلتية سوداء. وفيما بعد مدت البلدية شارع الخندق إلى الغرب وبذلك صار الشارع الرئيسي الذي تسلكه العربات المختلفة وفي جملتها حافلات الترام الكهربائية وذلك في فترة الانتداب الفرنسي في عشرينيات القرن العشرين.[١٠]

في هذه الفترة أيضاً وبعد مرور بضع سنوات على شق طريق الخندق وتشييد المكتب السلطاني (التجهيز – المأمون) سعدت حلب بتشييد برج حجري شاهق حمل ساعة كبيرة حديثة يشبه المئذنة في وسط ساحة باب الفرج المحاذية للأسوار وفي قلب المدينة. وقد تم ذلك سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م في زمن الوالي رائف باشا.

---

١٠ من دراسة الدكتور محمود حريتاني في كراس خاص.

وقد بلغت كلفة برج الساعة الكبرى ١٥٠٠ ليرة عثمانية ذهباً تبرع أهل الخير بنصفها وتحملت دائرة البلدية النصف الآخر.

ويتألف برج الساعة من أربعة جدران عالية هي الواجهات الأربع التي تماثل جميع الجهات، ومن حولها تتوضع في الأرض مجموعة أحواض حجرية متماثلة. أما أعلى البرج فهو مزين بأشكال هندسية متناظرة ومقرنصات جميلة، حيث تزين الجدران شرفة ذات درابزون حجري مزخرف .. وفي محيط هذه الشرفة توجد في أعلى الواجهات الأربع أربع فتحات دائرية واسعة توضعت فيها أربعة أقراص معدنية كبيرة تشكل جسم الساعة المنشودة بحيث يتماثل كل اثنين متقابلين في التوقيت الإسلامي الذي يشير فيه العقربان إلى الساعة الثانية عشرة مساء أي إلى وقت غروب الشمس، وهو متبع لرصد أوقات الصلاة ولاسيما في شهر الصوم. وفي الوقت نفسه تشير الساعة بوجهيها الآخرين إلى الثانية عشرة ظهرا، أي إلى وقت الزوال ومنتصف النهار، وهو التوقيت المسمى بالافرنجي ... وينتهي البرج برأس حجري مقبب منسجم مع جسم البرج حيث انغرست فيه آلة ذات سهم متحرك يشير إلى اتجاه الريح .. وما من ريب في أن هذا البرج المعجب من الوجهة الفنية والذي تتوضع في جنباته الأربع (ساعة باب الفرج) كبرى ساعات المدينة يعد في طليعة المعالم التي تضفي على مدينة حلب الشهباء طابعاً متفرداً وخصوصية متميزة مما لا نكاد نجد له مثيلا في سائر حواضر البلاد العربية بل الدولة العثمانية.

وكثيرة هي المعالم العمرانية المشهودة في حلب، حيث تحتضن قلعتها الشامخة كل جنبات المدينة بمساجدها العريقة ومآذنها الشاهقة وقبابها الرحيبة وبيوتها المتلاحمة وحاراتها المبلطة وأسواقها الطويلة وخاناتها الكثيرة وحماماتها البهيجة ... فضلا عن محطة سكة حديد بغداد وسراي الحكومة والمدرسة الرشدية وقصر أبي الهدى الصيادي ومتنزه السبيل وحديقة المنشية والمستشفى الوطني ومبنى البلدية ... وفي هذه الفترة كبرت حلب ونشأت فيها أحياء جديدة مثل الجميلية والعزيزية والتلل.

خلاصة القول، لقد كانت المساجد العثمانية السالفة في حلب متسمة بالبساطة سواء في داخلها وخارجها، حتى كادت تلك المساجد تخلو أول الأمر من الزخارف والمقرنصات ونحوها. ولكن جمالية الهندسة المعمارية أخذت تتجلى سريعة في الاهتمام بالواجهات الداخلية للقبلية التي روعي فيها الإشراف على الأروقة. ثم أحاط المعماريون المدخل إلى القبلية بالمزررات الملونة والنقوش

والأقواس والمقرنصات والقاشاني، وتحلية النوافذ العليا بالزجاج الملون.

كذلك ازدادت مع الأيام العناية بالمحاريب والمنابر، وتم تجميلها بأصناف منوعة من المرمر الصقيل والموزاييك الملون والخشب النفيس. كما سادت أيضاً ظاهرة المحاريب المضلعة ذات المقرنصات في بناء المساجد الجديدة التالية مما لم يكن له وجود واضح قبل ذلك.

وفي الوقت المتأخر نفسه بدأت قباب المساجد بأشكالها نصف الكروية تتسع وتتعدد بعد أن كان المسجد ذا قبة واحدة متوسطة الحجم. وهذه القباب أصبحت متلفعة بصفائح من معدن الرصاص تحميها من وطأة التشقق والعوامل الجوية وتضفي عليها مزيداً من البهاء. والقبة في نظر المؤمنين نموذج جميل مقابل للسماء في أعالي الكون. وحرصت الهندسة المعمارية في عهود متأخرة على بناء إيوانات ومحاريب صغيرة داخل القبلية رغبة في زيادة حجم بيت الصلاة للمتعبدين. أما المآذن فهي مع القباب من أهم خصائص العمارة الإسلامية المتميزة بوجه عام ولعلها الأهم إطلاقاً بين سائر الأبراج والمنارات السائدة لدى مختلف الأمم. كانت المساجد الأولى في فجر الاسلام خالية من المآذن، كما كانت أيضاً خالية من المحاريب ومن المنابر.

كما كانت المآذن في العصور الأولى من التاريخ الإسلامي تتسم بالقصر وبالضخامة واستمر هذا المنحى ولكن بقدر واف من التعديل في العمارة الأموية ثم العباسية حين سادت المآذن المربعة، وهذا جلي في جوامع المشرق والمغرب والأندلس. وخير مثال على ذلك في بلاد الشام مئذنة الجامع الأموي الكبير بحلب ومثلها مئذنة قلعة حلب ومئذنة معرة النعمان. ثم أخذت المآذن الإسلامية وخاصة في عهد الدولة العثمانية تؤثر الاستدارة في تشييدها، وهذا ما أخذ يضفي عليها مسحة أخرى من الجمال ... إن النضج الحضاري الإسلامي وما انطوى عليه من تقدم عمراني حفّز المعماريين المسلمين إلى طلب الأفضل والتطلع إلى الأمثل في سبيل تحقيق المزيد من الإبداع والجمال والعظمة إلى مدى يقارب الإعجاز وعلى هذا الصعيد فيما يشبه الانعطاف في فن العمارة العثمانية منذ مطالع القرن السابع عشر، شغف المهندسون الأتراك بالمآذن المضلعة سداسية أو ثمانية أو أكثر من ذلك، مع إبقاء جسد المئذنة ممتلئا. وهذا ماثل في المساجد العثمانية الكبرى بحلب. وما لبثت العمارة العثمانية أن مالت إلى إيثار الرشاقة ومزيد من الطول في المآذن اللاحقة، وحرصت في الوقت نفسه على زخرفة الشرفة العالية بالنقوش

وإحاطتها بالمقرنصات، ومن ثم تتويجها بقبة مخروطية تنسجم مع رشاقة المئذنة. وقد ساد هذا الطراز المعماري مجمل المآذن في حلب وسائر بلاد الشام، كما هو حال المآذن العثمانية عامة في مساجد استانبول وجوامعها وأيضاً في كثير من ربوع العالم الإسلامي. لقد أصبحت المئذنة العثمانية الممشوقة التي تشبه قلم الرصاص النموذج الأثير والمحتذى في العمارة الإسلامية الحديثة. وإذا كان المؤمنون يرون في قباب مساجدهم رمزا لقبة الفلك في السماء، فإن مآذنهم تتراءى لهم وكأنها تزيدهم قرباً من الله.

ظاهرة انتشار التعليم في القدس في ضوء التنافس العثماني – الأجنبي

أ. د. فاضل بيات*

تمهيد

مما لا شك فيه إن وجود الأماكن المقدسة في القدس بالنسبة إلى أتباع الديانات السماوية الثلاث أدى إلى جعل المدينة مركز استقطاب الزائرين من مختلف دول العالم والهجرة إليها والإقامة فيها، ومحط أنظار الدول الغربية التي سعت إلى إيجاد موطئ قدم فيها وإيجاد السبل الكفيلة لتكوين نفوذ دائمي فيها مستغلة الظروف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية. ومن هذه السبل إقامة المؤسسات الخيرية والدينية والتعليمية المختلفة بشكل مباشر، أو بشكل غير مباشر من خلال رعايا الدولة العثمانية من الطوائف المسيحية واليهودية، فتأسست بذلك جمعيات متعددة تحت مسميات مختلفة أخذت على عاتقها إقامة هذه المؤسسات، والعمل على ديمومتها وتوسيعها والإشراف عليها. وعلى الرغم من أن هذه الجمعيات أو الدول الأجنبية أبدت نشاطاً ملحوظاً في المؤسسات الخيرية والدينية والتعليمية المختلفة، إلا أن ما قامت به في مجال التعليم فاق كل التوقعات، ولم يمر وقت طويل حتى عجت المدينة بأعداد هائلة من المدارس بمختلف مستوياتها: ابتدائية، رشدية، إعدادية وعالية وبخاصة بعد أن أغرت هذه الجمعيات العوائل المختلفة بما فيها الإسلامية لإدخال أبنائهم فيها.

وكانت الدولة العثمانية تعلم جيداً الغايات الكامنة وراء إقامة هذا الكم الهائل من المدارس غير الإسلامية والأجنبية في القدس، وتدرك المخاطر التي ستولدها في المستقبل، ولكن لم يكن في مقدورها الحد من انتشارها أو غلقها أو حتى التصدي لها، وذلك لأسباب كثيرة منها سياسة التسامح التي كانت تتبعها تجاه

---

* منظمة التعاون الإسلامي – إرسيكا

الطوائف غير الإسلامية والامتيازات الممنوحة للدول الغربية والضغوطات التي تمارسها هذه الدول عليها، ولهذا ذهبت إلى استخدام نفس الأسلوب الذي استخدمته الطوائف غير الإسلامية والدول الأجنبية أي إقامة المؤسسات التعليمية بمستوياتها المختلفة، والعمل على تشجيع الرعايا بما فيهم غير المسلمين لإدخال أولادهم فيها، ولهذا نجد أن عهد السلطان عبد الحميد الثاني تعامل مع الوضع بما يتلاءم مع حجم المخاطر، وأولى السلطان شخصياً الاهتمام المطلوب بتعليم أبناء الرعايا ليشمل كل الطوائف، فعمل على نشر المؤسسات التعليمية بمختلف مستوياتها. غير أن الدولة أحست بشكل ملموس ازدياد مخاطر هذه المدارس بعد انقلاب سنة ١٩٠٨ وبخاصة الأجنبية منها وتلك التي أقامتها المنظمات الصهيونية، فأصدرت أوامرها بعدم ترخيص بعضها أو حتى غلقها ولا سيما بعد انفجار الحرب العالمية الأولى.

والمعروف أن التعليم ومؤسساته المقامة من قبل الطوائف غير الإسلامية والدول الأجنبية قد لقيت اهتمام الكثير من الباحثين، إلا أن جهود الدولة العثمانية وأصحاب الخير من المسلمين في هذا المجال لم تلق الاهتمام المطلوب ولم يتم تناولها إلا من خلال الدراسات العامة المتعلقة بالتعليم في الدولة العثمانية. ولهذا تحاول هذه الورقة تسليط الضوء على هذا الجانب من خلال معطيات الوثائق والمصادر العثمانية.

في ٣ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٣٩ أعلن الصدر الأعظم العثماني مصطفى رشيد باشا خط كلخانة السلطاني أو فرمان التنظيمات فبدأ بذلك عهد جديد في الدولة العثمانية سمي بـ«عهد التنظيمات، ومُنحت الأقليات غير الإسلامية بموجبه حقوقاً واسعة، إلا أن هذه الأقليات التي اعتادت الحصول على حقوق إضافية تمادت في مطالبها، وتقربت إلى الدول الأجنبية أكثر من ذي قبل إلى درجة اعتبر الكاثوليك أنفسهم فرنسيين والأرثوذكس روساً والبروتستانت انكليزاً[١].

واستغلت الدول الغربية بنود الفرمان واعتبرت الفرصة مواتية لها لتمنح نفسها مهمة حماية حقوق الأقليات في الدولة العثمانية ومن ثم التدخل السافر في شؤونها.

---

١ Engelhart, *Tanzimat ve Turkiye*, p. 41

وفي سنة ١٨٥٦م أعلنت الدولة العثمانية فرمان الإصلاحات وبموجبه حصلت الأقليات غير الإسلامية على حقوق إضافية وأصبح لها الحق في إقامة المؤسسات التعليمية ، وعلى أثره قامت الطوائف الدينية بزيادة المدارس التي أقاموها، وتلقوا دعماً مادياً ومعنوياً من الدول والمؤسسات الغربية فكثفوا من نشاطاتهم.[٢]

ولم تتأخر الدول الغربية في استغلال فرماني ١٨٣٩ و ١٨٥٦ لصالحها وكانت تمتلك إمكانيات مادية كبيرة في كافة الصعد، على عكس الدولة العثمانية التي كانت تعاني من ضعف وأزمة مالية خانقة، كما استغلت هذه الدول الامتيازات الممنوحة لها فبدأت بفعاليات تبشيرية واسعة وبنشاطات معادية ضد الدولة العثمانية.[٣]

ورأت أن خير وسيلة للوصول إلى الأهالي وتلقين ما تريد تلقينه عليهم من أفكار مسمومة هو المؤسسات التعليمية، فسعت إلى نشر هذه المؤسسات إما مباشرة من قبلها أو من قبل الطوائف التي تبنتها مستغلة عدم وجود أي قانون أو نظام يقيدها القيام بهذا الأمر، بل على العكس من ذلك كانت الامتيازات الممنوحة لها تتيح لها ذلك. ولهذا كان بمقدورها إقامة أي مدرسة وفي أي مكان كان وبالعدد الذي ترغب بفتحها وإدارتها حسب رغبتها وتنظيمها بشكل يتناسب وتوجهاتها. ولهذا انتشرت المدارس غير الإسلامية والأجنبية انتشارا كبيرا وبسرعة مذهلة، ولم يمر وقت طويل حتى أقيمت أعداد هائلة من هذه المدارس وبمختلف المستويات وفي كافة أرجاء الدولة العثمانية، إلا أن ما أقيم في لواء القدس ضاهى ما أقيم في أي لواء من ألوية الولايات بل في بعض الولايات برمتها.

المؤسسات التعليمية الأجنبية في القدس

كثفت الدول الغربية نشاطاتها في مجال التعليم في الدولة العثمانية بعد صدور فرمان الإصلاحات على وجه التحديد، فقامت بفتح المدارس والمستشفيات وغيرها من الأعمال الخيرية. وأقامت جمعيات مختلفة أخذت على عاتقها

---

٢ Bayram Kodaman, *Abdülhamid Devri Eğitim Sistemi*, Ankara, 1988, p. 41

٣ Azmi Khouli, *Osmanlı Döneminde Kudüs'teki Yabancı Okullar (XIX. yüzyıl)*, Yayınlanmamış Yüksek Lisans Tezi, Marmara Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü, İstanbul, 2006, pp. 66-67

تأسيس المؤسسات الدينية والتعليمية والصحية المختلفة وإدارتها وتخصيص الموارد اللازمة لإدارتها وتسهيل دخول أبناء رعايا الدولة العثمانية فيها. وتسابقت هذه الدول فيما بينها في إقامة هذه المؤسسات وكان يكفيها وجود بضعة عوائل غير إسلامية في قرية من القرى لإقامة مدرسة أو مدارس لأبنائها، فكيف لمدينة كالقدس تضم تنوعاً سكانياً وتضم أماكن مقدسة تستقطب أتباع الديانات الثلاث؟ فلا غرو إذن أن تأتي القدس في مقدمة المدن التي حظيتَ باهتمام الدول والمؤسسات الغربية لإقامة مؤسسات دينية وتعليمية وصحية واجتماعية، ولكن ما يلفت الانتباه هنا أن تشهد المدينة أعداداً هائلة من هذه المؤسسات في غضون فترة قصيرة دون أن يجد مؤسسوها أي عرقلة للمضي قدماً في هذا المجال، رغم أن الدولة - كما سنرى فيما بعد - كانت تسعى إلى الحد منها وربطها بترخيص ومراقبتها.

وإذا ألقينا نظرة خاطفة على تاريخ المؤسسات التعليمية غير الإسلامية والأجنبية نجد أن معظم الدول الغربية قد سعت بكل ما أوتيت من قوة إلى اتخاذ موطئ قدم لها في القدس لإقامة ما يمكن إقامته من هذه المؤسسات. وقد أشارت إلى هذه المؤسسات وزارة المعارف العثمانية وذلك من خلال الأدلة الإحصائية التي كانت تنشرها بين حين وآخر ومن خلال سالنامتها (حَوْليتها) التي حملت اسمها أي سالنامهء نظارت معارف = سالنامة وزارة المعارف. وبالنسبة إلى الأدلة الإحصائية فإن أقدم ما وصلنا منها هو الدليل الإحصائي الذي يورد المعطيات المتعلقة بالتعليم في الولايات العثمانية المختلفة في السنة الدراسية ١٨٩٥ - ١٨٩٦، ولكن يؤخذ على هذا الدليل أنه أورد الإحصائيات المتعلقة بكل ولاية بشكل إجمالي دون ذكر ما يتعلق بكل لواء من ألوية الولاية. وينطبق هذا الأمر على لواء القدس أيضاً، أي أن المعطيات الموجودة فيه تتعلق باللواء دون الأخذ بنظر الاعتبار تقسيماته الإدارية، وطبقاً لما ورد في هذا الدليل فإن لواء القدس كان يضم ٥٥ مدرسة ابتدائية أجنبية سبع منها فقط مرخصة. وتوزعت تبعيتها على الدول على الوجه الآتي: فرنسا: ١٥، انكلترا: ٢١، ألمانيا: ٢١، روسية ١، النمسا: ٣ أمريكا ٣. أما المدارس غير الإسلامية والتي بني قسم منها من قبل الدول الأجنبية فإنه طبقاً للمعطيات الواردة في الدليل فإن القدس ضمت في السنة الدراسية نفسها (١٨٩٥ - ١٨٩٦) ١٠٣ مدارس منها ٣ مدارس إعدادية غير مرخصة، و ٤ رشدية غير مرخصة أيضاً، و ٩٦ ابتدائية منها ٣٥ مرخصة و ٦١ غير

مرخصة. وتوزعت تبعيتها على الوجه الآتي: روم: ٢٠، أرمن: ٥، كاثوليك: ١٤، ويهود ٦٤ مدرسة.[٤]

وبعد صدور هذا الدليل ببضع سنوات أصدرت وزارة المعارف الجزء السادس من سالنامة المعارف لسنة ١٩٠٥، وهي تسلط الأضواء على المؤسسات التعليمية القائمة في الولايات خلال صدور هذه السالنامات. ومما يجدر ذكره هنا أن القدس انفصلت عن ولاية سورية لتكون سنجقاً مستقلاً تابعاً للباب العالي مباشرة، ولم تصدر إدارة اللواء سالنامة خاصة به، ولكن ولحسن الحظ أن سالنامة وزارة المعارف وضعتنا في صورة المؤسسات التعليمية بشكل عام، ولهذا أصبحت مرجعاً أساسياً في هذا الخصوص. وطبقاً لما ورد في الجزء الأخير من هذه السالنامة والصادر في سنة ١٩٠٥ فإن المؤسسات التعليمية غير الإسلامية القائمة في داخل مدينة القدس في هذه السنة كانت على الوجه الآتي:

١ – المؤسسات التعليمية التي أقامها الروم

وأقاموا ١٨ مدرسة على نطاق اللواء منها ثلاث في داخل مدينة القدس وهي: مدرسة إعدادية (أقاموها سنة ١٨٦٠) ورشدية (وأقاموها سنة ١٨٦٤)، وابتدائية للبنات (أقاموها سنة ١٨٩٨).

٢ – المؤسسات التعليمية التي أقامها اللاتين

وكانت لهم تسع مدارس على نطاق اللواء منها مدرستان في داخل مدينة القدس أحدهما مدرسة رشدية والأخرى مدرسة ابتدائية (أقيمتا سنة ١٧٥٧م).

٣ – المؤسسات التعليمية للأرمن

وكانت لهم خمس مدارس تحمل اسم «سمينار الرهبان»، ثلاث منها في مدينة القدس وهي: مدرسة إعدادية للإناث، ومدرسة رشدية وأخرى ابتدائية.

---

٤ انظر عن هذه المعطيات: معارف عموميه نظارتى اداره سنده بولنان مكاتب، مطبعهء عامره، استانبول ١٣١٨ ص ٥٤ – ٥٨.

٤ – المؤسسات التعليمية لليهود

وشهدت القدس - دون غيرها من المدن العثمانية - أكبر عدد من مدارس اليهود وبلغ في سنة ١٩٠٥م ٤٥ مدرسة منها اثنتان وثلاثون في مدينة القدس وحدها وكلها ابتدائية ومرخصة باسم أحد اليهود، أربع منها للبنات وثلاث مختلطة وما تبقى منها للذكور.[٥]

ومما يجدر ذكره هنا أن سالنامة المعارف خصصت حقلاً مستقلاً لهذه المدارس تحت اسم المدارس غير الإسلامية باعتبار أن قائميها من رعايا الدولة العثمانية، رغم أن قسماً منها أقيمت من قبل الأجانب أو كان يتم تمويلها من قبل الدول الأجنبية. كما خصصت السالنامة حقلاً خاصاً بالمدارس الأجنبية، ولكن الذي يؤسف له أن السالنامة أغفلت ذكر أسماء الدول التي أقامت المدارس واكتفت بإيراد أسماء هذه المدارس وأسماء مرخصيها وعدد طلابها وسنوات تأسيسها وترخيصها. كما اكتفت أحياناً بذكر اسم الطائفة الدينية التي تعود لها هذه المدارس، كالبروتستانت واللاتين وربما لكون هذه المدارس مرتبطة بالمراجع الدينية أكثر من ارتباطها بالحكومات. وطبقاً لما ورد في سالنامة المعارف فإن عدد المدارس الأجنبية القائمة في لواء القدس برمته هو ٧٣ مدرسة منها ٣٩ مدرسة في مدينة القدس وحدها.[٦]

ومما لا شك فيه أن المدارس غير الإسلامية والأجنبية لم يتوقف توسعها وزيادة عددها حتى بداية الحرب العالمية الأولى، ولحسن الحظ وصلنا الدليل الإحصائي لوزارة المعارف والمتعلق بسنة ١٩١٣، فطبقاً لهذا الدليل فإن المدارس الابتدائية غير الإسلامية التي كانت قائمة في القدس كانت على الوجه الآتي: الأرمن: ٣، الروم: ١٠ ولكن الذي يؤسف له أن الدليل تجاهل مدارس الطوائف الأخرى وعلى وجه الخصوص اليهود، وكذلك المدارس التي أقامتها الدول الأجنبية. أما المدارس الإعدادية غير الإسلامية فقد أشار الدليل إلى ثلاث مدارس إحداها دار المعلمين ويستدل من أسمائها أن اثنتين

٥ سالنامهء نظارت معارف عموميه، جـ ٦، ص٧٢٩- ٧٣١.

٦ عن المدارس غير الإسلامية والأجنبية المقامة في لواء القدس في سنة ١٩٠٥ انظر: سالنامة نظارت معارف عموميه، جـ ٦، ص ٧٢٩ – ٧٣٤.

منها لليهود وواحدة للمسيحيين.[٧]

وبعد دخول الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى اتخذ مجلس الوكلاء (مجلس الوزراء) قراراً بإغلاق المؤسسات التعليمية والخيرية والصحية العائدة للدول المعادية كافة، وتخلية مبانيها ومصادرتها، وطرد منتسبيها إلى خارج البلاد.[٨]

ولهذا لم تبق من المدارس الأجنبية في القدس غير المدارس الألمانية وبضعة مدارس أمريكية. فطبقاً لما ورد في الدليل الإحصائي لوزارة المعارف والمتعلق بالسنة الأولى من الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) فإن المدارس الابتدائية للطوائف الدينية في القدس توزعت على الوجه الآتي: الروم: ٢٠، الأرمن: ٣، اليهود: ٢٧، أما المدارس الإعدادية فكان عددها أربع واحدة للروم وثلاث لليهود إحداها دار للمعلمين. أما المدارس الأجنبية فلم تبق منها إلا المدارس الألمانية وكانت ١٥ مدرسة والأمريكية وكانت ثلاث مدارس.[٩]

الإجراءات التي اتخذتها الدولة العثمانية تجاه المدارس الأجنبية

لم تصدر الدولة العثمانية كما ذكرنا أي نظام أو قانون بشأن تنظيم شؤون المدارس غير الإسلامية والأجنبية قبل سنة ١٨٦٩، فكانت هذه المدارس بعيدة كل البعد عن رقابة الحكومة العثمانية التي لم تقم بأي إجراء تجاه نشاطات هذه المدارس، بل كان الإشراف والرقابة بأيدي مؤسسيها أو الدول التابعة لها. وازدادت هذه المدارس وتوسعت لتشمل كافة أرجاء الدولة العثمانية وإن كان بعضها بعيداً عن الأهداف التعليمية التي أقيم من أجلها. وكان هذا الأمر يولّد تهديداً وإزعاجا جدياً للدولة ويفرض عليها أن تقوم بتدابير احترازية تجاهه. ولهذا ضمّنت نظام المعارف الذي أصدرته سنة ١٨٦٩م عدة مواد تتعلق بهذه المدارس. واشترط على المدارس غير الإسلامية الحصول على ترخيص رسمي، كما نص النظام على تفتيش هذه المدارس قبل منحها الترخيص، وإجراء التفتيش

---

٧ انظر معارف عموميه نظارتی احصائیات قلمی (١٣٢٨ – ١٣٢٩) استانبول ١٣٣٤، ص ٨، ٣١.

٨ الأرشيف العثماني ŞD. 2831/11

٩ انظر معارف عموميه نظارتی إحصائيات قلمي ١٣٢٩ – ١٣٣٠ سنه سنه مخصوص معارف عموميه... إحصائيات مجموعه سيدر، استانبول ١٣٣٦، ص، ٦، ٦٣.

المستمر لها لمعرفة مدى التزامها بالأهداف التي أقيمت من أجلها، كما منح النظام الصلاحية لمدراء المعارف في الولايات لإقالة أي معلم لا يتقيد بالأنظمة والتعليمات، ومتابعة النشاطات المعادية التي تقوم بها المدارس ضد الدولة واتخاذ التدابير اللازمة بشأنها، وفرض على المدارس تصديق برامجها وكتبها الدراسية.[١٠]

إلا أنه وعلى الرغم من كل ذلك لم تنجح الحكومة العثمانية في كبح جماح هذه المدارس التي اعتادت التحرك بشكل مستقل ودون رقيب. وواصلت تدريس الكتب الدراسية المقررة في بلدانها وإتباع المناهج الدراسية نفسها، والقيام بتلقينات معادية للأتراك وإشراك الطلاب المسلمين بالطقوس الدينية غير الإسلامية، والامتناع عن إدخال المفتشين الحكوميين فيها. كما أبدت إدارات المدارس البروتستانتية والكاثوليكية التسهيلات اللازمة لأبناء المسلمين للدخول في مدارسها.[١١]

ويستدل من التقارير التي رفعها مسؤولو الدولة واللوائح التي أعدوها مدى ما كانت تشكل المدارس غير الإسلامية والأجنبية من تهديد مباشر على الدولة العثمانية وبخاصة بعد أن وصل الأمر بالدول الأجنبية للقيام بفتح مدارس لها في أماكن لا يوجد فيها طلاب أجانب وحثها أبناء المسلمين في الدخول فيها والامتناع عن تدريس اللغة العثمانية الرسمية، وذلك لإعداد جيل يجهلون لغة الدولة الرسمية. ولهذا رفع وزير المعارف زهدي باشا في سنة ١٨٩٤ تقريراً إلى الحكومة يطالب فيه باتخاذ بعض الإجراءات بشأن المدارس غير الإسلامية وهي:

١ – عدم السماح للمدارس الكائنة في البلدات والقرى غير الإسلامية استخدام مدرسين أجانب وذلك للحد من فسادهم وتحريضهم.

٢ – عدم فسح المجال للدول الأجنبية فتح مدارس أجنبية في الأماكن التي لا يوجد فيها طلاب أجانب.

٣ – منع دخول أبناء الرعايا العثمانيين في هذه المدارس.

١٠ Ertuğrul, *Kültürümüzü Etkileyen Okullar*, 98; Polat, *Yabancı Okullar*, 70, Azmi Khouli, 70, p. 213

١١ Kenan Okan, *Türkiye'deki Yabancı Okullar Üzerinde Bir İnceleme*, Ankara, 1971, pp. 4-5, Azmi Khouli, p. 67

٤ – فرض تدريس اللغة العثمانية في المدارس غير الإسلامية.

٥ – التكثيف من إجراءات التفتيش على المدارس غير الإسلامية.

٦ – زيادة ميزانية المعارف.[١٢]

ومما يتعلق بالقدس فالمعروف أنها شهدت أكبر نشاط معادي أجنبي في مجال التعليم ضد الدولة العثمانية، ولم يغب هذا النشاط عن أعين المسؤولين العثمانيين في اللواء، ولكن لم يكن بوسعهم الحد من هذا النشاط غير إبلاغ الحكومة المركزية من خلال التقارير التي كانوا يرفعونها ويضمنونها بمقترحاتهم وآرائهم بشأنه، فعلى سبيل المثال نذكر أن متصرفية القدس أبلغت وزارة الداخلية في ٢١ أيلول ١٨٨٧ أن طائفة الروم الأرثوذكس قدمت طلباً إليها للموافقة على تأسيس «جمعية صهيون الأرثوذكسية لنشر العلوم» وذلك من خلال تأسيس المؤسسات التعليمية، إلا أن المتصرفية حذرت الحكومة العثمانية من الموافقة على تأسيسها لأنه لوحظ وجود دسائس الدول الأجنبية فيها ولن تسلم من المحذورات. ولهذا رفعت وزارة الداخلية الطلب إلى وزارة المعارف مؤكدة على التحذير الوارد من المتصرفية.[١٣]

وفي ٣ تشرين الثاني ١٨٩٨ أرسلت وزارة المعارف كتابا إلى كل من متصرفية القدس الشريف ومديرية المعارف فيها، أبلغت فيه أن ما أقدمت عليه الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية في فلسطين (فلسطين اورتودوقس جمعيت ايمپراطوريه سى) من إقامة مدرسة في حي المسقوفية خارج أسوار القدس والمخصصة للذكور والإناث من الروس ولأبناء طائفة الأرثوذكس من رعايا الدولة العثمانية لا يمكن أن يتم دون حصولها على موافقة الدولة. وتم إبلاغ القنصلية الروسية بذلك. وأحالت الوزارة الموضوع إلى مفتشية المدارس غير الإسلامية والأجنبية لمتابعته، فقامت المفتشية بدورها بالاستفسار عن عدد الروس في المحل المذكور وفيما إذا كانوا يحتاجون فعلا إلى إقامة مدرسة روسية، وعدد الطلاب من الذكور والإناث، وفيما إذا كانت هناك مدرسة أخرى للروس أم لا؟ إلا أن الوزارة

---

١٢ Atilla Çetin, "Maarif Naziri Zuhdi Paşa'nın Osmanlı Devletindeki Yabancı Okullar Hakkındaki Raporu," *Güney Doğu Araştırmaları Dergisi*, s. X, (1982): pp. 189-219

١٣ الأرشيف العثماني: DH. MKT, 1449/92

حَذّرت متصرفية القدس ومديرية المعارف من افتتاح المدرسة دون حصولها على الترخيص الرسمي.[١٤]

محاولات الدولة العثمانية للتوسع في نشر التعليم الرسمي

وعلى الرغم من كل الإجراءات التي اتخذتها الدولة العثمانية تجاه المؤسسات التعليمية الأجنبية، إلا أن هذه المؤسسات لم توقف نشاطاتها المعادية للدولة العثمانية وخرجت عن أهدافها لتصبح أبواقاً دعائية لدولها وعنصراً معادياً للدولة العثمانية، ودخلت في تنافس فيما بينها وتوسعت توسعاً كبيراً. ولم تقف عند هذا الحد، بل فتحت أبوابها لرعايا الدولة كافة دون تمييز وشجعت أبناء المسلمين للدخول فيها. ولم يكن بوسع الدولة العثمانية أن تقف مكتوفة الأيدي بعد فشلها في اتخاذ التدابير اللازمة تجاه هذه المؤسسات فلجأت إلى استخدام نفس السلاح المستخدم من قبل الدول الأجنبية أي التوسع في إقامة المؤسسات التعليمية والعمل على إيصالها إلى المستوى المطلوب وحث أو بالأحرى إلزام أبناء الأهالي المسلمين بإدخال أبنائهم فيها.

ويبدو أن وضع القدس كان يشكل مصدر قلق للدولة العثمانية لما لها من حساسية شديدة في هذا المجال، فأصدر الصدر الأعظم أمراً في ٢١ كانون الأول ١٨٨٣ يقضي بتقصي وضع التعليم في القدس والمؤسسات التعليمية القائمة فيها. وبالفعل تم ذلك فأبلغت وزارة المعارف الصدارة العظمى أن القدس الشريف ليست محرومة من المساعي والجهود المبذولة لنشر وتعميم العلوم والمعارف في البلاد السلطانية، فقد تم استحداث ٥٢ مدرسة ابتدائية في قضاء القدس وحده وست مدارس في قصبة خليل الرحمن، كما تم تعمير مدرسة الرصاصية في القدس لإقامة مدرسة ابتدائية لكل من الذكور والإناث وعيّن فيها معلمون أكفاء وبوشر بالتدريس فيها. كما بوشر بإقامة المدارس في القرى التابعة للقدس تباعاً وذلك بتمويل من صندوق المعارف. كما تم تدارك الموارد الكافية من الأوقاف المندرسة وإعانات الأهالي لإقامة المدارس اللازمة في يافا وغزة.

وورد في أمر الصدر الأعظم أنه نظراً للأهمية التي يحظى بها لواء القدس

---

١٤ الأرشيف العثماني: MF. MKT. 423/29

الشريف فقد قرر مجلس المعارف تفتيش وإصلاح المدارس القائمة والإسراع بتأسيس المدارس اللازمة في القرى التي لا تتضمن مدارس ولهذا تمّ تعيين مفتش من موظفي الوزارة في القدس.[١٥]

ويبدو أن الحكومة العثمانية رأت أن تنظيم شؤون التعليم في القدس بحاجة إلى تنظيم شؤونه وان هذا الأمر لا يمكن تحقيقه إلا من قبل مسؤول يتفرغ له، فقامت في١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٨٨٤م بتعيين أول مدير معارف في القدس وهو أحمد أفندي وهو من موظفي وزارة المعارف، وأنيط به مهمة القيام بإعادة تأسيس المدارس المعطلة في اللواء وتنظيمها وإصلاحها.[١٦]

ولم يمر وقت طويل حتى تم في غضون سنة ونصف إقامة مدرسة رشدية وست مدارس للذكور وثلاث مدارس للإناث في مدينة القدس و ٧٠ مدرسة في القرى والنواحي التابعة لها و ٣٠ مدرسة في قصبة الخليل وقراها و٤٧ مدرسة في قصبة غزة وقراها أي ما مجموعه ١٥٩ مدرسة ضمت ٧٤٠٠ تلميذاً و ٣٥٣ تلميذة أي ٧٧٦٠ من الجنسين.[١٧]

ولكن يبدو أن هذه المدارس التي أقيمت في الأرجاء المختلفة من لواء القدس لم تكن تنتهج إلا مناهج الأصول القديمة، ولهذا لم تكن بالمستوى المطلوب، ففي التقرير الذي رفعه متصرف القدس إلى مركز الدولة في ١٩ كانون الثاني ١٨٩١ رسم صورة قاتمة عن التعليم في اللواء. ومما ذكره في هذا الصدد: «إن المدارس الابتدائية في المدن هي غير منتظمة وفي وضعها القديم والاستفادة منها ضئيلة جداً، فالمعلمون فيها ليسوا إلا جهلة وهم بحاجة إلى التعلم، أما في القرى فليست فيها مدارس إلا في البعض منها. وقد تم إلغاء المدرسة الرشدية في مركز اللواء وألحقت صفوفها بالمدرسة الإعدادية الملكية (المدنية) التي أقيمت في الآونة الأخيرة. وعلى الرغم من أن هذه المدرسة يتم إدارتها من قبل معلمين عارفين بأصول التدريس وتنظيمها يتناسب مع المستوى المطلوب، إلا أنه ينبغي أن يكون الطلاب المقبولون فيها مؤهلين للاستفادة منها، لأن ما اكتسبوه في

---

١٥ الأرشيف العثماني: MF. MKT, 82/69

١٦ محمود جواد: معارف عموميه نظارتى تاريخچه وتشكيلات واجراءاتى، مطبعهء عامره ١٣٣٨، ج ١، ص ٢٤٤.

١٧ نفس المصدر، ١: ٢٥٨.

المدارس الابتدائية هو دون المستوى المطلوب. والوضع في الأقضية لا يختلف عن الصورة نفسها، والمدارس الابتدائية بشكل عام بحاجة إلى الإصلاح بشكل كبير. أما أهالي القرى فقد خيّم عليهم ظلام الجهل حتى أن أكثرهم لا يعرفون عن الضرورات الدينية شيئاً بل لا يعرفون من الإسلام غير الاسم. وقد استغل جمع من مبشري البروتستانت والكاثوليك جهل الأهالي وكان لهذا الأمر تداعياته.

وعلى الرغم من قلة المدارس المقامة لأبناء المسلمين إلا أن أتباع الديانات الأخرى أقاموا في مركز اللواء وأقضيته وقراه عدداً كبيراً من المدارس. وإذا ما أجبر قسم من أطفال المسلمين على التوجه إلى المدارس الأجنبية فإن هذا الأمر ستكون له محاذيره من الناحيتين السياسية والدينية. وعلى الرغم من أن الحكومة السنية قد خصصت مبالغ مهمة للمعارف، إلا أنه لم يتم الاستفادة بشكل حقيقي من المعارف في هذه الأماكن، ولم يفكر أحد في تدابير جديدة تجاه ما وصلت إليه الأحوال فيها.[١٨]

كانت الدولة العثمانية تسعى إلى العمل على كل ما من شأنه ثني الأهالي المسلمين من إدخال أولادهم في المدارس الأجنبية في القدس، وتعمل كذلك على جمع الأولاد المشردين والأيتام في دور الأيتام. ولم يكن يتوافر في القدس لغاية ٢٠ تموز ١٨٩٣م أي دار للأيتام في القدس. وكانت الدولة تخشى من قيام دور الأيتام الأجنبية باستقطاب الأيتام فيها. ففي تقرير رفعه مدير المعارف في القدس ورد أن الأجانب قاموا بالفعل بإقامة بعض دور الأيتام ولم يترددوا من إغفال المسلمين للدخول فيها والسعي إلى تغيير دينهم ومذاهبهم، ففي دار الصنايع التي أقاموها في القدس وخصصوها لأولاد الفقراء من الذكور والإناث قاموا بإطعام الأطفال وإكسائهم ومداواة المرضى مجاناً، وقد رغب بعض الفقراء من المسلمين في الدخول إلى المدارس الأجنبية، كما أن بعضهم دخلوا بالفعل في دار الصنايع الأجنبية ولم يتخلصوا منها إلا بصعوبة بالغة. ونتيجة لتداعيات هذا الأمر فقد أوصت مديرية معارف القدس بإقامة مدرسة للصنايع يتم تعليم بعض الحرف الرائجة فيها كالحدادة وصناعة الأحذية والخياطة وترتبط بوزارة المعارف وتخصص للأيتام وتكون في مستوى الدراسة الابتدائية ويقبل فيها مائة تلميذ ٣٠ منهم في القسم الداخلي.

---

١٨ الأرشيف العثماني: Y.PRK. AZN 59, s.3-4

ويبدو أن مدير المعارف توجه بنفسه إلى استانبول لشرح وجهة نظره في هذا الخصوص والتقى بأعضاء مجلس المعارف الكبير وأقنعهم بحاجة لواء القدس إلى دار للصنايع تخصص للأيتام الذكور وتضم سكناً للداخلين فيها، وأوصى بتخصيص مبنى مدرسة البنات في القدس لدار الصنايع، ونقل طالبات هذه المدرسة إلى المدرسة المنجكية وتخصيص التمويل اللازم لها من عقارات وغيرها، وتعليم المقبولين فيها الحرف المختلفة وتدريس المواد المقررة في الابتدائية والصف الأول من المدرسة الرشدية فيها، وجعل مدة الدراسة فيها ست سنوات وتسميتها بـ «ليلى ونهارى ذكور ايتامه مخصوص حميدية مكتبى» أي «المدرسة الحميدية الخاصة بالأيتام الذكور ذات القسم الداخلي» وذلك بدلاً من مدرسة الصنايع. كما قرر المجلس عدم التدخل في شؤون أملاك المدرسة واستحصال الإرادة السنية بتأسيسها ووضع برامج دراسية للمدرسة والتعليمات الداخلية الخاصة بها (١٣ آب/ أغسطس ١٨٩٤).[١٩]

وكانت الدولة العثمانية وانطلاقاً من واجبها الإسلامي والإنساني تسعى إلى نشر التعليم بين كل شرائح المجتمع حتى بين العشائر البدوية، وكان بقاء أفراد هذه العشائر بعيدا عن التحضر والمدنية يقلق المسؤولين العثمانيين في الولايات والألوية، ففي المحضر الذي أعده مجلس اللواء ورفعته متصرفية لواء القدس إلى وزارة الداخلية في ٢٤ نيسان ١٩٠١م تناول المجلس الأوضاع الاجتماعية للعشائر البدوية، وأكد على أن أكثر أفرادها غارقون في ظلام الجهالة ولا يعرفون شيئاً عن تعاليم الدين الإسلامي، ويحللون بعض الأوضاع الذميمة كالنهب والسلب، والمعاملات الجارية فيما بينهم بسبب الإرث والنكاح بحاجة إلى إصلاح، وعلى الرغم من عدم إمكان تعديل أوضاع من تجاوز منهم سن الطفولة بالتعليم بشكل كلي، إلا أنه لا يجوز ترك أطفالهم الذين يتمتعون بذكاء فطري في طور الجهالة. ولهذا فإن إقامة مدرسة في القصبة ستجعلهم في المستقبل يقدرون العلوم والمعارف وتنير جهالتهم. ويبدو أن مجلس اللواء رأى أنه ليس من اليسير إقناع هذه العشائر بإدخال أبنائها في المدارس لعدم استقرارهم في مكان معين وانتقالهم من مكان إلى آخر بشكل مستمر، ولهذا ذهب إلى الاستعاضة عن بناء المدرسة بتعيين معلم يتحلى بالأخلاق الحسنة والصلاح عند كل عشيرة يرافقها أينما تحل ويقوم خلال

---

١٩ الأرشيف العثماني: MF.MKT, 175/169, MF.MKT, 218/18

النهار بتعليم أبنائها مبادئ القراءة والكتابة والقرآن الكريم والعقائد الدينية وخلال الليل يشارك في اجتماع العشيرة ويسعى إلى إسداء النصائح لهم وترغيبهم بالصلاة ويكلف برفع الأذان وإمامة المصلين وعقد النكاح، كما رأى أنه لا يمكن أن يقوم بكل ذلك إلا من يتصفون بالأمانة ويتحمل المشاق والصعاب على أن تخصص لهم رواتب تنسجم مع وضعهم (١٥ آذار ١٩٠٢). واقتنعت وزارة الداخلية بتوصية مجلس لواء القدس فأجابت على كتاب المتصرفية مستفسرة عن عدد المعلمين المطلوب تعيينهم «لتعليم الأمور الدينية» للعشائر البدوية. ٣٠ نيسان ١٩٠٢م.[٢٠]

لائحة سليمان فتحي (١٥ أيار ١٩١١م)

وهي لائحة سرية أعدها متصرف لواء نابلس سليمان فتحي إثر المباحثات التي أجراها مع بطريرك الروم في القدس، وتضمنت بعض الأفكار التي أبداها المتصرف في هذا الصدد، وأرسلت اللائحة إلى ولاية بيروت. وذكر المتصرف في اللائحة أن بطريرك الروم في القدس قدم إلى نابلس متنكراً وزاره في منزله، وأنه أبلغ ولاية بيروت بذلك في البرقية التي رفعها بتاريخ ٨ أيار ١٩١١م، واستدل مما دار بينهما:

١ – إن مدينة القدس غدت تكتسب أهمية قصوى وحساسة في الوقت ذاته.

٢ – إن الأهالي الأصليين أصبحوا بشكل عام يفقدون أراضيهم وأملاكهم، لانتقالها إلى الأجانب وبضمنهم اليهود.

٣ – إن اللغة العثمانية أصبحت معدومة وإذا استمر الوضع بهذا الشكل فإن اللغة العربية ستزول من هذه المناطق.

٤ – إن عدد السكان المسلمين في المدينة قد تناقص تناقصاً شديداً.

٥ – إن الروم يعدون من الرعايا المخلصين للدولة العثمانية وأنهم يتمنون زيادة مجد وشوكة الدولة في هذه المناطق وازدهارها ورقيها.

---

٢٠ الأرشيف العثماني: DH. MKT 491/72

ويرى المتصرف إن هذه النقاط التي أوردها البطريرك جديرة بالاهتمام، وهي تشكل حقيقة من الحقائق المتعلقة بما يحدث في أرض فلسطين وسوريا بشكل عام، وتتعلق بالأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية لها والتي سبق أن أبلغ بها وزارة الداخلية. ولهذا لا يرى داعياً لإعادة ذكر ما ذكره، ولكن يستلزم التوقف عند أهم الدوافع التي حدت بالبطريرك الاتصال بشأنه وهي الأعمال التي يقوم بها البروتستانت والكاثوليك واللاتين في هذه الأرجاء في الآونة الأخيرة وتحقيقهم النجاح على حساب الكنيسة الأرثوذكسية. فقد بات معروفاً غايات ومقاصد الأديرة والمدارس ودور الأيتام التي قاموا بإقامتها باسم الدين والإنسانية، وهم يتلقون الدعم في هذا الصدد من الحكومات الأجنبية وبعض الجمعيات. ولم يقصروا في كسب عقول وقلوب جهلاء الناس من المسلمين الذي أدخلوا أولادهم في هذه المدارس.

ويذكر سليمان فتحي أنه لا يمكن إنكار وجود بعض التيارات السياسية المهمة التي تستهدف الدين والعواطف الإنسانية في هذه الأرجاء، وهذه التيارات أخذت على عاتقها نشر اللغات الأجنبية الأمر الذي ستكون له تداعياته في المستقبل ويفتح الأبواب على مصاريعها للتدخل الأجنبي. ويذكر أنه صادف الكثير من أبناء المسلمين ممن تخرجوا من مدارس القدس ويافا وبيروت وهم يجهلون اللغة الرسمية ولكنهم يجيدون اللغتين الإنكليزية والفرنسية، ففي مدينة نابلس على سبيل المثال لا يتجاوز عدد الأجانب بضعة أشخاص كما أن عدد المسيحيين يتراوح بين ٣٠٠ - ٤٠٠ وقد انتشرت الإنكليزية فيما بينهم بفضل مدرسة صغيرة ملحقة بإحدى زوايا الكنيسة البروتستانتية الصغيرة. كما توغل المبشرون البروتستانت والكاثوليك في الكرك وأرجائها والتي شهدت أحداثاً دامية ولم يتم تأمين الأمن والنظام فيها إلا بالقوة العسكرية. ويتهم الإنكليز في هذا الصدد لأنهم بذلوا مساعي كبيرة لنشر نفوذهم في المنطقة الممتدة من الهند وإيران والبصرة وبغداد والجزيرة وأرض فلسطين حتى البحر المتوسط ومصر. ويتوقع أن يقوموا بمد خط حديدي يربط الهند بمصر في وقت قريب.

كما يرى سليمان فتحي أن الدول الغربية فشلت في إيجاد مجال الانتشار الذي كانت تتأمله في بلدان الشرق الأقصى وذلك بفضل يقظة اليابانيين والصينيين، ولهذا وجهوا أنظارهم وبشكل كبير نحو الدولة العثمانية. ويقر أن مواجهة جيوش العلم والمعارف والاقتصاد والسياسة لا يمكن تحقيقها إلا بامتلاك الأسلحة

نفسها ومن الاستحالة مواصلة العيش بعكس ذلك، ولذلك يدعو إلى الوحدة والتماسك والعمل بروح المسؤولية والتفاني والإخلاص والتسلح بالعلم.

ولكل ذلك فهو يضع مسألة التعليم في مقدمة المسائل التي ينبغي على الدولة النهوض بها فيقترح إحياء الغرف الكائنة بين الجامع الأقصى وقبة الصخرة والتي أقيمت الإيواء طلاب العلم ولكنها استخدمت محلات ودكاكين وإعادتها إلى سابق عهدها، أو إقامة جامعة في القدس الشريف التي هي نقطة التلاقي لبلاد مصر والحجاز وسورية وتحظى بموقع مهم وحساس لتكون مدرسة للعلوم والفنون وتعادل جامع الأزهر في مصر. ومن الممكن تغطية نفقات هذه الجامعة من أوقاف القدس التي تتميز بكثرتها وبهذا يتم تخليص القسم الأعظم منها من أيدي المغتصبين.

ويبدو أن ولاية بيروت اقتنعت بما ورد في لائحة متصرف لواء نابلس الذي كان يتبعها، فرفعتها إلى وزارة الداخلية في ٢٢ أيار سنة ١٩١١ وذلك لما فيها من أفكار جديرة بالدراسة. وقامت الوزارة بدورها برفع اللائحة إلى وزارة الأوقاف السلطانية في ١٣ حزيران ١٩١١ مؤيدة مقترح المتصرف بضرورة إقامة جامعة في القدس على غرار جامع الأزهر في القاهرة.[٢١]

وينبغي أن نشير هنا إلى أن تأسيس مثل هذه الجامعة لم يكن بالأمر الهيّن للمسؤولين العثمانيين، بل - وكما سنرى فيما بعد - أن ما يهم الدولة بالدرجة الأولى هو نشر التعليم الأولي قبل الشروع بالتعليم العالي. وكانت مؤسسات التعليم الأولي بحاجة إلى إصلاح لتتمكن من مواجهة التعليم الأجنبي، ففي الرسالة التي أرسلها متصرف القدس في سنة ١٩١٤ إلى مركز الدولة تحدث عما قام به من نشاط في مجال التعليم فقال: «إن لواء القدس يضم مدارس ومؤسسات علمية أجنبية لا حد ولا حصر لها، ولهذا فإن المتصرفين يتحملون وظائف معنوية ووطنية كبيرة» وأضاف «بعد وصولي إلى القدس بذلت قصارى جهدي من أجل إصلاح المعارف وتكثير المدارس، وبفضل الله فإن نتائجه الإيجابية والفعلية بدأت تظهر تدريجياً.. وأن تطوير أبناء الوطن جسماً وروحاً وفكراً يتطلب مدارس جامعة للشروط الصحية والتدريسية إلى جانب توفير معلمين يحوزون الأوصاف المطلوبة». ولكن مع ذلك قام المتصرف بالعمل على تشييد مباني المدارس في

٢١ الأرشيف العثماني: DH. ID, 34/18

أرجاء مختلفة من اللواء كما بدئ بالإعداد لإقامة دار للمعلمين في القدس.[٢٢]

المؤسسات التعليمية العثمانية في القدس

يستدل من كل ما ذكرناه أن لواء القدس حظي باهتمام المسؤولين العثمانيين منذ دخول المنطقة تحت الحكم العثماني، وزاد هذا الاهتمام أكثر بعد أن أصبحت أراضي فلسطين بشكل عام والقدس بشكل خاص محط أنظار الدول الغربية. ولم يقف العثمانيون مكتوفي الأيدي تجاه ذلك، وسعوا من جانبهم إلى نشر التعليم بين أبناء الرعايا كافة، ففتحوا العديد من المؤسسات التعليمية الرسمية، وذلك في وقت كان التنافس يشتد بين هذه الدول في مجال نشر التعليم، والذي تناولناه في البداية. ومما يتعلق بهذه المؤسسات نجد أن القدس كانت من أوائل المدن العثمانية التي أقيمت فيها مدرسة إعدادية شاملة (١٨٩٠) وكانت تضم كذلك الدراسة الرشدية وهي المرحلة المتوسطة بين الابتدائية والإعدادية، وكان عدد طلابها في السنة الدراسية ١٩٠٢ – ١٩٠٣م ١٢٣ طالباً. ولهذا لم تؤسس مدرسة رشدية في القدس بعد افتتاح هذه المدرسة الإعدادية، في حين ظلت المدارس الرشدية التي كانت قائمة في كل من يافا وغزة والخليل مستمرة. والمعروف أن هذه المدن كانت تتبع لواء القدس من الناحية الإدارية([٢٣]). ولكن الذي يؤسف له أن سالنامة المعارف لم تذكر شيئاً عن الدراسة الابتدائية في اللواء واكتفت بذكر المدارس التي أقيمت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وطبقاً لما ورد فيها فقد أقيمت في اللواء ولغاية سنة ١٩٠٢ ست مدارس في مدينة القدس والقرى المحيطة بها، وخمس مدارس في يافا وأرجائها وست مدارس في كل من غزة والخليل وأطرافهما، وثلاث مدارس في الرملة. كما أقيمت في نفس الفترة مدرسة رشدية في كل من الخليل وغزة ويافا.[٢٤]

ومما يجدر ذكره أن المدرسة الإعدادية في القدس تم تحويلها في سنة ١٩١٣ إلى مدرسة سلطانية وهي الشكل المتطور من المدرسة الإعدادية، وكانت مدة الدراسة فيها سبع سنوات، وضمت قسماً داخلياً لإقامة الطلاب. وكان يدرس فيها

---

٢٢ الأرشيف العثماني: DH. IA, 190/36

٢٣ انظر سالنامه نظارت معارف عموميه، ٦: ٧٢٧ وما بعدها.

٢٤ نفس المصدر، ٦: ٧٣٥ – ٧٣٦.

في السنة الدراسية ١٩١٣ - ١٩١٤م ١٧٤ طالباً. أما المدارس الابتدائية في السنة الدراسية نفسها فكان عددها ٣٠ مدرسة خمس منها للإناث، وأقيمت ٢٢ منها بعد ١٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٠٨م أي بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد. أما عدد الطلاب في هذه المدارس في السنة الدراسية نفسها فكانت على الوجه الآتي:

ذكور : ٢٢٥٠

إناث : ٨٣٠

المجموع : ٣٠٨٠

وكان يدرس في هذه المدارس ٧٥ معلماً و ١٨ معلمة.[٢٥]

وينبغي أن نذكر هنا أنه على الرغم من المساعي التي كان يبذلها المسؤولون العثمانيون في نشر التعليم وزيادة عدد مؤسساته في القدس، إلا أن إمكانيات الدولة العثمانية المادية، وبخاصة في هذه الفترة أي بداية الحرب العالمية الأولى كانت محدودة، ولهذا كان الفرق واضحاً من حيث عدد الدارسين بين المؤسسات التعليمية الحكومية وبين المؤسسات التعليمية الخاصة وبضمنها الأجنبية، ففي الوقت الذي كان عدد الطلاب الدارسين في المدرسة السلطانية في القدس ١٧٤ طالباً وعدد المدرسين ١٢، كان يدرس في المدارس الخاصة في المرحلة الإعدادية ١٠٨٩ طالباً ويُدرّس فيها ٧٨ مدرساً.[٢٦]

انتعشت المدارس الرسمية في القدس بشكل عام بعد إغلاق مدارس الدول المعادية وتوسعت وبخاصة بعد إقامة دار المعلمين الابتدائية فيها في سنة ١٩١٥، فالمذكرة التي رفعها مدير المعارف في القدس تسلط الأضواء على وضع التعليم في القدس في هذه الفترة، فقد تم تأسيس مجموعة من المؤسسات التعليمية في المدينة تأتي على رأسها دار المعلمين التي ضمت في السنة نفسها ٢٩ طالباً وضمت في سنة ١٩١٥م ٢٩ طالباً وخطط لها أن تضم ٢٠٠ طالب، كما افتتحت مدرستان تمهيديتان في مدينتي القدس ويافا. وقد لاقت هاتان المدرستان اللتان خصصتا للمرحلة ما قبل الابتدائية إقبالاً كبيراً من الأهالي حتى تجاوز عدد الداخلين فيهما ١٥٠ تلميذاً، وفضلاً عن هذا أقيمت مدرسة التطبيقات الابتدائية في القدس وكان

٢٥ انظر معارف عموميه احصائيات قلمى ١٣٢٩ - ١٣٣٠، ص ١، ٣، ٤، ٣٠.

٢٦ انظر معارف عموميه إحصائيات قلمي ١٣٢٩ - ١٣٣٠، ص ٧٢أ/ب.

قد بدئ ببنائها سنة ١٩١٣، وهي ذات عشرة صفوف ويتكون مبناها من طابقين وتمتاز بتنسيقها وتقسيماتها الداخلية المنتظمة وحديقتها وسعتها، وتستوعب ٣٠٠ طالب. كما أقيمت ٢١ مدرسة في أماكن مختلفة من اللواء.[٢٧]

ومما يتعلق بفترة الحرب العالمية الأولى فان عجلة نشر المؤسسات التعليمية في القدس لم تتوقف خلالها، وقد وصلتنا وثيقة مهمة عن واقع حال هذه المؤسسات في سنة ١٩١٦، فقد ورد فيها أنه طبقاً للمعلومات الإحصائية التي أعدتها وزارة المعارف عن التعليم ومؤسساته فإن وضعهما كان على الوجه الآتي:

عدد المدارس في القصبات: ١٩

عدد المدارس في القرى : ١٢

عدد التلاميذ فيها : ٣٥٢٠

عدد التلميذات فيها : ٩٧٣

في حين اعترف وزير المعارف في هذه الوثيقة أن هذه الأعداد هي متواضعة جداً قياساً إلى واقع اللواء فعدد القرى فيه: ٣١٩، ومجموع الأطفال في سن الدراسة ١٦٤٢٦ ذكور و ١٥٠٠٦ إناث أي ٣١٤٣٢، ونسبة القرى التي تحتاج إلى المدارس هي ٩٦٪ ونسبة التلاميذ والتلميذات المحرومين من التعليم هي ٨٥٪.

وذكر الوزير بعد تحليله هذه الأرقام: إذا ما افترضنا إقامة ٣٠ مدرسة في السنة فإن اللواء يحتاج إلى عشر سنوات لإكمال حاجته إلى المدارس. ويعترف الوزير هنا قائلاً: أن وزارة المعارف تأخرت في هذا اللواء شأنه شأن الألوية الأخرى. وقد أقيمت في سنة ١٩١٥ إحدى وعشرين مدرسة ويعد هذا إنجازاً يشهد له قياساً إلى الألوية الأخرى، كما أقيمت دار للمعلمين في القدس، ويؤمل أن تعد هذه الدار معلمين سيكون لهم دور كبير في تطوير اللواء من الناحية التعليمية، كما يؤمل توسيع هذه الدار في المستقبل وتأسيس دار للمعلمات، وتنفيذ المادة ١٥ المعدلة من قانون الدراسة الابتدائية وعلى ضوئها يتم نشر المدارس الابتدائية في عموم اللواء.

ويبدو أن الدولة العثمانية كانت تسارع الخطى في هذا الصدد، فأرسل وزير

٢٧ الأرشيف العثماني: UMVM, 143/21 ٩ آذار ١٩١٦.

المعارف الإحصائيات المذكورة والمتعلقة بالمؤسسات التعليمية في القدس ورأيه فيها إلى وزارة الداخلية التي بحثت الموضوع بشكل فعلي. ورأت الوزارة أن أمر نشر المعارف في القدس يحتاج إلى مزيد من المساعي والتضحيات وذلك لإبلاغها الدرجة المطلوبة، كما أن إقامة ٢١ مدرسة في السنة المذكورة وإقامة دار للمعلمين جديرة بالتقدير. وطلبت مواصلة السعي في السنة الحالية (١٩١٦) أيضا، وتطوير دار المعلمين وتوسيعها لإعداد معلمين وإقامة دار للمعلمات وزيادة عدد المدارس الابتدائية وإصلاحها.[٢٨]

يمكننا القول بعد كل ما ذكرناه إن القدس شهدت تنافسا شديدا بين الدول الغربية في إقامة المؤسسات التعليمية وشمل هذا التنافس كذلك الطوائف غير الإسلامية وبضمنها اليهود. وكانت الدولة العثمانية تنظر إلى المؤسسات التي أقامتها هذه الدول وبعض الطوائف الدينية بعين الريبة والقلق. وكانت محقة في نظرتها، لان هذه الدول كانت تسخّر كل هذه المؤسسات لتنفيذ مخططاتها في المدينة وتنفث سمومها إلى الأهالي والدولة العثمانية على حد سواء. ولم يكن بوسع الدولة العثمانية التصدي لهذه المؤسسات بالشكل اللازم، لأن مؤسسيها كانوا يستغلون الامتيازات الممنوحة للأجانب وما ورد في بنود فرماني التنظيمات والإصلاحات، ولهذا اضطرت إلى مواجهة هذه المؤسسات بمؤسسات أقامتها هي، وكانت تعوّل بذلك على الأهالي، لأنها رأت أن تعليمهم وتثقيفهم سيجعلهم أكثر وعيا وإدراكا لمعرفة مخططات الأجانب ومواجهتها، ولكن الإمكانيات المادية التي كانت تمتلكها لم تكن كافية لإفشال هذه المخططات.

---

٢٨ الأرشيف العثماني: UMVM, 143/21

أطباء وبيمارستان القدس في العهد العثماني

د. محمد ياسر زكّور *

مقدمة

كما أن القدسَ مهدُ الأديان، فهي مهدُ الحضارات والعلوم التي ازدهرت كثيراً في ظل الحضارة العربية الإسلامية، والتي استمرت حتى أواخر العهد العثماني، ومنها العلوم الطبية. فلقد كان للعثمانيين دورٌ مهمّ في موضوع الطب علماً وعملاً؛ من المحافظة على أماكن الاستشفاء، إلى تنظيم ومراقبة المهن الطبية، خلافاً لما ورد عن بعض الرحالة والحجاج الأجانب الذين زاروا القدس في ذلك العهد، واتهموا المسلمين وكل سكان الأرض المقدسة بالجهل في الطب، مروجين في ذلك لما كانت تقوم به المنظمات والمؤسسات الأجنبية، وكانوا في أكثر الأحيان من المتحاملين على الشرقيين الجاهلين لهم ولبلادهم. لكن وبفضل الوثائق والمعلومات التي تستند إلى سجلات المحكمة الشرعية بالقدس، أصبح لدينا بعض المعلومات التي تثبت خطأ هذا الرأي، تفيدنا تلك السجلات أنه كان في القدس في ذلك العهد الكثير من الأطباء والجراحين والكحالين، وكان الأطباء يعالجون المرضى في البيمارستان الصلاحي (بيمارستان القدس)، وهؤلاء الأطباء كانوا من الحاذقين في معالجاتهم، يستندون على قواعد وضعها أسلافهم في التراث الطبي العربي الإسلامي القديم. هذا فضلاً عن المؤلفات التي صنفها الأطباء في القدس في العهد العثماني، إن كانت باللغة العربية أو باللغة التركية، بل ومنهم من ترجم مؤلفات باللغة التركية إلى العربية.

* اختصاصي بأمراض الأذن والأنف والحنجرة وجراحتها، باحث في تاريخ العلوم الطبية. عضو الجمعية السورية لتاريخ العلوم. إدلب- سورية.

مستشفيات القدس في العهد العثماني

بيمارستان القدس (البيمارستان الصلاحي)

إن كلمة بيمارستان هي بالأصل فارسية ومؤلفة من شطرين؛ بيمار: تعني المريض، ستان: تعني المكان، أي دار أو مكان المريض أو دار الاستشفاء، ثم اختصرت فيما بعد إلى مارستان.

وقد أنشئ أول بيمارستان في جنديسابور من بلاد الفرس قبل الإسلام، ثم انتشرت البيمارستانات في أغلب العواصم والبلدان في ظل الحضارة العربية والإسلامية، حتى عدت أكثر من مائة بيمارستان، ومنها كان بيمارستان القدس، أو البيمارستان الصلاحي، الذي أسسه صلاح الدين الأيوبي، كغيره من البيمارستانات التي أنشأها أيضاً في عدد من البلدان.

فبعد أن دخل السلطان صلاح الدين إلى القدس في اليوم الرابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وأمر بتشييد أسوارها، شرع سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) في ترتيب قاعدة القدس في الولاية والعمارة، وفوض ولاية القدس إلى عز الدين جرد بك، وسأل الصوفية عن أحوالهم، وزاد في أوقاف المدرسة الصلاحية والخانقاه،[١] وجعل الكنيسة المجاورة لدار الأسبيتار[٢] بقرب قُمامة[٣] مارستاناً للمرضى، ووقف عليها مواضع، ووضع فيه ما يحتاج من الأدوية والعقاقير، وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع أبي تميم المشهور بابن شداد لعلمه بكفاءته.[٤]

وكان المشرف (الساعور) على البيمارستان يعقوب بن صقلاب الطبيب

---

١ مكان تجمع الصوفية.

٢ أصبحت فيما بعد زاوية الدركاه وكانت في زمن الإفرنج دار الأسبيتار؛ والأسبتارية منظمة أسسها الصليبيون في السنة التي احتلوا فيها القدس (٤٩٣هـ/١٠٩٩م) جمعت بين الرهبنة والعسكرية، أنشأت المشافي للاعتناء بالمرضى والحجاج المسيحيين، وأصبح لها نفوذ واسع في جميع أوربة. (مجلة المعرفة، العدد ٥٤٤، ص١٠٨).

٣ قُمامة بالضم: نصرانية بَنَتْ ديراً بالقدس فسمي باسمها. (القاموس المحيط). ويقال أن هيلانة أم قسطنطين هي التي بنت كنيسة قمامة ودار الأسبيتار.

٤ عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص٢٣٠. العابد: المركز التقليدي لمدينة القدس، ص٥٩. الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج١، ص٣٩١.

النصراني المشرقي (أي من شرقي القدس) المتوفى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م.[٥]

ومن الأطباء الأوائل الذين خدموا صناعة الطب في البيمارستان الصلاحي رشيد الدين بن الصوري (٥٧٣-٦٣٩هـ/١١٧٧-١٢٤١م) صاحب كتاب الأدوية المفردة، والذي كان يستصحب معه مصوراً إلى المواضع التي بها النبات ليرسم له النباتات الطبية في جميع مراحل نموها.[٦]

وفي العصر العثماني استمر هذا البيمارستان في أداء وظائفه كغيره من البيمارستانات، فكان العثمانيون يقومون بالمحافظة عليها وإعمار رقبة أوقافها، على خلاف الرأي القائل بأن بيمارستان القدس زال من الوجود إثر زلزال هدمه سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٧م، بل أعيد ترميمه وواصل القيام بخدماته العلاجية في العصر المملوكي كله وشطر من العصر العثماني، حيث قال مجير الدين الحنبلي في كتابه «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل»: إن الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن المغربي الأصل الخليلي ثم المقدسي الشهير بابن المغربي[٧] المولود سنة (٨٢٤هـ) توفي يوم الجمعة تاسع شهر ذي القعدة سنة (٨٩٢هـ/١٤٦٨م) في بيمارستان القدس الشريف ودفن بباب الرحمة.[٨]

ولكن مع الأسف وكما أشرنا فإن هذا البيمارستان لم يُعْطَ حقه عند المؤرخين والمؤلفين عموماً طوال حياته التي استمرت زهاء ستة قرون؛ منها ثلاثة في العهد العثماني استمرت إلى القرن الثامن عشر الميلادي، لكن الحقيقة أن العمل في هذا البيمارستان لم يتوقف، وهذا ما ثبت من خلال سجلات المحكمة الشرعية، بوثائق تتعلق بالبيمارستان؛ وتعميره والوظائف فيه وأوقافه. بيد أن هذه الوثائق لا تعطينا معلومات كثيرة عن البيمارستان من حيث التطبيب والمعالجة فيه وصفته العامة وتقسيماته، لكنها تلقي بعض الأضواء عليه في وقت تكاد تنعدم فيه مصادر المعلومات الأخرى. وهذه الوثائق هي:[٩]

---

٥ ابن القفطي: إخبار العلماء، ص ٢٤٨.

٦ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٦٩٩. العمري: مسالك الأبصار، ج٩، ص٣٩٧. أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات، ص٢٣٢. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٢٣. حميدان: أعلام الحضارة، ج٣، ص٢٣٤.

٧ ابن الغزي في «مقدمة في تاريخ الطب في القدس».

٨ الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخلي، ج٢، ص٢٥٣. العسلي: مقدمة في تاريخ الطب في القدس، ص ١٤٤. محمد عيسى صالحية: الموسوعة الفلسطينية ، القسم الثاني، المجلد الثالث، ص ٤٠١.

٩ الوثائق مأخوذة عن المرج السابق، ص ١٧٢.

- وثيقة رقم (٦٤) سنة ٩٧٨هـ/١٥٧٠م: مفادها أن محيي الدين خليفة المتولي على أوقاف البيمارستان، أنهى إلى القاضي أن أماكن البيمارستان وجميع أوقافه بحاجة إلى الترميم والتعمير، وأن ليس في الوقف مال لصرفه على التعمير، واستأذن القاضي أن يصرف جميع محصولات الوقف عن سنة ٩٧٨هـ في تعمير رقبة الوقف، عند ذلك وجه القاضي نائبه علاء الدين الحنفي وشاهدين والمعمار محمود بن حسين بن نمّر معمار باشي القدس للكشف على الوقف وتخمين ما يحتاج إليه من النفقات، ثم عرضوا الأمر على القاضي الذي أذن للمتولي بالتعمير والترميم حسب ما هو مطلوب. وتشير الوثيقة إلى أسماء بعض أجزاء البيمارستان المحتاجة إلى التعمير وهي؛ المتوضأ، المغتسل (وكان لتغسيل الموتى)، قاعة الكحّالين (أطباء العيون)، مخازن غربية، قاعة المجانين (الأمراض العقلية)، قاعات أخرى، الحبس (لعله للأمراض العقلية الخطرة)، ودكاكين. وهناك بالطبع قاعات أخرى لم يرد ذكرها في الوثيقة لأنها ليست بحاجة إلى تعمير وترميم، فمثلاً لا يمكن أن يكون هناك متوضأ بدون مسجد.

- وثيقة رقم (٦٥) لسنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م: مفادها أن القاضي قرر (عيّن) أولاد وفا أفندي العلمي، في نصف وظيفة جراح وحكيم باشي بداخل دار الشفاء بالبيمارستان الصلاحي، عوضاً عن أولاد المرحوم يوسف سيفي آغا بحكم وفاتهم. ويبدو في هذه الوثيقة أن المقصود بدار الشفاء هو قسم المرضى العاديين (غير مرضى العيون وغير الأمراض العقلية)، وربما كان هذا القسم هو القسم الرئيس في البيمارستان.

- الوثيقة رقم (٦٦) سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م: مفادها أن السيدين أسعد وخليل ولدي أحمد الداودي، حضرا للقاضي وأخبراه أن من المقرر باسمهما وظيفة الكلارجية ووظيفة الشربتجية بوقف المارستان الصلاحي، بما لذلك من المعلوم وقدره عثمانيان في اليوم، تلقيا ذلك بالفراغ الشرعي من الشيخ عبد الصمد العلمي، ثم فرغا عن ذلك بدورهما للسيد وفا أفندي العلمي، وبذلك قرر القاضي السيد وفا أفندي في العثمانيَيْن المرقومَين، ثم عاد القاضي فقرر السيد محمد الهيدلان في العثمانيَيْن والوظيفتين عوضاً عن السيد وفا أفندي بحكم فراغه له، وهكذا استقر محمد الهيدلان في وظيفتي الكلارجية والشربتجية (أي مأمورين لمستودع المؤن ومستودع الأدوية).

- الوثيقة رقم (٦٧) لسنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م: وخلاصتها أن الحاكم الشرعي قرر شيخين من آل العلمي في وظيفة قراءة سورة يسين في كل يوم خميس ويوم اثنين بالبيمارستان الصلاحي، وإهداء ثواب ذلك لروح المغفور له الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعين الحاكم الشرعي أجر القراءة المذكورة كل يوم ٦ عثمانية. وربما كان ذلك تنفيذاً لشرط بهذا المعنى ورد في وقفية صلاح الدين الأصلية على البيمارستان، حيث ورد نص مشابه لذلك في وقفية صلاح الدين على الخانقاه. وتشير هذه الوثيقة إلى أن وقف البيمارستان كان منعشاً في تاريخ هذه الوثيقة قبل أن يدركه الخراب في القرن التالي.

- الوثيقة رقم (٦٨) سنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م: مفادها أن الحاكم الشرعي قرر الحاج مصلح بن محيي الدين سليمان رئيس الأطباء في القدس الشريف في وظيفة التولية على وقف البيمارستان بما ذلك من المعلوم وقدره ٦ عثمانية في اليوم بدلاً من الشيخين عمر وعبد الرحيم ولدي المرحوم عمر العلمي لعدم تقيدهما بمصالح الوقف.

- الوثيقة رقم (٦٩) لسنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م: تفيدنا بتقرير وفا أفندي العلمي في وظيفة التولية على وقف البيمارستان الصلاحي خلفاً ليوسف سيفي آغا جندجي باش بالقدس الشريف.

- الوثيقة رقم (٧٠) سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م: وهي دعوى رفعها علي وعمر الترهي ومصطفى شرف السخنة على شاهين بن عبيد الله العليوان وابن عمه أحمد بن مشعل من قرية سلوان، على أساس أنهما وضعا يدهما بغير وجه حق على كرم يدعى كرم الترهي بأرض البقعة بظاهر القدس الشريف، وهو من الأوقاف الجارية في وقف البيمارستان الصلاحي.

- الوثيقة رقم (٧١) سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م: مفادها أنه كان من الجاري في وقف البيمارستان دار بخط مرزبان (منطقة الواد بالقدس)، وأن المدعو محمد الهيدلان قد عمّر هذه الدار بإذن متولي وقف البيمارستان، وبعد الكشف على التعمير الذي أجراه محمد المشار إليه أقر القاضي محمد الهيدلان في سكنى الدار مقابل دفع أجرة المثل قبل التعمير.

رباط علاء الدين البصير ورباط المنصور قلاوون

إلى جانب المارستان الصلاحي كانت هناك في القدس، في عهد المماليك وامتدت إلى العهد العثماني، مؤسسات أخرى تؤوي المرضى والمساكين، وأشهرها الربط، وخصوصاً رباط علاء الدين البصير (يسمى اليوم حبس الدم) بباب الناظر في الجهة الشمالية من الطريق، ورباط المنصور قلاوون (في العهد العثماني رباط الحبس) الذي يقابله في الجهة الجنوبية من الطريق، تحدث عنها البحاثة الأوربيون في القرن التاسع عشر الميلادي. وهناك تكية خاصكي سلطان التي يطلق عليها كثير من الرحالة اسم مستشفى هيلانة، وأحيانا يسمونه المستشفى التركي.[١٠]

هذا ما كان بشأن المنشآت الطبية الوطنية العربية الإسلامية في العهد العثماني، ولكن القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهدا تداعي بقايا هذه المنشآت القديمة، وعلى رأسها البيمارستان في حي الدبّاغة، ومن جملتها الربط الآنفة الذكر.

ومع اختفاء البيمارستان الصلاحي وانحطاط أحوال الربط قامت الحكومة العثمانية بمعالجة الأوضاع فبدأت بإقامة المنشآت الطبية الحديثة، وكان أولها المستشفى العسكري التركي بالقدس في دار بحارة الواد سنة ١٨٤٧م. وفي عام ١٨٨٦م قامت بلدية القدس بإنشاء عيادة لمعالجة المرضى مجاناً، ثم في أوائل التسعينات أنشئ المستشفى البلدي في حي الشيخ بدر (روميما بعد ذلك) قرب لفتا، وحولته حكومة الانتداب البريطاني إلى مقر لدائرة الصحة، أما اليوم فقد حوله الإسرائيليون إلى مكتب صحي للواء القدس.[١١]

أطباء القدس والكتب الطبية المؤلفة في العهد العثماني

أعود للقول إن بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا القدس في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي،[١٢] وصفوها بأنها خالية من أي طبيب

١٠ العسلي: مقدمة في تاريخ الطب في القدس، ص ١٧٦، ٢١٤.

١١ تاريخ الطب في القدس، ص ٢١٥ -٢٢٠.

١٢ هو الرحالة يوجين روجيه.

أو صيدلاني أو جراح يمكن أن يساعد في شفاء الأمراض، لكن يمكن إثبات خطأ هذا الرأي استناداً إلى مصادر وطنية متاحة، وإلى خزائن الوثائق العربية؛ كسجلات المحكمة الشرعية في القدس، والتي تفيدنا بأنه كان في القدس في هذا القرن نفسه طوائفُ للأطباء والجراحين والكحالين والبياطرة، وكان الأطباء يعالجون المرضى في البيمارستان الصلاحي. ومن هؤلاء الأطباء عرف بين سنتي (١٠٠٧-١٠١٠هـ/١٥٩٦-١٦٠١م) الشيخ شهاب الدين أحمد بن ناصر المغربي، والطبيب الجراح محمد بن أحمد بن سويسوا المغربي الذي أصبح رئيس طائفة الجراحين في البيمارستان الصلاحي البالغ عددهم ثلاثة بين سنتي ٩٧٢-٩٧٨هـ/١٥٦٤-١٥٧٠م. أما جراحة العيون فقد قامت بها طائفة الكحالين التي عرف من أعضائها في سنة (١٠١٠هـ/١٦٠١م) إسحق بن شحادة. هذا فضلاً عن طائفة الأطباء البيطريين.

وتوجد اثنتا عشرة حجة شرعية عن الطب والطبابة في القدس في القرن العاشر حتى الثاني عشر الهجري/السادس عشر حتى الثامن عشر الميلادي، وهي تلقي أضواء على مهنة الطبابة في القدس في العصر العثماني، كما وتبين لنا تلك الوثائق أن قاضي القدس كان في أحد أوجه عمله مسؤولاً عن الأطباء وعن إقرار تعيينهم أو رفضه حسب الأهلية، ومن هذه الوثائق:[١٣]

- حجة في السجل ٤٥ لسنة ٩٧١هـ تتعلق بضرورة الترخيص للأطباء بممارسة مهنة الطب، ومفادها أن الشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ زين الدين الحكيم رأس الأطباء في القدس، حضر بين يدي القاضي بأمر شريف سلطاني وارد على يديه، مأمور فيه أن لا أحد يعمل طبيباً ولا جراحاً ولا شرابياً (صيدلانياً) بالقدس الشريف إلا بإذنه وإجازته، وكل من خالف ما أمر به الآمر الشريف كان مستحقاً للتأديب. وهذا يعتبر استمراراً لما كان قد بدأه الخليفة العباسي المقتدر سنة ٣١٩هـ/٩٣١م حين كلف رئيس الأطباء سنان بن ثابت بأن يفحص جميع الأطباء الممارسين ولا يمنح إجازات إلا للذين يرضى عنهم، والذي ما زال مستمراً حتى وقتنا هذا.

- وحجة في السجل ٢٦٥ لسنة (١١٩٨هـ/١٧٨٣م) تتعلق بمسؤولية الطبيب

١٣ تاريخ الطب في القدس للعسلي، ص ١٦٢، ١٨١- ١٨٧. عن وثائق الطوائف الحرفية في القدس في القرن السابع عشر الميلادي.

عن نتائج العلاج الذي يصفه للمريض والعمليات الجراحية، مفادها أن محمد بن عبد الله العين كارمي، ادعى على جرّاح يهودي يدعى سلمون أنه تسبب في موت أخيه بسبب إجراء عملية له في كيس خصيته؛ ضربه بالريشة لإخراج ما بها من مادة، واستدعى القاضي للشهادة جراحَيْن ماهرين هما؛ حسن الحلاق وخليل المغربي، وسألهما إن كان ضرب الكيس بالريشة أمراً سليماً من الوجهة الجراحية، فأخبراه أن الكيس إذا انتفخ بمادة أو ريح فيضرب بالريشة، ورفع القاضي صورة الدعوى إلى حسن أفندي مفتي القدس فأفتى بأن الجراح اليهودي لا يضمن ما دام قد أذن له.

- وثيقة بالسجل رقم ٨٥ تتحدث عن تعيين إبراهيم بن موسى جراحاً في البيمارستان الصلاحي سنة ١٠١٣هـ/١٦٠٥م مفادها: بمجلس الشريعة الغراء، ومحفل الطريقة النيرة الزهراء، بالقدس الشريف- أجلّه الله تعالى- قرر مولانا الحاكم الشرعي حسام الدين أفندي وظيفة الجراحة بالبيمارستان الصلاحي بالقدس الشريف، من جملة المبلغ الذي قدره في كل يوم عثماني لحامل ذلك الكتاب الأستاذ إبراهيم بن الأستاذ مرسي الجراح، بعدما فرغ له ولوالده عن ذلك بحسن اختياره ورضاه.

- وثيقة بالسجل رقم ٨٧ لسنة ١٠١٦هـ/١٦٠٨م بتعيين الرئيس أحمد شهاب الدين بن يحيى، مفادها: قرر مولانا قدوة قضاة الإسلام الحاكم الشرعي الأول علي أفندي، حامل هذا الكتاب وناقل ذا الخطاب فخر الأطباء المعتبرين الرئيس أحمد شهاب الدين بن المرحوم يحيى، في وظيفة اثني عشر عثمانياً، في مقابل تعاطي الطب.

- الوثيقة ٦٨ من السجل ١٩٦ لعام ١١٠٥هـ/١٦٩٣: مرت سابقاً وذكر فيها اسم الطبيب مصلح بن محيي الدين سليمان الذي كان رئيس الأطباء في القدس.

- وثيقة تعيين موسى بن محمد الجراح، بالسجل ٨٧ لعام ١٠١٦هـ.

- وثيقة تعيين المعلم محيي الدين بن سلطان الجرائحي بالسجل رقم ١٣٥ لعام ١٥٤هـ/١٦٤٤م.

- وثيقة بتعيين الحاج مصلح الطبيب والجرائحي بالقدس، بالسجل رقم ١٨٨ لعام ١٠٩٨هـ/١٦٨٧م.

- وثيقة تنبه على يوسف بن أبي خضير بعدم تعاطي صنعة الجراحة والالتزام بصنعته، بالسجل رقم ٨٣ لعام ١٠١١هـ/١٦٠٢م.

- وثيقة تعيين حسن عبد الله الرومي السقا لخدمة المرضى في بيمارستان القدس الشريف، بالسجل رقم ٨٣ لعام ١٠١١هـ/١٦٠٢م.

- وثيقة تعيين الحاج محمد بن عبد القادر العجمية في وظيفة خدمة المرضى بالمارستان الصلاحي بالقدس الشريف، وذلك بالسجل رقم ٨٤ لسنة ١٠١٢هـ/١٦٠٣م.

- وثيقة تعيين داود بن محمد العجمية لخدمة المرضى والمجانين بالبيمارستان الصلاحي، بالسجل رقم ٩٠ لعام ١٠١٩هـ/١٦١٠م.

- وثيقة إذن بإجراء عملية سرطان بالفم، بالسجل رقم ١١٥ لسنة ١٠٣٨هـ/١٦٢٨م، مفادها: بالمجلس الشرعي.... حضر محمد بن شرف الدويك وأشهد على نفسه طائعاً مختاراً أنه أذن لعلي بن عصفور من أهالي قرية بيت صفافا، الكائنة ظاهر القدس الشريف، أن يقطع ما به من السرطان الذي بفمه ومنعه الأكل والشرب، إذناً شرعياً، وأنه إن حصل له شيء بسبب شيء فدمه هدر، وحضر أخواه وأمه.... وأنه إن حصل لمحمد المزبور (المكتوب) شيء بسبب ذلك من موت أو غيره فلا حق لهم مع علي المذكور ....

أما المؤلفات في الطب فتطالعنا فهارس مكتبات القدس وغيرها، وكتب التراجم، فتكشف بعضاً من هذه المؤلفات التي كانت في العهد العثماني؛ فمنها عربية ومنها تركية ومنها مترجم عن التركية، ومن هذه المؤلفات:[١٤]

- الدر المكنون في الكلام على الطاعون، لأحمد بن محمد الحنفي الحموي، منه نسخة في المكتبة البديرية في القدس، بالعربية.

- تحفة الأريب النافعة للروحاني والطبيب، بالتركية (لعله) لهزار فن حسين أفندي، في فهرس مكتبة الحاج نمر النابلسي في نابلس.

---

١٤ ١٤٢/ظ/أ مخطوط فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر لمصطفى الحموي ١٠٩٣ دار الكتب بالقاهرة. الموسوعة الفلسطينية ق٢م٣، ص٣٩٨. تاريخ الطب في القدس للعسلي، ص ١٧٠. حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص ١٤٤.

- كتاب في الطب العربي باللغة التركية بعنوان الطريقة المحمدية والسيرة الأحمدية، في مكتبة كلية الدعوة وأصول الدين في القدس.

- في فهرس المكتبة الخالدية بالقدس ثلاثة من كتب الطب باللغة التركية.

- رسالة في حكم العلاج بالحمصة والمقاصد المختصة في بيان كي الحمصة، للشيخ الصوفي الكبير عبد الغني النابلسي المقدسي الأصل والمتوفى بدمشق سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م.

- رسالة في السواك لشمس الدين الرملي المتوفى سنة ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م.

- عَرْف النفحة في حفظ الصحة: مختصر أرجوزة منظوم للشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد الرضى الغزي، أوله: حمدي لك اللهم ما لا ينقضي، بالإضافة إلى مؤلفات أخرى في أعضاء الجسم وعلم التشريح ومفردات بعض الأدوية، في مكتبة جامعة استانبول.

- اللمعة العفيفة في الطب للساري العسقلاني أبي سعيد بن أبي السرور، في مكتبة كوپرولي زاده باستانبول.

ولعل من أهم من خدم مهنة الطب في القدس، علم من أعلام الطب وهو محمد الريّس الغزي الذي أمضى آخر حياته في القدس الشريف وتوفي فيه، وترجم كتاب "غاية البيان في تدبير بدن الإنسان" (لحكيم باشي صالح بن سلوم) من اللغة التركية إلى العربية.

محمد الريّس الغزي (توفي ١١٣٠هـ/١٧٢٨م)

محمد الريّس بن عبد الله بن سليمان بن أحمد الشهير بالريّس الحنفي الغزي، قال عنه المرادي في سلك الدرر: الطبيب الحاذق الشهير العارف الماهر، أحد المتفردين في تلك الديار في علم الطب والحكمة والفلك والهيئة وغير ذلك، حتى إن صيته عم سورية ومصر. ولد بغزة هاشم وبها نشأ، وأخذ عن والده الطب والحكمة وتخرج عليه بذلك، وبرع في الفنون، وعالج الناس واشتهر بالطب والحذاقة في ذلك، وأخذ بعضاً من العلوم الغريبة والفنون من الأستاذ الشيخ عبد الوهاب الطنطاوي، وارتحل إلى مصر ودمشق، وفاق وعلا صيته. وله تآليف في

الطب، وعرّب غاية البيان[١٥] الذي باللغة التركية، وكان من ظرفاء وقته، وكانت وفاته في سنة ١١٣٠هـ ودفن بالقدس.[١٦]

آثاره: ترجم كتاب «غاية البيان في تدبير بدن الإنسان» لصالح بن نصر الله الحلبي المعروف بابن سلّوم المتوفى سنة ١٠٨١هـ/١٦٧٠م، وصالح الحلبي كان رئيس الأطباء بحلب، ثم رئيس أطباء الدولة العثمانية في استانبول بزمن السلطان محمد بن إبراهيم خان، ومن جملة مؤلفاته في الطب له هذا الكتاب باللغة التركية الذي ترجمه محمد الريّس الغزي إلى اللغة العربية، بالإضافة إلى نسخة أخرى ترجمها محمد بن شريف الحلبي سنة (١٢٥٩هـ)، ويبدو أن في عصر محمد الريّس كان هذا الكتاب بالإضافة إلى كتاب آخر لصالح بن نصر الله هو «غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان» كان هذان الكتابان المكملان لبعضهما من الكتب المعتمدة عند معظم أطباء العصر فيرجعون إليها في معالجة المرضى،[١٧] ونحن إذ هيأ الله لنا الهمة لجمع واختصار الكتابين في كتاب واحد وسمناه باسم «الفوائد الفريدة والأمراض الحديثة الجديدة» لصالح بن نصر الله، حيث يعتبر الكتاب آخر كتاب يؤلف في الحضارة العربية الإسلامية وجمع فيه ابن سلّوم كل ما اطلع عليه من جديد في عصره من أدوية ومركبات وأمراض جديدة لم تكن معروفة من قبل، وكذلك ما جاء به أطباء الإفرنج في بداية عصر النهضة أمثال براكلسوس وغيره، وجعلها في كتابيه غاية الإتقان بالعربية وغاية البيان بالتركية، والذي كان فضل نقله إلى العربية إلى الطبيب محمد الريّس الغزي الذي نال شرف الانتماء إلى غزة، حيث ولد ونشأ، وإلى القدس الشريف حيث توفي ودفن، رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنانه.

---

١٥ هو كتاب «غاية البيان في تدبير بدن الإنسان» لصالح بن نصر الله بن سلوم الحلبي المتوفى سنة ١٠٨١هـ، والكتاب قمنا بتحقيقه حديثاً.

١٦ عيسى، معجم الأطباء، ص ٤٥٦. المرادي، سلك الدرر ، ج٤، ص٧١. بلادنا فلسطين، ج١، ص ٨٥.

١٧ يوجد نسخة منه عند ورثة الطبيب جورجي حكيم الذي كان يمارس مهنة الطب برخصة من الدولة العثمانية، وذلك في مدينتي إدلب، وتوفي في أوائل القرن العشرين الميلادي.

فاتحة كتاب غاية البيان

«بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين، وعليه توكلي، وبه ثقتي. بيان استخراج كتاب طب معلق من رئيس الأطباء المدعو صالح بن نصر الله الذي كان في خدمة حضرة السلطان محمد بن السلطان إبراهيم خان وذلك في سنة ثمان وخمسين وألف، واسم الكتاب غاية البيان في تدبير بدن الإنسان، يتضمن حفظ صحة الإنسان وإزالة مرضه، وهذا الأمر يقوم في ستة أسباب ضرورية حسب اتفاق جمهور الأطباء؛ الأول الأهوية المحيطة في الأبدان، الثاني المأكل والمشرب، الثالث الحركة والسكون في البدن، الرابع الحركة والسكون النفساني، الخامس النوم والانتباه، السادس الاستفراغ والاحتباس. ولهذا يجب علينا أن نوضح هذه الستة الأسباب الضرورية وكيفية تعديلها بنوع مدقق.

المقالة الأولى بيان تدبير الأسباب الستة المذكورة وقد قسمناها إلى عشرة فصول وخاتمة، الفصل الأول في بيان تدبير الهواء ....»

مقتطفات من الكتاب

«فصل في الحمى العَرقية،[١٨] يقال لها العَرق الإنكليسي: أول ما ظهر هذا المرض بجزيرة الإنكليس سنة ثمانمائة وسبعة وسبعين هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التحية، وحين ظهوره عمّ خلقاً كثيراً، وبعد أربعين سنة من هذا التاريخ، ظهر وانتشر في جميع بلاد الإفرنجية وتعدا إلى بلاد الإسلامية وهو الآن كثير الوقوع في مدينة إسلامبول، وقد زعم الإفرنج أن هذا المرض حادث لم يذكره أحد من المتقدمين، قال سناروتوس تسمى هذه الحمى دسنكاس يعني الحمى الذوبانية لأنها تذيب البدن وتهزله لكثرة الاستفراغ بالعرق، وسببها كيفية ردية سمية تتعلق بالأرواح والأخلاط وتفسدها وتحللها، وهذا المرض يعقب الحميات الوبائيات والحميات المحرقة، والفرق بينها وبين حمى الدق فإن حمى الدق تتعلق حرارتها بالأعضاء الأصلية فتذيبها، وهذه تتعلق بالأخلاط فتذيبها، وعلامتها أن تنوب في كل يوم من غير برد محسوس مع صداع وخفقان واختلاف

---

١٨ لعلها ما ندعوه حاليا الحمى المالطية.

النبض وسرعته وعظمه، وتفارق بعرق كثير، وقد تطول من سنة إلى ثلاث سنين فصاعداً، فإذا فارقت لم تفارق بالكلية وربما تبقى منها بقية كالحمى البلغمية.

العلاج: تعديل مزاج البدن ومقابلة الكيفية السمية بالأدوية الترياقية؛ ...

فصل في الحب الإفرنجي؛[١٩] وهو مرض خفي سارٍ يفسد الدم وآلات الغذاء وتضعف فيه القوة وتتولد عنه أمراض ردية كثيرة لكونه من الأمراض السمية، وهو من جملة الأمراض التي لم يذكرها الأطباء المتقدمون، لأنه أول ما ظهر في أسبانية من بلاد الإفرنج سنة تسعمائة وأربعة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التحية (١٥٠١م)، وذلك أن ملك أسبانيا جهز عسكراً في البحر إلى بلاد الدنيا الجديدة، فتوصل وملك بعض السواحل، واختلط العسكر بأهل تلك الديار، وتصرفوا بنسائهم، فسرى إليهم هذا المرض بطريق العدوى، لكثرة هذا المرض في تلك الناحية، وانتقل بالسري من تلك الناحية إلى غيرها، إلى أن وصل إلى هذه البلاد، وسمي بالإفرنجي لهذا السبب. وحينئذ يسري بالمعاشرة والمخالطة والمصاحبة، ويلبس لباس المبتلي بهذه العلة. وأعظم ما يوجب سريانه وأسرعه الجماع، ولهذا يقال له مرض الجماع. وقال بعض الأطباء المتأخرين: إنه قد يعرض هذا المرض في الأقطار، ويعمّ خلقاً كثيراً كالوباء والطاعون، وقد يكون أيضاً على سبيل التوارث.

خاتمة

لعلنا في هذا المختصر نكون قد ألقينا ضوءاً على دور العثمانيين في الحضارة العربية الإسلامية، بما قاموا به في القدس من اهتمام بأمور الطب والأطباء ودور الاستشفاء، من خلال متابعة العمل بالبيمارستان الصلاحي في القدس الشريف، ومن مراقبة عمل الأطباء، مع ما ظهر من مؤلفات طبية في القدس في ذلك العهد، خاصة وأن البعثات التبشيرية كانت تتنافس في غزو المنطقة طبياً من بريطانية وغيرها من الدول الأوربية، وذلك بجلب الأطباء الأجانب وإقامة المستشفيات الأجنبية.

---

١٩ يدعى حالياً الداء الزهري Syphilis

هذا بالإضافة إلى المدارس الطبية التي كانت قد أنشأتها الدولة العثمانية في كثير من البلاد ومنها في دمشق سنة (١٩٠٣م)،[٢٠] وقد توافدت إلى القدس أسماء عديدة درست في الكلية الطبية بالآستانة (استانبول) في أواخر العهد العثماني.

وأمام الواقع الحضري والديني والثقافي للقدس، كان دور العثمانيين مكملاً لدور من سبقهم في الحضارة العربية الإسلامية، فتابعت المدينة ازدهارها دينياً وثقافياً وعمرانياً، مما حافظ على هويتها العربية الإسلامية، وساهم في إفشال الهجمة الأوربية والاستعمارية البريطانية والاستيطانية اليهودية.

المصادر والمراجع

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت، ١٩٦٥م.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بكاتب چلبي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر بيروت لبنان ١٩٩٢م.

حميدان، زهير: أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، وزارة الثقافة- دمشق ١٩٩٦م.

الحنبلي، مجير الدين (٨٦٠-٩٢٨هـ): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، دار الجيل- بيروت ١٩٧٣م.

الدبّاغ، مصطفى مراد: بلادنا فلسطين، دار الطليعة- بيروت ١٩٦٥م.

الزركلي، خير الدين: الأعلام، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٩م، دار العلم للملايين بيروت.

ابن سلّوم، صالح بن نصر الله الحلبي: مخطوط غاية البيان في تدبير بدن الإنسان، النسخة العربية، مكتبة واشنطن الطبية ، رقم A١٢.

---

٢٠ شحادة: تاريخ التعليم الطبي في البلاد العربية، ص ٢٦٤. العسلي: مقدمة في تاريخ الطب في القدس، ص ٢٤٧.

ابن سلّوم، صالح بن نصر الله الحلبي: مخطوط غاية البيان في تدبير بدن الإنسان، النسخة التركية، مكتبة يوسف آغا بقونية رقم ٦٣٤٥.

شحادة، محمد كمال: تاريخ التعليم الطبي في البلاد العربية، جامعة حلب- معهد التراث ٢٠٠٠م.

العابد، بديع: المركز التقليدي لمدينة القدس بين التواصل والتقويض، أمانة عمّان، ٢٠٠٨م.

ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج: تاريخ مختصر الدول، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٩٩٧م.

العسلي، كامل جميل: مقدمة في تاريخ الطب في القدس، الجامعة الأردنية ١٩٩٤م.

العمري، ابن فضل الله، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفى عقلة ويوسف أحمد بني ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠١م.

عيسى، أحمد: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مطبوعات جمعية التمدن الإسلامي بدمشق ١٩٣٩م.

عيسى، أحمد: معجم الأطباء، دار الرائد العربي- بيروت ١٩٨٢م.

القفطي، الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦هـ: كتاب إخبار العلماء بأخيار الحكماء، مكتبة المتنبي- القاهرة.

مجلة المعرفة، وزارة الثقافة السورية، العدد ٥٤٤.

المرادي، محمد خليل: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، تحقيق أكرم حسن العلبي، دار صادر- بيروت ٢٠٠١م.

الموسوعة الفلسطينية.

سور القدس: أهميته وخصائصه والأساطير المرتبطة به

د. يوسف سعيد النتشه*

أهمية سور القدس

يعتبر سور مدينة القدس القديمة من أبزر معالم القدس حيث تتميز البلدة القديمة بعدة معالم معمارية بارزة شكلت ملامح هذه البلدة العريقة. ومن هذه المعالم قبة الصخرة، وكنيسة القيامة، وسور القدس. ويحيط السور بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم. ويتميز السور بانه مكتمل، على عكس عدة مدن اسلامية حيث تضم اجزاء من الأسوار التي بنيت حولها. وإضافة إلى ذلك فان سور القدس قد بني في حملة معمارية واحدة، ونسيجه المعماري يحفل بمجموعة من الزخارف الهندسية والكتابية والنباتية الممثلة لمدرسة العمارة العثمانية، علاوة على اهمية التاريخية وارتباطه بشخصية عظيمة كالسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م)، فان السور يحوي عناصر معمارية ممثلة لطراز العمارة العسكرية الاسلامية. و ختاما فان السور هو في الواقع حاضن للمدينة المقدسة وتراثها وهو أول ما يقابل زوارها ويترك عليهم الانطباع المؤثر.

السور قبل التعمير العثماني

مثل بقية المدن التاريخية، ارتبطت نشأة وتطور مدينة القدس، احاطتها بسور يمنعها من الاعداء والطامعين، ولسور القدس قبل العثمانيين تاريخ حافل من البناء والهدم واعادة البناء، حيث صاحب السور المدينة توسعا وتقلصا، وذلك منذ نشأة نواة المدينة اليبوسية قبل عام ١٢٠٠ ق. م. مرورا بالفترات التاريخية

---

* دائرة أوقاف القدس- رئيس قسم الآثار

المتعددة كفترة العصر الحديدي والعهد اليوناني والروماني والفترة البيزنطية. وفي الفترة الإسلامية وردت عدة إشارات عن تعمير السور أو أجزاء منه، ويؤيد هذه الإشارات مظاهر معمارية لا تزال ظاهره في السور، وفي كتابات أثرية تأسيسية تم الكشف عنها مؤخراً. وعليه لا يستغرب إذا ما أدرك أن السور العثماني الحالي، وفي قطاعات كبيرة، يتبع خطوط وأساسات الأسوار التي سبقته، خاصة السور الأيوبي الذي أحاط بالمدينة بعد تحريرها في عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، لكن اضطر المعظم عيسى بن العادل أن يهدم أغلب أجزائه خوفاً من سقوط المدينة ثانية بأيدى الفرنجة وهي محصنه فلا يتم فكاكها. والجدير بالذكر أن الهدم لم يطل الجدار الشرقي والجنوبي المشترك مع سور المسجد الأقصى.

المؤسس

بني السور الحالي لمدينة القدس في أوائل العهد العثماني، هذا العهد الذي امتد لأربعة قرون (٩٢٢-١٣٣٦هـ/١٥١٧-١٩١٧م)، وذلك استجابة لأوامر من السلطان العثماني سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ/١٥٢٠-١٥٦٦م). وهذه معلومة مثبتة على مجموعة من اللوحات الكتابية التأسيسية لا تزال قائمة على بعض أبواب وأبراج السور. وحظيت هذه اللوحات باهتمام عالم الكتابات الأثرية، ماكس فان برشام،[١] الذي قام بدراستها والتعليق عليها في أوائل القرن الماضي. واعتماداً على المعلومات التي وردت في هذه اللوحات وعلى معطيات تاريخية، فإن مشروع سور القدس العثماني قد نفذ فيما بين السنوات ٩٤٤-٩٤٧هـ/١٥٣٧-١٥٤١م، أي أن عملية بناء السور استغرقت خمس سنوات.

دوافع بناء السور

اختلف في دوافع بناء السور العثماني، فالبعض أرجعه إلى رغبة السلطان سليمان في النهوض بالقدس وإعاده المجد إليها، خاصة بعد فترة ركود وإهمال في أواخر العهد المملوكي. ويرى آخرون أن السور بني لأهداف محلية تتمثل

---

١ Max Van Berchem 1923, pp. 437-443

بحماية القدس من غارات البدو، وهناك رأي آخر هو أنه كان ردة فعل لشائعات عن حملة فرنجية جديدة على القدس. وهناك من يرده إلى أسباب دينية لمكانة القدس في الإسلام والرغبة في الذود عنها من الطامعين والأعداء، والواقع ان مشروع كبير مثل سور القدس لا بد وأن تشترك عدة عوامل لتنفيذه.

سور القدس متحف معماري مفتوح

رغم أن الهدف الأساسي من الأسوار هو الحماية والدفاع، وهذا ما نجده في سور القدس لاحتوائه على مجموعة من المظاهر الدفاعية العسكرية مثل الأبراج والشرفات والسقاطات والشرفات الكاشفة والمداخل المنكسرة والخنادق التي تحيط ببعض الجدارن، إلا أن السور يضم مجموعة كبيرة من الزخارف تلفت النظر، قوامها نتوءات حجرية بارزة تسمى الواحدة منها فص، ولوحات زخرفية دائرية تتوزع عند الأبواب حيث يوجد ١١٠ مواضع زخرفة أي ثلث المجموع تقريبا، وعند المزاغل وعلى الأبراج والجدران وعلى الشرفات. وطبيعة الزخرفة على هذه اللوحات معقدة ومكلفة من حيث الوقت والجهد والتصميم والتنفيذ، وهي عبارة عن زخارف نباتية محورة مكونة من وريدات وزهرات وثمار وأوراق وفروع الأشجار. ونفذت الورود على عدة طبقات وبعدد أوراق منوع وصل من ورقة إلى سته عشر ورقة، إضافة إلى تشكيلات هندسية مركبة حيث بلغت ذروتها في النجوم وتفرعاتها، سواء كانت نجوم ثلاثية أو سداسية او ثمانية أو عشارية.

وهنا يحق التساؤل عن وظيفة وهدف هذه الزخارف، وإذا كان السور عسكريا فلماذا هذا الجهد؟ والإجابة أن واقع الفن الإسلامي قد اهتم كثيراً بالنواحي الجمالية بحيث أنه زين قوارير الفنط ورقاب الجار التي لا تشاهد بسهولة، لذا يمكن اعتبار هذه الزخارف تعبيراً عن ذوق ورؤية لجمال وزينة. وإن كان بعض الدراسين يرى أنها تخدم أهدافاً أخرى كونها تعويذة خاصة فيما يتعلق بزخارف النجوم، وآخرون رأوا أن هذه الزخارف تعبر عن معان ترتبط بالكون والوجود والحياة، وأنها تشير إلى انسجام واتساق الكون. خاصة حينما تركب هذه الزخارف فوق بعضها البعض مما يخلق شعوراً يتجاوز الحدود المادية مما يجعل المتعمق فيها يحس بلا نهاية للمكان والزمان.

المشرف على مشروع السور

إن الذي أشرف على بناء سور القدس من الناحية الإدارية والمالية هو محمد چلبي النقاش، الذي لقب بأنه الأمين على الأموال السلطانية والأمين على سور القدس. وكان محمد من أبرز رجال الإدارة العثمانية، حيث ساهم أيضاً في مشروع تزويد القدس بالمياه وفي بناء مجموعة من الأسبلة. وهناك إشارة إلى بعض المساهمات من قبل بايرام جاويش للمساعدة في بناء السور، حيث تذكر بعض الوثائق محاولة إحضار معماريين وحرفيين من مصر لعمارة السور، حيث جرى اتفاق مبدئي مع المعماري ابراهيم ليعمل في السور وذلك في سنة ٩٤٧هـ/١٥٤٠م أي في السنوات الأخيرة من عملية البناء مما يدل على الرغبة في الإسراع في إنهاء مشروع السور. وساعد النقاش مجموعة من الاكفياء مثل أحمد چلبي، وخير الدين ويعقوب چلبي اليازجي (الكاتب) في السور.

مصدر الأموال

ونعرف اليوم أن الأموال لم ترسل مباشرة من استانبول بقدر ما حولت من الشام ومن مدن فلسطينية كنابلس والرملة وغزة والقدس والشام . ويشير السجل في محكمة القدس الشرعية إلى أنه تم جمع ما يقارب من مبلغ ٧٠٧٠٦٤ قطع نقد فضية تعرف باسم سليمانية ملحقة فيما بين محرم ٩٤٢ إلى أواخر سنة ٩٤٤هـ.

أرقام وحقائق عن السور

هذا ويبلغ امتداد سور القدس مع الأبراج والزوايا حوالي ٤٣٢٥ متراً، ويختلف ارتفاع جدران السور عن مستوى الأرضية المحيطة من منطقة إلى أخرى تبعا للمظاهر الطبوغرافية، لكن يتراوح الارتفاع ما بين ٥-١٥م. ويصل سمك السور في بعض المواقع إلى ٣ أمتار خاصة عند الأساس، لكن مقدار السمك الغالب يصل إلى ٥ و ١م. ويوجد في سور القدس ٣٤ برجا، أشهرها برج اللقلق(٩٤٥هـ/١٥٣٨-١٥٣٩م) وبرج كبريت (٩٤٧هـ/١٥٤٠-١٥٤١م). وضم السور حوالي ٣٤٤ مزغلاً (loopholes) و ١٧ سقاطة (machicolations)، ومجموعة كبيرة من الزخارف الدائرية الغفل أو المزخرفة بعناصر هندسية ونباتيه.

أبواب سور القدس

لسور القدس الحالي سبعة أبواب مفتوحة، خمسة قديمة أصليه، وبابان استحدثا لاحقاً. والأبواب الأصلية هي: باب العامود(٩٤٤هـ/١٥٣٧-١٥٣٨م) ويعرف بباب دمشق، وباب الساهرة (٩٤٤هـ/١٥٣٧-١٥٣٨م) ويطلق عليه اسم باب هيردوس، وباب الأسباط (٩٤٥هـ/١٥٣٨-١٥٣٩م) ويعرف بباب الأسود أو القديس اسطفان، وباب النبي داود (٩٤٧/١٥٤٠) ويعرف بباب صهيون، وباب الخليل ٩٤٥/١٥٣٨-١٥٣٩) ويعرف بباب يافا. وأما البابان المستحدثان فهما: الباب الجديد الذي فتح في عام ١٨٩٩ في عهد السلطان عبد الحميد الثاني لذا فهو يعرف أحيانا بباب عبد الحميد، وما يعرف بباب المغاربة وأصله برج بني في عام (٩٤٧/١٥٤٠) لكن وسع ليصبح بابا في عام ١٩٥٣. هذا وهناك فتحة أخرى في السور تقع ما بين باب الخليل وقلعة القدس حيث تم فتحها في عام ١٨٩٨ لتسهيل دخول عربة الإمبراطور الألماني وليم الثاني وزوجته اوغستا فيكتوريا للمدينة المقدسة.

باب العامود

باب العامود، يعتبر الباب الرئيس لدخول المدينة المقدسة، وهو أهم هذه الأبواب، وفي الواقع انه أجملها وأكثرها ثراء من الناحية المعمارية والزخرفية، وهو من أبرز نماذج عمارة القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ليس فقط في القدس بل في عموم مدن فلسطين. وقد لفت هذا الباب أنظار الدارسين والرحالة عبر العصور.[٢] واعتمادا على ما اكتشف من مخلفات أثرية ومعمارية، وعلى ما يتوافر من معلومات تاريخية، فان باب العامود قد مر بتطورات معمارية متعددة قبل بناء السلطان سليمان القانوني له.

موقع باب العامود

يقع باب العامود في الجدار الشمالي لسور البلدة القديمة عند بداية انحدار

٢ للاستزادة انظر قائمة المراجع عند Bieberstein and Bloedhorn: 1994, 2: 271-275 وهناك مزيد عليها عند Schick, forthcoming

الوادي المركزي، الذي يقطع البلدة القديمة من الشمال إلى الجنوب، والذي يعرف حاليا عند أهل القدس باسم الواد. ويؤدي الباب الآن وكما كان في الماضي، وبعد تجاوز ساحة مكشوفة مستطيلة مدرجة باتجاه الجنوب، إلى الطريقين الرئيسين اللذين يقطعان البلدة القديمة من الشمال إلى الجنوب. الطريق الغربي منهما ينتهي اليوم عند باب النبي داود، ويعرف بعدة أسماء حسب مقاطع الطريق، منها طريق سوق خان الزيت، وسوق العطارين وطريق حارة الشرف، وأما الجنوبي فينتهي عند باب المغاربة ويعرف باسم طريق الواد. وعرفت هذه الطريق في العصر المملوكي والعثماني بالشارع السلطاني وطريق وادي الطواحين، وبالشارع الأعظم.[٣]

مسميات باب العامود

أطلق على باب العامود عدة أسماء عبر العصور التاريخية، كباب نابلس، وباب دمشق، وباب القديس اسطفان. وباب العامود، هي الأشهر، وقد ذكرت في ثنايا بعض المصادر والمراجع التاريخية العربية،[٤] وهي التسمية الشائعة حاليا بين المقادسة والفلسطينيين. وهذه التسمية صدى لعمود كان قائما في ساحة باب العمود الداخلية، يستقبل زوار المدينة وفوق هذا العمود كان يوجد تمثال للإمبراطور هادريان جريا على التقليد الذي كان سائدا في تزيين المدن الإغريقية الرومانية بتماثيل تخص الحكام والآلهة الوثنية.

تطور باب العامود وبقايا العهد الروماني

يظهر أن الباب الأول الذي أسس في هذا الموقع، والذي أمر به هيرود أغريبا الاول (٤١-٤٤م) Herod Agripa I، قد دمر على يد تيطس (٧٩-٨١م) Titus في سنة ٧٠م حينما احتل المدينة. وعندما قام هادريان(١١٧-١٣٨م) في عام ١٣٥م بإعادة بناء مدينة القدس وسماها إيليا كابيتولينا Aelia Capitolina، فقد بني في

٣ مجير الدين ١٩٧٣، ٢: ٥٣، سجل ١٤: ١٥٥، ٥٦: ٧٥٢.

٤ راجع المقدسي ١٨٧٧: ١٦٧، مجير الدين ١٩٧٣، ٢: ٤٧، ٥٣، ٥٦، العارف ١٩٦٠: ٤٣٢.

الموقع مدخل تذكاري فخم تكون من ثلاثة عقود.[٥] والعقد النصف الدائري الذي كشفت عنه الحفريات، والذي يشاهد الآن، إلى الشرق قليلاً أسفل الباب العثماني، ما هو إلا عقد هادريان الشرقي. وأما العقد الغربي فلم يحفر حتى تاريخه، في حين ان العقد المركزي، الذي كان أوسع في فتحته وأعلى في ارتفاعه من العقدين الجانبيين، فيقع أسفل الباب العثماني.

وصف باب العمود من الخارج

ومعماريا يوجد لباب العامود واجهتان، شمالية فخمة جدا تقابل الداخل للبلدة القديمة، وجنوبية تودع من يخرج من البلدة القديمة وهما ليستا على محور واحد، ذلك أنه روعي في تخطيط الباب أن يكون منكسرا وبزاوية قائمة تحقيقا لمبدأ عام في عمارة العصور الوسطى العسكرية يهدف إلى إعاقة وكشف المهاجمين في حال تمكنهم من اقتحام بوابة السور الرئيسة. والواجهة الشمالية غاية في الإتقان وهي واجهة حجرية ضخمة تمتد ما يقرب من ٤١,٨٥ مترا، وترتفع بمقدار ١٦,٨٠م حتى بداية شرافات السور العلوية. ولباب العمود لوحة حجرية تأسيسية مستطيلة تبلغ مقاساتها (١٨٠سم×٦٠سم) نقش بها سطران من الكتابة البارزة بخط النسخ العثماني. ورغم حالة الكتابة السيئة فقد حققها ماكس فان برشام[٦] في أوائل القرن الماضي. ونص الكتابة:

«(١) أمر بإنشاء هذ[ا] السور المبارك مولانا السلطان الأعظم والخاقان المكرم سلطان الروم والعرب والعجم (٢)[... سلـ]يم خان خلد الله ملكه وسـ[لطانه في سنة أربع وأربعين وتسعمائة]».

باب الساهرة (٩٤٤هـ/١٥٣٧-١٥٣٨م)

وباب الساهرة باب متواضع مقارنة ببقية ابواب السور، من حيث الحجم والارتفاع والارتداد والشرفات، إلاّ أن زخارفه غنية وتتناسب مع حجمه. ويقوم

٥ Murphy-O'Connor 1996: 14-15

٦ Van Berchem 1923: 438, no. 120

الباب في الجدار الشمالي لسور القدس إلى الشرق من باب العامود، ويوصل إلى أحياء البلدة القديمة الشمالية الشرقية كحارة السعدية وحارة باب حطة. وعرف الباب بعدة مسميات منها باب هيردوس، وباب الزاهرة تحريفا للساهرة ومنها اشتق اسم باب الزهور. وأطلق عليه باب مدلين في عهد الفرنجة.

والباب له تخطيط منكسر، أي مخطط مدخله قائم على زاوية ٩٠ درجة، ومدخله الحالي المستقيم حديث العهد ويعود إلى بداية القرن العشرين، حيث أن خط الدخول الأصلي يقع في الجهة الشرقية. وهو عبارة عن مدخل صغير يعلوه عقد مدبب تتوجه لوحة تخلو من النقش الكتابي المتوقع المعتاد, ويؤدي المدخل إلى دركاه يغطيها قبو مروحي. ثم يؤدي إلى ممر ينعطف إلى جهة اليسار ثم ينفذ إلى داخل المدينة.

برج اللقلق (٩٤٥هـ/٣٨-١٥٣٩م)

يشكل هذا البرج الزاوية الشمالية الشرقية للسور، وهو يقع مقابل المتحف الفلسطيني (روكفلر). وبني هذا البرج في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني، كما يستدل من النقش الكتابي على الوجه الشرقي من البرج.

قد تكون بعض حجارة أساسات هذا البرج قديمة إلا أن سماته المعمارية الحالية عثمانية بحته. ويتكون البرج من طابقين يتم الوصول إليهما عبر مدخل صغير بسيط التكوين من جهة الغرب، ويؤدي المدخل إلى ممر ينعطف إلى جهة اليسار وهو ممر مستطيل الشكل يغطيه قبو نصف برميلي. والطابق الاول عبارة عن غرفة شبه مربعة جدرانها الشمالية والشرقية والجنوبية هي جزء من سور المدينة وفيها طاقات للرماية طولية الشكل. وأما الطابق الثاني فهو عبارة عن ساحة مكشوفة يتم الوصول إليها عن طريق السلم الحجري المقابل لمدخل البرج الغربي. وتتصل الساحة المكشوفة بالممر العلوي القائم في سور المدينة، ويدور الممر مع دوران السور وذلك عن طريق المدخل البسيط القائم في الجهة الشمالية-الغربية منها. ورغم أهمية هذا البرج العسكرية إلاّ أنه يزخر باللوحات الزخرفية الفنية التي تميز سور القدس.

باب الأسباط

لباب الأسباط مكانة مرموقة في تاريخ وعمارة مدينة القدس، فهو الباب الوحيد المفتوح في الجدار الشرقي للبلدة القديمة لمدينة القدس منذ تأسيسه وحتى اليوم. وهو يعتبر من الناحية المعمارية والزخرفية من أفخم أبواب سور القدس بعد باب العمود، علاوة على تخطيطه التقليدى الذي يعكس أساليب العمارة العسكرية المملوكية والعثمانية.

موقع باب الأسباط

يقع باب الأسباط في الجدار الشرقي لسور البلدة القديمة، ويتوصل إليه عبر طريق صاعد من وادي قدرون «وادي جهنم» حيث طريق القدس- أريحا قبل إقامة جدار الفصل العنصري من سلطات الاحتلال الاسرائيلية، وهذه الطريق تفصل بين مقبرتين إسلاميتين، الجنوبية تعرف بمقبرة باب الرحمة، والشمالية باسم المقبرة اليوسفية، نسبة إلى يوسف بن شادي أي صلاح الدين الأيوبي.

أسماء باب الأسباط

وكما أطلق على باب العامود وغيره من الأبواب عدة أسماء عبر العصور التاريخية، فقد حظي باب الأسباط بعدة تسميات لا يزال أغلبها متداولا حتى اليوم، منها إضافة إلى باب الأسباط، باب ستنا مريم، باب القديس اسطفان، وباب الأسود. وهناك أسماء أخرى، لكن أصبحت تاريخية ولا شيوع لها، وكونها ترتبط بالموقع أكثر منها مع الباب الحالي، ومن ذلك باب الغنم، وباب الغور (الأردن) وباب أريحا، باعتبار انه يقود إلى برية «صحراء القدس والى أريحا والغور خاصة وان عدة من أبواب سور القدس قد أخذت أسماؤها من الجهات التي كانت تقود إليها، مثل باب العمود عرف بباب دمشق، وكلك الباب المجاور لقلعة القدس عرف بباب الخليل أو باب يافا.

وفي الأدب الغربي المرتبط بالعقيدة المسيحية عرف هذا الباب ولا يزال باسم باب القديس اسطفان (St. Stephen's Gate) واسطفان هو أول شهيد في المسيحية،

ويبدو أن هذا الاسم اشتهر بعد إجلاء الفرنجة من القدس عام٥٨٣ هـ/١١٨٧م، علماً بأن الموقع الأصلي لباب القديس اسطفان كان يقوم في الجهة الشمالية من سور القدس حيث يقوم باب العمود اليوم.[٧] لكن القدس تتميز بتعدد أسماء مواقعها وتبدلها مع الأيام.

ومن الأسماء الشائعة التداول خاصة في الأدبيات العربية الإسلامية، باب الأسباط وباب ستنا مريم. وكلا الاسمين ديني، فالأول يشير إلى أسباط وقبائل بني إسرائيل (يعقوب) الاثني عشر، والثاني إلى السيدة العذراء مريم والدة السيد المسيح عليه السلام. وأطلق اسم مريم أيضاً على السبيل الذي أنشأه السلطان العثماني سليمان القانوني، والذي يقوم مباشرة بعد مدخل باب الأسباط، وهناك حمام مجاور حمل اسم مريم. وهذا يعود إلى مكانة مريم في العقيدة الإسلامية والثقافة الفلسطينية التقليدية، فهي مثال للطهارة والتبتل، ولوجود كنيسة هناك قريبة عند الجثمانية تعتبر مكان دفن مريم بعد موتها وقبل صعودها إلى السماء حسب اعتقاد بعض الطوائف المسيحية.

وبخصوص تسمية الأسباط، فالواقع ان هذا يدل على مبادئ وتسامح المسلمين وعدم ميلهم للتعصب، فلم يتحرج المسلمون عبر تاريخهم الطويل في القدس من تسمية مجموعة من العمائر والأماكن على أسماء شخصيات وأنبياء من الديانة اليهودية أو المسيحية. وقد نص القران الكريم على هذا التسامح في قوله تعالى في سورة البقرة أية ٢٨ :»امن الرسول بما انزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته ورسله لا نفرق بين احد من رسله...«. وصدى هذا المبدأ موجود في عمائر القدس المتنوعة، مثل قبة موسى، والمصلى المرواني «إسطبلات سليمان»، ومهد عيسى، ومحراب داود، وغيرها من الأماكن.

التخطيط المعماري لباب الأسباط

روعي في تخطيط باب الأسباط ان يكون منكسراً وبزاوية قائماً تحقيقا لمبدأ عام في عمارة العصور الوسطى العسكرية يهدف إلى إعاقة وكشف المهاجمين في حال تمكنهم من اقتحام بوابة السور الرئيسة. ونظمت سقاطات (فتحات عمودية)

---

٧ Murphy-O'Connor 1998: 21

ما بين عقد الباب وصدره، تسمح بإلقاء المواد التي تعمل على إعاقة الاقتحام وتلحق الضرر بالمحاصرين. ويمكن مشاهدة هذه السقاطات إذا ما توقف المرء لبرهة عند أسفل عتب المدخل ونظر إلى الأعلى. ويؤدي مدخل الباب إلى دركاه مربعة معقودة بقبو مروحي متقاطع في مركزه دائرة صماء والأصل فيها ان تكون مفتوحة تسمح بإدخال النور والهواء وتمنع دخول القاذورات والمطر لهذه الدركاه، لكن نظرا لصغر مساحة هذه الدركاه، فيبدو أنها أغلقت، وإذا ما أراد الداخل فيما مضى ان يكمل سيره، فهو مضطر ان يتجه إلى الجنوب بزاوية ٩٠ درجة ليصل إلى الساحة الداخلية لباب الأسباط والتي تعرف بساحة الإمام الغزالي وليصبح قريبا من مدخل المسجد الأقصى. واما اليوم وبعد أن أزيل الجدار الغربي لإتاحة الفرصة لحركة السيارات والدخول إلى البلدة القديمة، فإن الداخل له خيار الاستمرار غرباً في طريق المجاهدين أو الانعطاف جنوبا.

باب النبي داود

الموقع: في القسم الغربي من الجدار الجنوبي للسور، واتخذ اسمه كونه كان ولا زال يوصل إلى مقام النبي داود الذي هو مجمع معماري كبير يشكل تراثاً مشتركاً لمعتقدي الديانات السماوية الثلاث، وإن كان تطوير وأغلب النشاطات المعمارية فيه تنسب إلى الفترة العثمانية. وفي الأدب الغربي يطلق على هذا الباب اسم باب صهيون، حيث يعتقد المسيحيون أن العشاء الأخير للسيد المسيح مع الحواريين تم في علّية عرفت باسم علّية صهيون. وتخطيط الباب مشابه لتخطيط الأبواب الأخرى من حيث الممر المنكسر والزخارف، وإن كانت مزاغل وشرفات الباب تشبه ما هو موجود على بابي الرحمة والتوبة. وعلى الباب نقش كتابي يشير إلى إنشاء السور من قبل السلطان سليمان القانوني مع ذكر سنة ٩٤٧هـ.

باب الخليل (٩٤٥هـ/ ٣٨-١٥٣٩م)

الموقع: في السور الغربي للمدينة، بالقرب من الزاوية الشمالية الغربية للقلعة. وكان يُعرف هذا الباب بإسم باب محراب داود في العصر الإسلامي المبكر وباب داود في فترة الفرنجة واليوم يُعرف بباب الخليل بالعربية وباب يافا في الانكليزية والعبرية.

ويتكون الباب من فتحة مدخل يعلوها عقد حجري مدبب، وصدر العقد يحتضن نقشاً كتابياً تذكارياً يبين إسم السلطان وألقابه وتاريخ البناء. ويغطي فتحة المدخل مصراعان كبيران من الخشب المصفح بالنحاس. ويؤدي المدخل إلى دركاه يغطيها قبو مروحي. ثم يؤدي إلى ممر ينعطف إلى جهة اليسار(الشرق) ثم ينفذ إلى داخل المدينة.

ويتميز باب الخليل باحتوائه على كتابة تأسيسية نصها طويل نسبيا مقارنة بنصوص بقية الأبواب والأبراج، وهي تماثل ما يوجد على أسبلة السلطان سليمان القانوني، مما يلمح أن الفريق المسؤول عن البناء في منطقة باب الخليل، كان قد ساهم في بناء مشروع الأسبلة. ونص الكتابة التي تتضمن القاب السلطان سليمان اضاقة إلى التاريخ هو:

أمر بإنشاء هذا السور المبارك مولانا السلطان الأعظم والخاقان المكرم مالك رقاب الأمم

سلطان الروم والعرب والعجم في البرين والبحرين سلطان سليمان بن السلطان سليم خان

خلد الله ملكه وسلطانه في شهر جمادى الأولى من سنة خمس وأربعين وتسعماية

الأبواب المستحدثة وفتحة السور في باب الخليل

وأما البابان المستحدثان فهما: الباب الجديد الذي فتح في عام ١٨٩٩م في عهد السلطان عبد الحميد لذا فهو يعرف أحيانا بباب عبد الحميد، والهدف منه كان تسهيل حركة التنقل بين البلدة القديمة والمباني الذي أسست خارج أسوار القدس بالقرب من موقع الباب. والثاني يعرف بباب المغاربة وأصله برج بني في سنة (٩٤٧هـ/١٥٤٠م) لكن وسع ليصبح بابا في عام ١٩٥٣م. واتخذ هذا الاسم لأنه كان قريباً من حي المغاربة. هذا وهناك فتحة أخرى في السور تقع ما بين باب الخليل وقلعة القدس حيث تم فتحها في عام ١٨٩٨م لتسهيل دخول عربة الامبراطور الالماني وليم الثاني وزوجته اوغستا فكتوريا للمدينة المقدسة.

الأساطير التي ارتبطت بسور القدس

ارتبطت بضعة أساطير بسور القدس، الأولى توحي بأن سور القدس قد بني من قبل مهندسين اثنين، وأنهما فشلا في ضم جبل النبي داود داخل سور القدس، فتم إعدامهما من قبل السلطان سليمان. وهناك أسطورة ثالثة تتعلق بالسباع التى تزين طرفي عقد باب الأسباط، والأسطورة الرابعة تقول إن سنان باشا المهندس البارع هو من بنى سور القدس.

أسطورة مهندسي السور

نشهد قبرين حجريين على بعد ١٢ مترا إلى الشرق من باب الخليل، وقد أقيما فوق مسطبة حجرية، وهما متشابهان من حيث المساحة (٥٠×١٥٠سم) والشكل وأسلوب البناء، لكنهما يختلفان في شكل رأسي الضريح اللذين يوجدان عند طرفي كل قبر. فتاجيتا القبر الغربي بسيطتا التشكيل، كل منها عبارة عن حجر مصقول من جهة الشرق، وغير مشغولة (خام) من جهة الغرب. وأما القبر الشرقي، فالرأس الذي يقع في الجانب الغربي عبارة عن عمامة رأس متقنة تستند على قاعدة حجرية متعددة الأضلاع مشطوفة الأركان مزدانة بزخارف تأخذ شكل محراب صغير ذي عقد مدبب. ووجود عمامة بهذا الإتقان يلمح إلى أن شخصية المدفون في القبر مهمة فقد يكون عالماً أو فقيهاً أو أميراً متنفذا.

وحتى عهد قريب جداً، لم يعرف من صاحبا هذين القبرين؟ أو متى دفنا؟ أو متى أنشأت هذه التربة ؟ ولماذا اختير هذا الموقع الهام والحساس بالذات رغم بعده عن منطقة المسجد الأقصى التي استقطبت العديد من الأضرحة؟ هل لأن باب الخليل في العهد العثماني كان يستقبل معظم زوار المدينة، - مما يستدعى وقوف الزوار لتلاوة الفاتحة والترحم على روح من هما في هذين القبرين- أم أن أصحاب القبور كان لهم ارتباط ما بقلعة القدس المجاورة؟

ان كون هذه القبور لم يذكرها مجير الدين[٨] مؤرخ القدس والخليل في العهد المملوكي في كتابه الشامل المعروف بالأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، فانه يعزز الميل لاعتبار هذه القبور تعود في تاريخها إلى ما بعد سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٥م

٨ ١٩٧٣، جزءان.

تلك السنة التي وقف المؤلف تاريخه عندها، علماً بأن مجير الدين توفي قبيل سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م. وفي حين يرى كنعان[٩] أن هذه القبور لمجاهدين دون ذكر أي تفاصيل، فإن العسلي[١٠] قد اعتبرهما قبرين مجهولين. وإذا ما اتجه المرء إلى الرواية الشعبية الشفوية فسيجد أن البعض ينسب هذه القبور إلى بني حسن نظرا لوجود مسجد كان قريبا من الموقع قبل بضعة عقود (١٩٥٠م) يحمل هذه التسمية.[١١] لكن لدى مراجعتنا لملف دائرة أوقاف القدس المسمى «مسجد بني حسن»، لم نجد أي إشارة يمكن الاستناد إليها لإماطة لثام الغموض عن هوية هذه القبور. وهناك رأي أخر يرى ان هذه القبور تعود إلى الحاج محمد الصافوتي (انظر: العسلي ١٩٨١، ٩٤)، والذي يبدو أنه كان مقيماً قرب موقع هذه القبور. ولكن ما اكتشف في سجل محكمة القدس الشرعية لا يشير مباشرة إلى ماهية هذين القبرين وكل ما يمكن معرفته ينحصر في ان الحاج إبراهيم بن محمد الصافوطي قام بوقف ثلاثة دور متلاصقة وفرن في موقع هذه القبور وقفا ذريا على نسله من صلبه وذلك في ١٣ رجب ٩٩٨هـ/١٨ أيار١٥٩٠م.

ان أقوى الراويات، بل الأساطير، المتداولة اليوم بخصوص هذه القبور يتمثل في ما يتردد اليوم على ألسنة أغلب أدلاء السياحة في أن هذين القبرين يعودان للمهندسين اللذين بنيا السور للسلطان سليمان القانوني، وقد أمر السلطان بإعدامهما نظرا لفشلهما في ضم جبل النبي داود داخل سور القدس. والواقع أن هذه الرواية الأسطورة مشوقة ومشوهة في نفس الوقت، بما تثيره في النفس حال سماعها من نفور وتذكر بقصة أو مثل «جزاء سنمار» مما يلمح إلى عدم الوفاء وإلى سطوة وظلم السلطان وعدم عدله مع الرعية. ويظهر أن هذه المقولة قد وجدت طريقها لأذهان العامة ومن ثم الخاصة المهتمة بالتراث والسياحة، في مطلع القرن الماضي اعتماداً على ما ذكره -دون أي سند- هانور[١٢] في كتابه بعنوان «الأراضي المقدسة؛ الأساطير والخرافات». ومع أن المرشد السياحي قد يذكر أن هذه أسطورة، إلاّ أن سطوتها وما تثيره في النفس، تجعل المستمع ينسى أنها أسطورة ويتعامل معها وكأنها حقيقة.

---

٩ Canaan, 1924, 33

١٠ ١٩٨١، ٩٤.

١١ العارف، ١٩٦١، ٤٩٦.

١٢ Hanauer, 1907, 61-62

أسطورة عدم إدخال جبل النبي داود في السور

ولم يقف الأمر عند حد الزائر الغربي، بل ذاعت هذه الأسطورة بين أهل القدس، ولم تبق عند هذا التفصيل في قسوة السلطان ومعاقبته للمهندسين، بل تطورت لتكسب سليمان القانوني قوة خارقة. فقد سمع كاتب هذه السطور وهو صبي يافع من يقول إنه حال انتهاء السور، وتقديم بلاغ أو تقرير عن ذلك للسلطان في استانبول، فان سليمان نظر وهو قائم في استانبول في كاس زجاجية شفافة ورأى أن جبل النبي داود(جبل صهيون) لم يدخل ضمن السور، وأنه غضب لذلك، فعاقب المسؤولين عن ذلك بإعدامهما.

فهل امتدت مدينة القدس في العصر المملوكي لتشمل جبل النبي داود؟ والإجابة على ذلك تبين أن الجبل لم يكن فيه من المنشآت إلاّ مقام النبي داود والذي كان حجمه أصغر بكثير من حجم المجمع الحالي للمقام، ودير متواضع للرهبان الفرنسيسكان. وعليه فلا يوجد أهمية قصوى لإدخال هذا الجبل ضمن أسوار القدس، خاصة إذا ما عَرَفَ المرء أن إدخال هذا الجبل سيكلف جهداً ووقتاً كبيراً، وبإدخاله ضمن السور لا تتحقق أي مصلحة أو فائدة دفاعية، خاصة وأن حواف الجبل مائلة بشدة نحو الجنوب والجنوب الغربي، وتكوين الجبل الطبوغرافي وكما يظهر، يشكل حصنا وموقعا دفاعيا بذاته، وبناء سور من أمامه وحوله لن يضيف أي بعد جديد في مناعة منطقة خالية من العمران والسكان. لذا فإن إدخال جبل النبي داود ضمن سور القدس لا يحقق أي هدف ولا اعتقد أنه كان من ضمن أولويات القائمين على بناء السور أو حتى من ضمن خطتهم.

وأثبتت الأبحاث[١٣] أن سور القدس لم يبن من قبل سنان، ولا من قبل مهندسين اثنين فقط، كما تحدد الأسطورة، إنما ساهم في بناء السور مجموعة من المعماريين المحليين ومعماريين من مدينة حلب كان من أشهرهم المعلم درويش الحلبي والمعلم حسين بن نمّر، والذي عرف نسله في القدس لاحقا بعائلة النمّري. وإذا كان صحيحاً أن سليمان قد أمر بمعاقبة المهندسين بالإعدام فلماذا هذا التبجيل لهما المتمثل باختيار موقع مشرف ومرموق لهما وبزخرفة القبرين بتيجان معمارية فنية تناسب شخصية هامة يود أن تتذكر على الدوام. لذا

---

١٣ النتشه، ٢٠٠٤، ٣١.

فإنه اعتماداً على ما تقدم من أدلة فان هذه الأسطورة لا أصل تاريخيا لها. لكن إذا تم هدم هذه الأسطورة فإن السؤال يبقى ماثلا في الأذهان لمن هذين القبرين.

وكان من محاسن الصدف أن كاتب هذه المقالة أثناء البحث في سجلات محكمة القدس الشرعية وقع على وثيقة مقتضبة لكنها مهمة تساعد في جلاء بعض الغموض عن هذين القبرين. وهذه عبارة عن وثيقة[١٤] تقرير موظف لمسقاة (حوض) ماء ملاصقة لتربة حددت باسم التربة الصفدية.

أسطورة أسود باب الأسباط

حيك حول هذه الأسود (السباع) عدة أساطير لا أساس لها من الصحة، أولها[١٥] ما قيل إن هذه الأسود كانت ستأكل السلطان سليم والد السلطان سليمان القانوني، إذا ما هم بتدمير القدس، والواقع أن هذه الأسطورة لا تستحق أي تعليق نظراً لضعفها وتناقضها مع المعطيات التاريخية الخاصة بتصرفات السلطان سليم تجاه القدس واحترامه لها، حيث ورد عنه أنه فرح بفتح القدس باعتبار أنها قبلة المسلمين الأولى، وقد خرج العلماء والأتقياء لملاقاة سليم شاه، وسلموه مفاتيح المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ثم قدم الهدايا لأعيان البلد جميعا وأعفاهم من الضرائب الباهظة وثبّتهم في وظائفهم.[١٦]

وتذكر موسوعة ويبيكيديا الإلكترونية[١٧] أن سليمان وضع هذه السباع ليحتفل بانتصار العثمانيين على المماليك في عام ١٥١٧م، علما بأن أكثر من عقدين يفصلان بين معركة مرج دابق وبناء باب الأسباط مما يضعف هذا الرأي، إضافة إلى أن سليم هو الذي انتصر على المماليك وليس سليمان. وتستمر الموسوعة في اللغط وتنسب سبب وضع السباع إلى الضرائب الكثيرة التي فرضها سليمان على أهل المدينة، مما جعله يرى السباع تهاجمه وبعد تفسير الحلم ونسبته إلى سياسة سليمان الضرائبية فقد قرر بناء هذا الباب ووضع السباع عليه.

---

١٤ Natsheh, 2000, ii

١٥ Murphy O'Connor, 1998, 21, http://en.wikipedia.org/wiki/lions-Gate

١٦ العسلي 1992، 234، Stephan, 1980, 74

١٧ http://en.wikipedia.org/wiki/lions-Gate

وذكر الرحالة التركي أوليا جلبي[١٨] في كتابه سياحتنامه حينما زار القدس للمرة الثانية في عام ١٠٨٢هـ/١٦٧١م، رواية يفسر فيها أسباب اهتمام السلطان سيلمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ/١٥٢٠-١٥٦٦م) بالقدس وقد عزا ذلك إلى حلم مفاده أن النبي محمد-صلى الله عليه وسلم- ظهر في ليلة مباركة للسلطان سليمان وقال له:

«... وإني آمرك ان تنفق الغنائم على تزيين مكة والمدينة وتحصين قلعة القدس لتصد عنها الكافرين عندما يحاولون الاستيلاء على القدس في عهود خلفائك. وعليك ان تزين حرمها ببناء حوض للماء فيه وان تمنح الدراويش فيه هبات المال السنوية وان تزين قبة الصخرة وتعيد بناء القدس». وأردف جلبي قائلاً: «وإذ كان هذا هو أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- فان سليمان نهض من نومه فأرسل من غنائمه ألف كيس[١٩] إلى المدينة المنورة وألف كيس أخرى للقدس».

ويفصل بين عهد سليمان وكتابة جلبي أكثر من قرن، وعليه يجب ان تؤخذ هذه الرواية على محمل الحذر باعتبارها تمثل معارف عصر جلبي، وان هناك أسباباً عملية ودينية أخرى ناقشها كثير من المختصين ودفعت بسليمان للعناية بالقدس وعمائرها، فعصره عصر ذهبي للقدس، وآثاره لا تزال تشهد على مدى اهتمامه وعنايته الفائقة بالمدينة.

والواقع أن هذه الرواية على طرافتها، قد حُرّفت وغيرت في أكثر من موقع[٢٠] بحيث تم إسقاط ظهور النبي-عليه السلام- واستبدل بظهور أسود أربعة تهاجم سليمان وتقطعه إرباً إرباً. وحينما طلب تفسيراً للرؤيا قيل له إن هذا نتيجة لغضب الله عليه، لأنه لم يهتم بمدينة القدس وتركها مهملة حيث جدرانها مهدمة وقلعتها قد أحرقت. وعليه أمر السلطان بالشروع في أعمال المدينة فرممت الأسوار وفتحت الأبواب فيها ونقشت الأسود على هذا الباب.

ولا شك أن هذه الأسطورة لا أساس لها من الصحة، وقد شاعت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لتفسر وجود السباع على هذه الواجهة بأسلوب مشوق، وهي مماثلة لما ذكر أعلاه من أساطير ارتبطت بالسور وساهم فيها

---

١٨ العسلي ١٩٩٢، ٢٣٤، Stephan, 1980, 74

١٩ الكيس يعادل خمسمئة قرش.

٢٠ Vilnay 1984, 143 وراجع أيضاً الموقع الالكتروني لبلدية القدس مادة Lions'Gate http://www.jerusalem.muni.il/jer

مجموعة من غرباء ومحبي المدينة وزوارها حيث كفلوا لها الرواج والشيوع. وهذه تتناسب أحياناً مع بعض الطبائع الإنسانية التي تميل إلى الغريب من القول. لكن مما يلفت النظر أن أغلب هذه الروايات وردت وشاعت في مصادر غير إسلامية أو عربية وتلقفتها عدة جهات بالتحريف والتبديل بحيث وردت بصيغ متنوعة. وحقيقة هذه السباع في الواقع هي رنك «شعار» السلطان المملوكي بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م)، وهذا الشعار كان ينقش على ممتلكات الظاهر بيبرس من عمائر ونقود، وأدوات، كما كان جاريا في العصر المملوكي. وقد نقلت هذه السباع من أنقاض الخان الذي أسسه الظاهر بيبرس في ظاهر القدس، إلى الجنوب الغربي من باب الخليل، حيث محطة سكة الحديد القديمة.[٢١] ومعروف أنه أثناء بناء سور القدس، قد استخدم فيه مجموعة من الأحجار والمواد التي أعيد استخدامها والتي نقلت من عمائر دارسة في القدس وحولها من الأماكن.

أسطورة أن سنان هو باني سور القدس

لقد ذاع بين بعض المهتمين والدارسين[٢٢] أن المعمار سنان،[٢٣] المهندس الموهوب للسلطان سليمان القانوني وأشهر مهندسي الباب العالي في استانبول في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، هو من صمم باب العامود. ويبدو أن هذه النظرية قد شاعت استنادا إلى ما ورد من معلومات في سيرة سنان عن ارتباطه بمشاريع القدس التي نفذها سليمان القانوني،[٢٤] فقد سجلت في مخطوط تحفة المعماريين، المؤرخة في العقد السابع من القرن السادس عشر، ثلاثة أعمال معمارية لسنان في القدس. وعلى ما سجله الرحالة التركي أوليا جلبي في كتابه الموسوم سياحتنامة حيث ذكر جلبي[٢٥] أن النبي محمد عليه السلام ظهر لسليمان القانوني في نومه وقال له:

«... وإني آمرك ان تنفق الغنائم على تزيين مكة والمدينة وتحصين قلعة القدس لتصد عنها الكافرين عندما يحاولون الإستيلاء على القدس في عهود خلفائك.....ثم

---

٢١ مجير الدين، ١٩٧٣، ج٢، ٨٧.

٢٢ راجع Ben Dov 1983: 106; Bahat 1990: 118-119

٢٣ عن سنان انظر على سبيل المثال Stratton 1972; Kuran 1987; Goodwin 1993

٢٤ عن هذه الاعمال راجع Kuran 1987: 283, nos. 402, 403, 404

٢٥ Stephan 1980: 75، العسلي ١٩٩٢: ٢٣٤.

بعث المعمار البارع الخوجا سنان، مع المواد اللازمة إلى القدس».

وقد نوقش هذا الأمر بالتفصيل[٢٦] وتم التوصل إلى نتيجة مفادها أن سنان على الأغلب لم يساهم في تطور القدس المعماري. وبهذا يبقى موضوع من صمم باب العامود مفتوحا للاجتهاد.

من الذي صمم باب العامود... وساهم في بناء سور القدس

وفي ظل غياب دليل جازم عن المهندس الذي قام بتخطيط باب العامود في القدس، وحتى تظهر معلومات موثقة في المستقبل القريب لتحسم هذا الأمر، فلا بأس أن نحاول وضع نظرية بديلة عن شخصية مهندس باب العامود ومدرسته المعمارية التي ينتمي إليها. وكاتب هذه الورقة يميل إلى الاعتقاد بان مصمم باب العامود هو معماري ينتمي إلى مدينة حلب في الشام، قدم للقدس واستقر بها، هذا المعماري على الأغلب هو المعلم درويش الحلبي.

ويستند هذا الاعتقاد على ثلاثة أركان: عناصر الزخرفة، والمعلومات المحفوظة في سجل محكمة القدس الشرعية والتصميم المعماري. وبخصوص التصميم المعماري، فقد لاحظ ما ينكه Meinecke،[٢٧] بعد أن قام بدراسة مبدئية لعمارة القدس العثمانية في فترة السلطان سليمان القانوني، بناء على أساليب معمارية بحتة، أن مشاريع السلطان سليمان استمرت في تبني التقاليد والأساليب المملوكية السائدة في البناء في دمشق وحلب، وضرب مثالاً على ذلك أقبية باب العامود وباب الأسباط وباب الخليل، وقارن ذلك مع بعض الأبواب المتأخرة من حلب والقاهرة، ورجح أنه بدلا من استخدام فرق عمل من وسط أقاليم الإمبراطورية العثمانية، فان فرق عمل من القاهرة أو الشام قامت بالبناء في القدس.

وأيدت وثائق سجلات محكمة القدس جزئيا استنتاج ما ينكه، حيث اكتشف في بحث عشوائي[٢٨] عن أسماء أصول المعماريين، وجود سبعة عشر معمارياً وافداً في مدينة القدس كانوا نشيطين في فترة حكم السلطان سليمان القانوني،

---

٢٦ راجع ذلك في Natsheh 1997: 90-91; Natsheh 2000: 623

٢٧ Meinecke 1988: 269-270

٢٨ Natsheh 2000: 622

منهم ١٢ من سوريا، موزعون بواقع سبعة من مدينة حلب، وثلاثة من أنطاكية، واحد من حماة وواحد من دمشق. وقد حمل هؤلاء المعماريون عدة ألقاب، فثلاثة منهم سموا «المعمار بسور القدس»، وستة منهم لقبوا فقط ب «المعمار»، وأربعة لقبوا بـ «المعلم»، وواحد لقب معمارباشي، وواحد سمي بأسطة، وآخر عرف بلقب معلم السلطان بالسور، والأخير عرف بلقب «معلم مولانا السلطان». وورد اسم دوريش الحلبي من ضمن أسماء المعماريين من حلب وحمل لقبا حساسا هو «معلم مولانا السلطان بالسور».

وفيما يتعلق بالعناصر الزخرفية فهي مرتبطة أيضاً بمدينة حلب، فقد وضح من وصف الباب، بأن صنج عقد الباب قد زينت بزخرفة مميزة لا نجد ما يماثلها في عمارة القدس قبل العصر العثماني، ولا توجد في مبان عثمانية أخرى، فهي مقصورة على باب العامود. ونقصد بذلك صف الحنايا الرمحية التي يشغلها ورقة خماسية. ولعله من حسن الطالع، وبعد جهد في تتبع العمائر المملوكية في مصر والشام ومسح كبير لعناصرها الزخرفية أن أجد أمثلة كثيرة من هذه الزخرفة في مدينة حلب وفي آثارها المملوكية. فهناك زخرفة مماثلة ومتطابقة مع ما يوجد في باب العامود، قام بتصويرها ونشرها ماينكه[٢٩] لعدد من آثار معمارية مملوكية في مدينة حلب. فقد وجدت هذه الزخرفة في كل من خان الصابون، وجامع الأطرش، وجامع الدرج. وهناك أمثلة أخرى في خان أوج، وجامع الصيرواي، وضريح الأمير عثمان ابن أوغل بيك. وعليه فهذا العنصر الزخرفي شائع في عمارة حلب المملوكية المتأخرة، ولا يوجد على حد معرفة الكاتب أمثلة منها منشورة في عمارة دمشق أو مصر المملوكية. وهذا يدلل على مدى تعمق وترسخ التقاليد المملوكية في العمارة وعلى استمرار بعض ممارسات وعناصر الزخرفة المملوكية في الفترة العثمانية.

وبما أن دوريش الحلبي، الذي كان من أشهر وأنشط المعماريين، قدم من مدينة حلب وعمل مبكرا في مدينة القدس، فهو على الأرجح من أوكِل إليه تخطيط وتصميم هذا الباب التذكاري، أو على الأقل ممن ساهم في اتخاذ القرارات بخصوص هيئة وشكل هذا الباب الذي نراه اليوم. لقد حاز درويش على عدة

---

٢٩ للاستزادة راجع Meinecke 1992: 295, 297, 435, 437

ألقاب هامة وساهم في عدة مشاريع حيوية.[٣٠] فمن ألقابه الهامة التي أمكن تتبع البعض منها ما يدل على مكانته وعلو شأنه، ومن هذه الألقاب «معلم السلطان بسور القدس»، «معلم المعمارية بحلب المحمية»، و «معلم المعمارية بالقدس الشريف»، وكان من ضمن ثلاثة معمارية تلقبوا بـ«معلمين مولانا السلطان». وقد ساهم بفعالية في مشاريع تطوير القدس، فمن نشاطه المعماري قام بكشف المدرسة الطازية، واشترك مع آخرين في كشف المدرسة الحنفية، وفي ترميم بيت ابن طاوسة، وأهم من كل ما تقدم أنه عمل مساعداً لمحمد چلبي النقاش الأمين على الأموال السلطانية والأمين على سور القدس، والمشرف على مشروع أسبلة السلطان سليمان القانوني. واعتماداً على ما تقدم فان درويش الحلبي هو على الأرجح من أوكل إليه تصميم باب العامود في القدس.

قصص السور الإنسانية

نحن نعرف يقيناً أنه قريباً من باب النبي داود، حيث القسم الجنوبي من حارة الشرف، سار السور العثماني على أساسات السور السابق، وقد وجد العمال أثناء الحفر في الأساسات القديمة جرة (قادوس) فيها مسكوكات نحاسية وقد أرسلت بعد ضبطها إلى المحكمة الشرعية بصحبة المعماري المعلم حسين بن نمر والكاتب في السور يعقوب اليازجي.[٣١]

وما حصل في موضوع جبل النبي داود وتؤيده المصادر التاريخية ينحصر في بطء العمل والتقدم في البناء في تلك المنطقة من السور، ويبدو أن هذا يعود لقلة مواد البناء المتوفرة لدى الحرفيين، خاصة بعد استمرار أعمال البناء لبضع سنوات. وقلة المواد دفعت بالمشرف الإداري والمالي على بناء السور إلى هدم غرفة لدير الفرنسيسكان لاستخدام حجارتها في بناء السور. وقد حكم القاضي في محكمة القدس الشرعية لاحقاً بإعادة بناء هذه الغرفة.[٣٢] وتؤيد المصادر التاريخية أنه جرت محاولة للإيقاع بمحمد چلبي النقاش، المشرف الإداري والمالي (الأمين على الأموال السلطانية والأمين على عمارة سور بيت المقدس) باتهامه بالتقاعس

٣٠ سجل ١٢: ٩١٠، سجل ١٣: ٢١٢، سجل ١٤: Cohen 1990: 33 144

٣١ Natsheh, 2000, 603

٣٢ Cohen, 1986, 151

في إنجاز السور في الوقت المحدد له، لكن فشلت هذه المحاولة بسبب حرص مساعده درويش الحلبي على قول الحقيقة وشهادته على أن محمداً لم يدخر جهداً في الإسراع في البناء (Cohen, ١٩٨٩).

قائمة المراجع

سجلات محكمة القدس الشرعية ١٢، ١٣، ١٤، ٧٢ ١٥١.

عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، القدس ١٩٦٠م.

العسلي، كامل جميل، بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، عمان، ١٩٩٢م.

العسلي كامل، أجدادنا في ثرى بيت المقدس، عمان، ١٩٨١م؛

المقدسي(١٨٧٧م):

شمس الدين محمد بن احمد البشاري، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، بريل ١٨٧٧م.

مجير الدين (١٩٧٣م):

عبد الرحمن من محمد العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عمان ١٩٧٣م.

النتشه، يوسف سعيد «هل صمم المعماري سنان باب العامود؟»، حوليات القدس، العدد الثاني، ٢٠٠٤، ص ٢٢-٣١، نشر مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

Bahat, D., *The Illustrated Atlas of Jerusalem*, with H. Robenstein, Jerusalem.

Ben-Dov, M., *Jerusalem's Fortifications*: *The City Walls, The Gates and the Temple Mount*, Tel Aviv, 1983 (Hebrew).

Bieberstein, K. and Bloedhorn, H., *Jerusalem, Grundzuge der Baugeschichte vom Chalkolkithkum bis zur Fruhzeit der osmanischen Herrrschaft*. 3 Band, Wiesbaden, 1994.

Canaan, T., *Mohammadan Saints and Sanctuaries in Palestine*, 1927; Hanauer, J., *The Holy Land. Myths and Legends*. London: Sheldon, 1907.

Cohen, A., "On the Expulsion of the Franciscans from Mount Zion", *Turcica*, 18, pp.147-57. 1986.

Cohen, A., "The Walls of Jerusalem," in eds. C. E. Bosworth et al. *The Islamic World: From Classical to Modern Times*, Princeton, New Jersey, 1989, pp. 467-477.

Cohen, A., "The Projects of Sulayman the Magnificent in Jerusalem," *Cathedra*, 57, 1990, pp. 31-51 (Hebrew).

Goodwin, G., *Sinan, Ottoman Architecture and its Value Today*, London, 1993.

Kuran, A., *Sinan, The Grand Old Master of Ottoman Architecture*, Istanbul, 1987.

Max Van Berchem, *Materiaux pour un corpus Inscriptionum Arabicarum*, 2nd part, syrie du Sud: Jerusalem, 3 vols., (Memoires de l'Institut Francaise d'Archeologie du Caire) 1. Jerusalem Ville, part 2, 1923.

Meinecke, M., "Die Erneuerung von al-Quds/Jerusalem durch Osmanensultan Sulaiman Qanuni", in ed. Sh. Sha'th, *Studies in the History and Archaeology of Palestine*, 3 vol. (Proceedings of the First International Symposium on Palestine Antiquities), Aleppo, 1988, vol. III, pp. 257-283, figs.1-23, pp. 338-360.

Meinecke, M., *Die Mamlukische Architektur In Agypten und Syrien (648/1250 bis 923-1517)*, Teil I, Genese, Entwicklung, Und Auswirkungen Der Mamlukischen Architektur. Teil II, Chronologische List Der Mamlukischen Baumassnahmen. Abhandlungen des Deutschen Archaologischen Instituts Kairo, 1992.

Murphy-O'Connor, J., *The Holy Land*, an Oxford Archaeological Guide from Earliest Times to 1700, Oxford-New York, 1998.

Natsheh, Y. S., *Sixteenth-Century Ottoman Public Buildings in Jerusalem*. A study based on the standing monuments and the evidence of the Jerusalem sijill. Ph.D. Dissertation, University of London.

Natsheh, Y. S., " The Architecture of Ottoman Jerusalem", in *Ottoman Jerusalem, The Living City 19517-1917*, eds. S. Auld and R. Hillenbrand, pp. 583-1085.

Schick, R., *The Monuments and Archaeological Sites of Islamic Jerusalem: A Bibliographical Guide*. A Supplement to Bieberstein, K. and Bloedhorn, H., Jerusalem, *Grundzuge der Baugeschichte vom Chalkolkithkum bis zur Fruhzeit der osmanischen Herrrschaft*. 3 Band, Wiesbaden, 1994.

Sharon, A., *Planning Jerusalem*, Tel-Aviv, 1973.

Stephan, St. H., *Evliya Tshelebi's Travels in Palestine (1648-1650)*, Jerusalem, 1980, reprinted of QDAP, vols. 4-9, 1935-1942.

Stratton, A., *Sinan*, London, 1972.

Vilnay, Zev, *The Guide to Israel*, Jerusalem, 1984

http://en.wikipedia.org/wiki/lions-Gate

http://www.jerusalem.muni.il/jer

Bibliography

Abbas, I. 1990 "The Poetry in Palestine up to 1967," *The Palestinian Encyclopedia* (Arabic), 2nd section, special studies, vol. 4, Beirut, pp. 3-28 (Arabic).

Abu Ghazaleh, A. 1973, *Arab Cultural Nationalism in Palestine during the British Mandate*, Beirut.

Abu Manneh, B. 1990 "Jerusalem in the Tanzimat Period, The New Ottoman Administration and the Notables", *Die Welt Des Islams Band XXX*, Leiden, pp. 1-44.

The Arab Cultural Committee in Palestine, 1946, "The Palestinian Arab Book," Jerusalem.

al-Asad, N., 1958, *Trends in Palestine and Jordan*, Cairo (Arabic).

al-Awadat, Y., 1976, *Distinguished Figures in Thought and Literature in Palestine*, Amman (Arabic).

Dabbagh, M., 1975, "Our Country Palestine," Vol. 10, *Jerusalem* (2), Beirut (Arabic).

Kasmieh, Kh., 1973, *Zionist Activity in the Arab East and its Echo: 1908-1918*, Beirut (Arabic).

Khalidi, R., 1991, "Ottomanism and Arabism in Syria before 1914: A Reassessment", in Khalidi, R., Anderson, L., Muslih, M. and Simon, R, (eds.) *The Origins of Arab Nationalism*. Colombia University, N.V. pp. 50-69.

Khalidi, T., 1981, "Palestinian Historiography 1900 - 1948," *Journal of Palestine Studies* Vol. X, No. 3 Beirut, pp. 59-76.

Khalidi, W., 1988, "The Book on Zionism on Zionist Question", in Nashabe, H. (ed.) *Studia Palaestina: Studies in Honor of C.K. Zurayk*, Beirut, pp. 37-81 (Arabic).

al-Khatib, H., 1990, "The Palestinian Literary Critique: 1900-1985) in the *Palestinian Encyclopedia* 2nd section, special studies, Vol. 4, Beirut, pp. 343-423 (Arabic).

Lesch, A., 1977, "The Origins of Palestine Arab Nationalism" in Haddad, W. and Ochsenwald, W., (eds.) *Nationalism in a non-National State: The Dissolution of the Ottoman Empire*, Ohio University, Columbus, pp. 265-290.

Muhafza, A., 1987, *Intellectual Movement during the Awakening Period in Palestine and Jordan*, Beirut (Arabic).

Palestinian Encyclopedia, 1984, Section I, 4, Vol. 5, Beirut (Arabic).

al-Sakakini, Kh., 1955, *That Is the Way I Am, World: The Memoirs of Khalil al-Sakakini*, Jerusalem (Arabic).

Scholch, A., 1989, "Jerusalem in the 19th Century, 1831-1917 AD," in Asali, K., (ed.), *Jerusalem in History*, London, pp. 228-248.

Tibawi, A.L., 1959, *Arab Education in Mandatory Palestine*, London.

Yaghi, A.R., 1968, *The Life of the Modern Palestinian Literary Movement since the Awakening until the Catastrophe*, Beirut (Arabic).

Zaidan, J., 1922, *Famous Orientals in the 19th Century*, (2nd ed.), Cairo, 2 Vols (Arabic).

al-Zirikli, Kh., 1979, *Distinguished Figures*, (4th ed.), Beirut, 8 vols. (Arabic).

struck up a relationship with him. Meanwhile Nashashibi devoted himself to reading the masterpieces of classical Arab literature. During the war, he was appointed teacher of Arabic at al-Salahiyya College.

At the end of the war, he returned to teaching, writing and reading.

Is'af al-Nashashibi devoted his life to two interrelated causes: the linguistic revival and the moral awakening. Although he was the mouthpiece of the upper social class he insisted on the necessity of keeping up with modern progress.

Nashashibi was passionately in love with the Arabic language. None of Nashashibi's contemporaries in Palestine defended it with so much ingenuity and enthusiasm. He had a unique technique in rhetoric and was appropriately granted the title of "The Arabic man of letters".

He later continued his progress, following an obvious trend in technical writing and a tendency to maintain the classical "Turath" in an original and efficient fashion. His approach did not coincide with that of Sakakini. The literary milieu profited greatly from both intellectuals.

Nashashibi enriched Arabic literature with a various collection of works, including speeches, lectures, essays, prefaces and occasional discussions. Besides his educational production, he wrote national poetry in his youth but stopped writing verses after the war.

His linguistic publications during this period consisted of "Proverbs of Abi Tamman al-Tai" and "The Arabic language and its poor conditions". Most of his scattered publications were later collected in book form. In his book "True Islam" - Jerusalem 1935, he stressed that "Islam if truly understood is capable of solving all the problems confronting Muslims today." Nashashibi's understanding of Islam did not prevent him from supporting Darwin's theory in his book *A Brief World in the Process of Science and our Story with it* Jerusalem 1921, nor did it prevent him from supporting western civilization in his book *An Arabic Heart and a European Mind* Jerusalem 1923. As in the case of Sakakini, his effect on his generation transcended the effect of his written production.

events which affected the progress of his personal life as well as his views on politics, literature, society, religion and education. Sakakini was a rebel against old traditions: he revolted against Ottoman authoritarianism and rejected Greek authority in the Arab Orthodox Church. He felt the danger of the Zionist movement "because it tries to construct its existence upon the destruction of others." He called for national unity and felt nothing but contempt for sectarian divisions.

He regarded the schools as the best and most important medium in preparing the new generation. al-Sakakini displayed a spirit of toleration, at that time a distinguishing characteristic of the educated Arab.

Sakakini's name was associated with that of Is'af al-Nashashibi, despite differences in origin, attitude and opinions. While Nashashibi called for linguistic conservatism and elegance in writing, Sakakini was one of the most eminent supporters of flexibility and tolerance in the technique of writing.

Sakakini enriched the Arab library with books, textbooks and essays which were of great benefit to the Arab community. Apart from his various essays and diaries we may mention two of his works belonging to this period: "al-Ihtidha Behidha al-Ghair," "Follow someone's example or model" Jerusalem 1896, and "The Orthodox Renaissance in Palestine" Jerusalem 1913. The later period witnessed Sakakini's most abundant production.

[H]Mohammad Isaf al-Nashashibi, 1885 (Jerusalem)-1948 (Cairo)

Mohammad Isaf al-Nashashibi was born to a highly respected wealthy family in Jerusalem where he attended primary school. On finishing his elementary studies his father enrolled him in the patriarchal school in Beirut "Dar al-Hikma" where his tutors included Sheikh Abdullah al-Bustani and Sheikh Mustafa al-Ghalaiyini. There he made his first acquaintance with literature and fell in love with the Arabic language. He learnt enough French to be able to read newspapers and scientific books.

When he returned to Jerusalem he began to read, write and compose poems. He tried to contact the educated class but stuck to Khalil al-Sakakini.

After 1908 he contributed literary essays to Jerusalem journals and other Arabic literary journals. After Sakakini returned from America, Nashashibi

School. Nakhla Zurayq was his tutor in Arabic. He finished school in around 1893 and worked as a teacher in Jerusalem. He became a member of the literary society "The Flower of Literature" established in 1898. He had intended to leave for Russia to study medicine but later he traveled to England in 1907 and then to the US to continue his studies at Colombia University but his poor living conditions proved an obstacle and he moved from one job to another.

After a year he decided to return home following the restoration of the Constitution. In his diaries, Khalil expressed the hope that this would provide the citizens with an opportunity to establish schools, newspapers and youth societies. Once at home, he started editing the *al-Asmai* journal and the *al-Quds* newspaper. He also gave private lessons in Arabic to foreigners, as well as writing articles. He joined a branch of the Society of Union and Progress in Jerusalem. He was also one of the founders of a branch of "The Arab-Ottoman Fraternity Society" in Jerusalem. Sakakini was an activist in the Orthodox movement in an attempt to resist the domination of the Greek clergy and to reform the conditions of the Orthodox Community, but he failed in his efforts.

In 1909 he joined with other Jerusalem Muslim and Christian men to establish a national school called "The Constitutional School." Students from all religions enrolled in this, which had adopted a modern curriculum.

Arabic was the medium of instruction. It aimed to disseminate Arab nationalistic feeling among the students. In 1914 he was appointed a member of the educational administration in the "Sanjaq." With the outbreak of the Great War, Sakakini was appointed teacher of Arabic at the Salahiyya College established by Jamal Pasha.

In 1917, with the advance of the English troops, the Ottoman authorities decided to send Sakakini to exile and imprisonment in Damascus. His friends devoted a great deal of effort towards his release, which was finally realized at the beginning of 1918 when Sakakini returned to the teaching of English private lessons. He met with his colleagues in cultural seminars. In August 1918, he left Damascus with a group of his friends to join the Arab Revolt. In early 1919, he returned to Jerusalem after a short stay in Egypt to resume his activity in the field of education.

Sakakini was a many-sided man of letters and played a very important role in the modern Arabic cultural revival. He recorded in his diaries all the

Baydas established a unique library in Jerusalem containing old manuscripts and a rich collection of books. He also contributed to the Arab movement and wrote articles in *al-Ahram* and *al-Muqattam*. On the outbreak of the Arab Revolt he was sentenced to death but took refuge in the Orthodox Patriarchate until the British troops entered Jerusalem.

Khalil Baydas' education was founded on a solid basis of classic Arabic culture. He also made use of his Russian education to encourage the dissemination of Russian language and literature in particular and European culture in general. He called for a comprehensive modern cultural revival. His activity was many-sided.

He had particular success in drawing the readers' attention to the significance of the art of the narrative, considering novels the greatest pillars of civilization used to enlighten the mind. Among other things Baydas introduced Arab readers to the most distinguished Russian writers (Pushkin, Tolstoy, Dostoevski, Gorky and others).

His works at this period were prolific. He began his literary career by translating from Russian, and in 1898, he published in Beirut three Russian novels *The Captain's Daughter*, *The Distracted Caucasian* and *The Skilful Physician*. In the same year he published a book in Lebanon on the history of ancient Russia and several educational books and textbooks in arithmetic.

After 1908, he published a collection of novels translated from Russian: *The Misery of the Kings*, 1908, which had been translated from English into Russian, *Terrors of Totalitarianism*, 1909, *The Disguised Beauty*, which was translated from Italian into Russian and *Henry VIII and his Sixth Wife*, 1912-1913, which had been translated from German into Russian.

His historical and educational books included *The History of Flight*, Cairo 1912, *A Trip to Sinai*, Beirut 1912, *The Kings of the Russians*, Jerusalem 1913, *Grades of Arithmetic*, 2 parts, Jerusalem 1913, *Grades of Reading*, 7 parts 1913-1921, *The Balkan Nations*, Jerusalem 1914. He continued his career as a translator and author under the Mandate.

[G]Khalil al-Sakakini, 1878 (Jerusalem)-1953 (Cairo)

As a child Sakakini attended the Orthodox School in Jerusalem and subsequently the Anglican School. Finally he went to the Boys' Preparatory

al-Jawzi mastered many ancient and modern languages (Arabic, Syriac, Hebrew, Greek, French, English and Russian). The Orientalists described him as a fruitful source, calling him Pendeli. Together with other Palestinian intellectuals (graduates of the Russian schools), Bandali worked hard to foster Oriental studies at the Russian universities and to present Arab culture to a Russian audience. al-Jawzi is considered a scholar in linguistics and an accurate historian. He published extensively in the Arabic press in Egypt and Syria, where he attracted a great deal of attention. As far as the East-West theme is concerned, his historical works are of special merit.

Of his works during this period in Arabic and Russian (all were printed in Kazan except the last) we may mention: *al-Mutazila, a historical scholastic research in Islam*, 1899; *Tuhfat al-Arus fi Lughat al-Rus*, 1903 (a Russian dictionary); *Mohammad al-Makki and Muhammad al-Madani*, 1903; *The history of the Jerusalem Church*, 1910; *Mount Lebanon, its history and present status*, 1914; *Research in the Koran*, 1914; *Muslims in Russia and their future*, 1917.

Bandali continued writing on history, particularly on the intellectual movements and civilization of the Arab Muslims.

ʳKhalil Baydas, 1875 (Nazareth)-1949 (Beirut)

Khalil Baydas received his elementary education at the Orthodox School in Nazareth after which he attended the Russian Teachers Training Center for men in Nazareth 1886. Upon his graduation in 1892 he was appointed headmaster of Russian elementary schools in various parts of Syria and Palestine. In 1908 he was transferred to Haifa.

Following the proclamation of the Constitution he issued the *al-Nafa'is* journal in Haifa, and became widely known in cultural circles. Due to his efficiency, the Arab Orthodox of Northern Palestine selected him to administer the Orthodox Community affairs in Jerusalem.

Baydas left the Orthodox School in Haifa and settled in Jerusalem, to which he transferred "al-Nafa'is al-Asriyya" in 1911. It became an inspiration for writers in Palestine, Syria, Lebanon and "al-Mahjar", and was widely read in these countries. Publication was suspended during the war but was resumed for 9 years during the Mandate.

which gives an account of the origins of the Eastern question up to the second quarter of the 18th century. This work was originally a lecture given in Paris 1897 and published in Jerusalem 1925.

His other published work is devoted to a history of the science of literature among Europeans and Arabs and Victor Hugo. The book contains a comparison of Arabic and European literature. al-Khalidi's endeavor to present selective works of Hugo provided Arab readers with accurate translations from the French. The work was originally a series of articles published in al-Hilal (1902-1903) and was later published as a separate book by al-Hilal Press 1904 under the psseudonym of al-Maqdisi. In the later edition of 1912 the name of the author was given.

Ruhi's most prominent manuscripts were "Comparative Linguistics" and "The Zionist Question."

In his unpublished essay on Zionism written between 1909-1912, Ruhi gives a brilliant account of the history of the Jews, especially those in Russia and the Ottoman Empire, and of his own observations on Zionist activity in the Ottoman capital in the late 19th century. He describes Herzl's role in transforming the "Zionist question or the colonization of Palestine" from a charitable, rural movement to an economic and political one. As a member of the Ottoman parliament he was a consistent and forthright critic of Zionism.

EBandali Saliba al-Jawzi, 1871 (Jerusalem)-1942 (Baku-USSR)

Born in Jerusalem, he received his first education at the "Orthodox Deir al-Musallabe School", then at the "Orthodox Kifteen School" near Tripoli. He left for Russia with the intention of studying theology in Moscow, but instead he enrolled at Kazan University (near the river Volga), which was founded in 1804, as a student of Oriental studies and Semitic languages. His M.A. research subject in 1899 was "al-Mu'tazila, a historical scholastic researcher in Islam."

He was appointed professor of Arabic at Kazan University then appointed to the chair of Arabic language and literature at "Baku University" (on the Caspian Sea). He remained there until his death, (he visited his homeland three times in 1909, 1928 and 1930).

school in Nablus and finally the higher secondary school in Tripoli.

After his return to Jerusalem Ruhi attended classes at the al-Aqsa Mosque, where he studied jurisprudence, rhetoric, elocution etc.. He also attended classes at the Alliance School and the Salahiyya School, making himself familiar with different religious and foreign cultures.

He later attended the Sultaniyya School in Beirut and managed to go to Istanbul to attend the Mekteb-i Mülkiye-i Şahane (a higher institute for administrative and political studies) and acquired the certificate in 1893. Because of his acquaintance with the Jamal al-Din al-Afghani circle in Istanbul he was obliged to leave the Ottoman territory for France where he attended the School of Political Science in Paris for three years, then joining the Sorbonne where he studied philosophy, Islamic studies and oriental literature while at the same time becoming acquainted with various fields of modern culture.

He was assigned to teach Arabic at the foreign language society in Paris. At the same time he would participate in scholarly seminars and conferences, give lectures in Arabic and lecture on various Oriental, Arabic and Islamic issues.

In 1898 he was appointed Consul General of the Ottoman Empire in the city of Bordeaux. In the meantime, he published articles in Arabic newspapers and journals in Lebanon and Egypt under the pseudonym al-Maqdisi.

Upon the proclamation of the Constitution in 1908, al-Khalidi returned to Jerusalem where he was elected deputy of his city to the Ottoman Parliament and was chosen as the first deputy-speaker. He was re-elected in 1912. After the dissolution of the parliament the same year, Ruhi briefly visited Jerusalem. Returning to Istanbul he died there at the age of fifty.

A study of Ruhi's biography, as well as his books and articles, depicts him as a prominent intellectual and writer. During his studies he had become acquainted with modern European culture in addition to his mother tongue. His far-reaching scholarly interests were diverse and the range of topics he dealt with was wide-ranging, comprising history, politics, sociology, language, literature and criticism. His many works (articles, essays, lectures and books - some still in manuscript) were filled with critical observations and personal views, usually derived from personal experience.

His published works include "an introduction to the Eastern Question"

languages, hoping that their example would arouse Arab zeal. al-Khalidi is considered one of the pioneers who worked on manuscripts in collaboration with Orientalists. He left a collection of memoirs and essays entitled "Ana" (I), besides a number of lectures. With the support of a few intellectuals, al-Khalidi set up a literary "Ukaz" in Istanbul.

[C]Nakhla Zurayq, 1861 (Beirut)-1920 (Jerusalem)

Nakhla received his education first at an Orthodox Community school and then at the school of "Mu'allem" Butrus al-Bustani. He also attended meetings of the scholars of the Arab cultural revival in Beirut. He mastered Arabic and learnt some English. He came to Jerusalem in 1889 at the request of Anglican missionaries to run a religious bookstore. In 1892, he became headmaster of the Boys' Preparatory School and responsible for teaching Arabic. Nakhla was very proud of the Arabic language and a great admirer of the eloquence and rhetoric of the Holy Qur'an. He also possessed a profound knowledge of Arab Islamic literature, hadith, poetry, proverbs (*amthal*) and the glories "Ayyam" of the Arabs.

The name Nakhla Zurayq stands out among those of the distinguished teachers who transmitted to their eager students the pride in the treasures of classical Arab history and literature.

He selected a number of his students' verses and printed the collection in Jerusalem in 1903. His lodging in Jerusalem became a shrine to scholars and intellectuals who used to listen attentively to him while he was lecturing on literature, poetry, the Arabs and Arabism. His rich library was full of masterpieces on language, literature and history.

He was credited for the awakening of Arabic after a long period of stagnation. He was so proud of his Arabism that he went on wearing his Arab traditional "Kufiyya and Ugal", feeling hatred towards the artificial imitation of the western civilization.

[D]Ruhi al-Khalidi, 1864 (Jerusalem)-1913 (Istanbul)

Born to a well-known Jerusalem family he received his first education at the state elementary school in Jerusalem. Later he attended the "Rushdiyya"

[B]Yusuf Diya al-Din al-Khalid, 1842 (Jerusalem)-1906 (Jerusalem)

Born into one of the most prominent families of 19th century Jerusalem, Yusuf received a different education from the other young men of his age and location. First he studied at the English Anglican school in Jerusalem, then at the Protestant College in Malta and then for a short time at Robert College in Istanbul before returning home. With such a cultural background it is not surprising that Yusuf was acquainted with foreign languages, and was deeply aware of European penetration.

A supporter of the reform policy "Islah" he was appointed Mayor of Jerusalem in 1867. He remained in this post for 6 years until 1874. He served in the Porte's translation office and then as Ottoman consul in Poti on the Black Sea. He then returned to Jerusalem to resume his position as mayor.

Early in 1877 Yusuf was elected to represent the "Sanjaq" of Jerusalem in the first Ottoman Parliament 1877-78. In Istanbul Yusuf became an ardent defender of the constitution. The political trend to which Yusuf belonged shows his adherence to the idea of "Islah". He remained a liberal and loyal Ottoman.

As one of the leaders of the opposition he had to leave the capital following the dissolution of the parliament. He reached Vienna, where he accepted a position as teacher of Arabic and Ottoman/Turkish at the Oriental Academy. A little later he held several administrative posts in various Syrian and Anatolian districts.

Yusuf al-Khalidi was among the first Arab intellectuals to be aware of the Zionist problem. He wrote a letter in 1899 to the French rabbi Zadok Kahn, an acquaintance of Herzl. He implored the Zionists to leave Palestine in peace. If they insisted on their program he predicted the emergence of a popular movement against the Jews.

All contemporaries of Yusuf Diya testified to his literary culture and aptitude for languages.

In 1880 he edited and published in Vienna a collection of poems of the pre-Islamic poet Labid Ibn Rabi'a. At the end of the book Yusuf Diya added the remark "We have strong hope that the Arabs will soon regain their place among the leading civilized nations...". He thanked the European Orientalists for their translation of many Arabic books into European

and to disseminate the best scientific and literary thought of the West.[12]

It is from this period also that Zionism began to attract the attention of Palestinian journalists.[13] On the eve of the Great War, the Arabic press in Palestine and in cities like Cairo and Beirut had become fully alive to the dangers of the Zionist program.[14]

The above-mentioned developments in the cultural life in Palestine and the neighboring Arab countries failed to convince the traditional establishments of the importance of change. Consequently, the cultural dualism created a gap between two groups of people. The first represented traditionally educated people who called for a return to the heritage "Al Turath". The other represented intellectuals who had acquired a modern culture (as well as full knowledge al-Turath) and considered Western ideas trends as an assistance in catching up with the march of the more progressive civilizations.[15]

The individuals selected for this study belong to the second group. Their education was many-sided and it was very seldom that any one of them specialized in one particular intellectual field. We have to admit the difficulty of selecting these figures, because:

1 It is difficult to draw distinct borders between Jerusalem and the neighboring areas. The cultural sources for many figures were outside Jerusalem.

2 It is quite difficult to place any temporal intervals between this period and the period that follows. Very few of the intellectuals selected ceased to render any cultural production, whereas many completed their progress towards the maturity of their views. The reason that some names were dropped is that their production at this stage had not yet attained any great importance.

12 Abu Ghazaleh, 1972, 63.

13 Lesch, 1977, 285-286.

14 Kasmieh, 1973, chapter 5 (For a full account of Arabic reaction).

15 Abbas, 1990, 17.

[2]A study of intellectual life in Jerusalem during the late Ottoman period must include a descriptive assessment of the cultural environment of Palestine in particular and of Syria in general. Palestine has never been an independent unit within the region defined by Arab geography as "Bilad al-Sham". It is out of the question to set up any barriers separating the cultures of the various parts of the neighboring areas, for there are both general aspects and common elements.

Palestine experienced the same social, economic and cultural changes that affected the region as a whole in the late 19th and early 20th century. The cultural changes manifested themselves in many different ways.[4]

Scholarly writings on language, literature and history. The group of Arab scholars who appeared at this time rediscovered the classical Arab literary heritage.[5] Most of their views, which emphasized Arabic rather than Islamic culture, were clearly secular in nature.[6]

There was also a rapid spread of missionary, private and state sponsored education. The wealthy and the high dignitaries clearly had greater access to education[7] but poor students of merit and members of the less distinguished classes had a far greater chance to obtain an education than heretofore. The Christian Arabs were, at first, more open to Western influence than the Muslims.[8] By the beginning of the 20th century the competing Western school system had succeeded in attracting Christian and Muslim Arab students.[9] Furthermore, the colleges and schools of Cairo, Beirut and Istanbul attracted increasing numbers of Palestinian students.[10]

[3]A great number of Arabic newspapers and journals were to appear in Palestine (as in the whole region) after the restoration of the constitution in 1908.[11] They tried both to foster the wealth of Arab cultural achievements

4 Khalidi, R., 1991, 57.

5 Abu Ghazaleh, 1972, 24 (for factors and manifestations of the Arabic cultural revival), see also Zaidan, 1922, vol. 4 (For a general view on the modern awakening).

6 Abu Manneh, 1990, 42.

7 Tibawi, 1956, 20.

8 Ibid, 1956, 21.

9 Khalidi, T., 1981, 61-62.

10 al-Asad, 1970, 18.

11 Khalidi, T., 1981, 63.

Examples of Intellectual Life in Jerusalem in the Late Ottoman Period

Kairia Kasmieh*

[A]Introduction

The object of this study is to present some eminent figures in the intellectual life in Jerusalem in the late Ottoman period. My intention is to revise the conventional image of the cultural barrenness of this period. It seems necessary, before we embark on the biographies of these figures, to clarify the two dimensions of our subject, both of place and time:

[1]Of all the cities in the world, Jerusalem is unique in the status due to its spiritual wealth. Jerusalem, as the third holiest city in Islam, was held in special reverence by the Ottoman Sultans.[1]

The rise of Jerusalem under the Ottomans was not due to its importance for commerce, finance or communications. Rather it was a function of the various and growing religious and political interests focused on the city. Its development reflected the rhythm of the interaction between Ottoman policies, European penetration and regional responses.[2]

One of the most important administrative developments since the late 19^{th} century was the emergence of Jerusalem as a major administrative centre in "Bilad al-Sham" with a privileged status, and, in a way, as the capital of Palestine which emerged as a political-administrative entity within the fluctuating Ottoman divisions.[3]

---

* Damascus, Syria

1 Abu Manneh, 1990, 3.

2 Sholch, 1989, 228, 230.

3 Sholch, 1989, 228.

Parallel to this population increase, the Ottoman administration instigated the opening of new trade centers within the city that unsurprisingly led to an increase in the tax yield. All this would constitute the nucleus of a future Jerusalem that was richly refurbished by the Ottoman sultans from the middle of the 16th century and onwards (13,000 inhabitants in 1554; 14,000 inhabitants in the 17th century).

Bibliography

Başbakanlık Osmanlı Arşivi, *Tahrir Defteri*, no. 427, pp. 261-270.

Başbakanlık Osmanlı Arşivi, *Tahrir Defteri*, no. 1015, pp. 150-195.

Feridun Bey, *Münşeatü's-Selâtin*, I, pp. 483-484.

"Silahşör'ün Fethnâme-i Diyar-ı Arab Adlı Eseri", ed. S. Tansel, *Tarih Vesikaları*, I/2 (1958), pp. 318-319.

İdris-i Bitlisi, *Selimşâh-nâme*, ed. H. Kırlangıç, Ankara 2001, pp. 331-333.

A. Cohen-B. Lewis, *Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century*, Princeton 1978, p. 81-104.

"Kudüs," *DİA*, XXVI, pp. 334-338.

communities, they were numerically strengthened by the appearance of a Coptic community, albeit composing only of 32 males of whom 26 were recorded as married.

On the other hand, the Assyrians were recorded as forming 13 households in the same residential zone as the Moors. There was another small Christian community in the neighborhood of Risha which indeed mainly housed Muslim families; and the Melkites were also settled somewhere in the vicinity of the latter neighborhood. At the time of the second survey, a Frank monastery was recorded with 19 households, with monks bearing the names Marko, Van Clif, Bernardo, Tomas, Giovanni, and Gabriel. In addition to that, the second register included three monasteries in the neighborhood of Bani Harith, namely Zeytun, Andreas, and Mar Yaqub, the latter serving as proof for the existence by this time of an Armenian community. On the other hand, the Jewish community of the city, which had been recorded as 199 households in the first register, had now, in the interval between the two surveys, spread into three other quarters (Maslah, Sharaf, Risha), this time with a total number of 224 households. The bulk of the Jewish population seems to have had local origins. According to the second Ottoman survey, in contrast to the previous one, the Muslim and non-Muslim households were living within the boundaries of the same neighborhoods. As a conclusion it would appear safe to say that the initial Ottoman survey of Jerusalem provides ample information on the residential, social, and ethnic outlook of the city during the last years of Mamluk rule.

The second survey made thirteen years later marks the transition period during which Ottoman administrative practices permeated into this inherited social and residential entity. Thus it enables us to understand the demographic and economic developments through which Jerusalem passed in the early years of Ottoman rule. In the light of the entries contained in the two Ottoman surveys held during the first thirteen years of the Ottoman regime in Jerusalem, one can come to the conclusion that Jerusalem developed into a rather highly populated town during the early ẹstablisḥment of Ottoman rule. To this end, one can compare the demographic figures in the two survey registers according to which the population of Jerusalem grew to approximately 8,000 inhabitants consisting of 1,168 Muslim, 136 Christian and 224 Jewish households from its initial figures of nearly 4,700 people forming 616 Muslim, 119 Christian, and 199 Jewish households.

detail that some of them were called "Abdullah" alongside common names for the believers of the three religions. Probably because of the prevailing Ottoman approach during the first survey, Ottoman administrators did not feel the necessity of including the clerics of western origin dwelling in the monasteries in Jerusalem in the overall registration.

According to what can be understood from the first Ottoman survey, the most populous neighborhoods in Jerusalem at the turn of the 16th century were Bab al-Khitta and Zaraine, followed by Bab al-Qattanin, Sharaf and Bab al-Amud, which supposedly formed the trading center in the city. These neighborhoods can still be identified at the present day and, as mentioned above, the data preserved in the first survey register serves as a clear indication as to the residential layout of Jerusalem before it was conquered by the Ottomans. According to the second Ottoman survey of the city, presumably dated 945/1539-40, Jerusalem maintained its landscape to a great extent unchanged during the thirteen years that probably marked the transition period into Ottoman rule. The Ottoman administration must have encouraged a flow of population into the city, as observed in the second survey, in which, even though no new administrative settlements were recorded, the total number of the city inhabitants increased substantially in both the Muslim and non-Muslim communities.

During this period, the number of households increased from 110 to 166 in Bab al-Khitta, from 102 to 128 in Qattanin, from 110 to 159 in Zaraine, from 78 to 101 in Bab al-Amud and from 46 to 117 in Bani Zayd with an especially large increase in the neighborhood of Sharaf from 89 to 266 households. In addition to the rise in the general population, several groups of newcomers settled in the city. Among those, one curious example is that of a Turcoman family named Döğerler of which, in the second survey register, 15 households were recorded in Bab al-Amud while 7 households were reported to be living in Bani Zayd. Furthermore, in those years, the number of the inhabitants having the appellations of Turcoman, Rumi, Kereki, Halebi, Antaki, Nablusi, Mısri and Karamani in the city had also risen. Taken altogether, it might well be claimed that, in order to repopulate Jerusalem, the Ottoman administration undertook an elaborate settlement project in the early years of Ottoman hegemony. The first years of Ottoman rule in Jerusalem also witnessed a slight rise in the non-Muslim population. Although there was no drastic change in the already existing Christian

after the main gates of Jerusalem one of them was denominated as the main trade center of the city.

In the order adopted in the register, the names of the quarters were Bab al-Khitta, Bab al-Qattanin, Zaraine, Risha, Bani Harith, Aqabe Sitt, Khalidi, Sharaf/Alam, Bab al-Amud and Bani Zayd, all of which were completely inhabited by Muslims. In addition to these, there was a Moorish minority consisting of 31 households who, according to the notation in the register, enjoyed a sojourner status (*mücavir*) within the boundaries of their district, the revenues from which were allocated to a *zawiya* by Salahaddin al-Ayyubi. This entry also serves as an indication of the fact that, on some occasions, Ottoman land surveys can include historical data stretching back to much earlier times than the date on which the given register was actually compiled. A quick glance at the entries regarding the Muslim quarters in the register would reveal that there are some explanatory notes under the name of each individual indicating their occupation, family name, and original homeland. For instance under personal names one would come across family names such as *Rumi* (from Anatolia/Ottoman), Turcoman, Kurdish, Circassian, of Aleppo, of Dakuk, of Çağun, of Kabun as well as professional denominations like carpenter, tanner, and dyer. In this instance it can be asserted that, albeit few in number, the inhabitants described as *Rumi* were the first Ottoman settlers of the city. The majority of the Muslim population was employed in the service of the mosques in Jerusalem.

The remaining religious communities, namely the Jacobites, Melkites, and Assyrians were recorded in the register as separate congregations. On the other hand, this did not necessarily mean that they had no specific districts. This way of recording rather implies that Ottoman surveyors had retained the accepted Ottoman custom of taking the Muslim population as the basis for the registration process. Yet, it is highly probable that the remaining religious minorities lived in the areas that had been allocated to them within the city a long time previously. According to the register, Jerusalem harbored 96 Melkite, 15 Jacobite, and 8 Assyrian households together with 199 Jewish males at the time of the first Ottoman survey of the region. A closer look at the personal names included in these communities reveals that most of their members bore names of Arabic/Semitic origin with the result that none of the Jewish names recorded in the register bear any resemblance to those of their western co-religionists. It is a rather striking

and a means of appealing to God in absolute humility before resuming his campaign towards Cairo. Yet it had a very real symbolic value, because the manner in which the Sultan approached the religious congregations in the city appeared to be a clear indication of the likely attitude of the Ottoman administration in religious issues. In addition, this visit paved the way for the future claims of the religious congregations of the city that Selim I had granted certain concessions to them during his visit to the city; a claim which was approved by the central Ottoman administration when dealing with the disputes regarding the various religious identities in Jerusalem.

On his way back from the Egyptian campaign, Selim I stopped in Damascus where he received several diplomatic envoys. Meanwhile, he ordered the survey of the lately seized lands, a practice which led to the establishment at short notice of an Arabian province in administrative terms. By 1519 the land survey of the bulk of the territory had already been completed. Gazza and Jerusalem were most probably among the places registered by the Ottoman surveyors at this time, but the first Ottoman land survey of the region has not survived. However, another register dated 932/1524-25 is of great significance in that it reflects the prevailing conditions in Jerusalem during the early days of Ottoman rule. This register is also important in that it indicates the underlying motives in the registration process of the city which was naturally a holy place for Ottoman administrators. And last but not least, it sheds valuable light on the material conditions of the city under the Mamluk regime, providing a viable counter-example for comparison with the succeeding Ottoman surveys of the region throughout the 16^{th} century. In the face of the fact that there is only scattered information about the physical conditions of the city prior to the Ottoman era the entries contained in this survey register gain further significance.

The population of Jerusalem in the Mamluk period was estimated to number around 10,000 at certain times, with some sources providing slightly higher numbers. There is no doubt, however, that on the eve of the Ottoman conquest, the city was already in ruins and there had been a considerable decrease in population. In fact, this state of affairs is duly confirmed by bits of information included in the aforementioned Ottoman survey register wherein the entire population of the city is divided into ten districts. According to the register these districts were somewhat crowded together around the centre of the city; and while three of them were named

entered upon his first spiritual visit in the city. The Sultan took fifty-five paces to reach the stairs, fifteen steps to ascend the stairs, and a further sixty paces to reach the entrance. Here he first visited "the pomegranate of the Prophet David and the date of Hamza", then walked around the Rock and finally went thirteen steps beneath it where he performed a *salat*. Thereupon he climbed back to the Rock and performed another *salat* and invocation in front of the *mihrab* to the left of the Rock. When leaving the sanctuary, the Sultan dispensed lavish largesse to its curators. He then once again went down beneath the Rock, paced through the yard in a hundred and fifty steps and came to al-Aqsa Mosque. There he was welcomed by the curators of the shrine who were holding candles in their hand. The Sultan then entered the *masjid,* the interior of which was lit by 12,000 oil lamps. He walked to the *mihrab* in eighty five steps; performed the sunset *salat* together with the regular members of the congregation. Following the prayer he visited the two gigantic pillars on each side of the *mihrab* where he stood motionless for a time, then came back to the *mihrab* and gave himself up to prayer after performing another *salat*. He then continued to pray till the time of the maghrib *salat* when he performed the last *salat* of the day at the same place, after which he again distributed largesse to the curators before he left. Outside the *masjid* he mounted his horse and, escorted by men carrying oil lamps and torches, rode back to his pavilion where he spent the rest of the night.

Next day Selim I ordered the sacrifice of large numbers of lambs, camels, and oxen. He then rode to the Dome of the Rock on horseback, visited the shrine before the sunset where he again performed a *salat* in the al-Aqsa Mosque; and then made his way through Jerusalem halting at each place of religious significance. To this information İdris-i Bitlisi adds the fact that during this tour the Sultan visited the tombs of the prophets Ishaq, Yaqub and Yusuf as well as a cemetery in which 200 holy Israelites had been buried. According to him, Selim I also ordered him and Mehmed Effendi of Isfahan to recite ten verses from the Holy Qur'an for each of the tombs within the cemetery. In the end, the Sultan distributed generous alms and largesse to all the inhabitants of the city without discrimination. According to what has been described so far about his visit to Jerusalem, it is apparent that Selim I displayed his interest mainly in two shrines of the city, the Dome of the Rock and the al-Aqsa Mosque. It seems that this served as spiritual guidance

and a joint symbol for all the Ottoman subjects of the three religions. Thus, the unexpected visit of Selim I accompanied by a magnificent retinue bore a truly symbolic significance.

Only a few of the contemporary Ottoman sources give a detailed account of the Sultan's visit to Jerusalem. For this reason, the information provided by İdris-i Bitlisi, who accompanied the sultan as far as Jerusalem and who in fact had advised the Sultan to embark on this journey, is of prime importance. According to his account, when Selim I expressed his desire to visit Jerusalem some statesmen objected to the idea on security grounds and stated that such a journey would be much more appropriate after the imperial campaign had been successfully accomplished. At this point İdris-i Bitlisi intervened and persuaded the hesitant Sultan that he should immediately ride to this sacred town at all costs.

İdris-i Bitlisi further reinforced his advice by quoting a hadith meaning "There are only three places of worship to strengthen men, al-Masjid al-Haram, al-Aqsa Mosque, and my masjid". He then went on to assert that in conformity with spiritual and earthly regency, the sovereignty of this sacred place belonged to the prophets Sulayman and Dawud; and it would be shameful not to visit these shrines blessed by them. He also declared that it was the duty of a glorious Sultan to show respect to those who whose path he followed. Furthermore, he compared this situation with a functionary appointed by the sultan who refused to pay homage to the sultan even though he came very close to the imperial threshold. In the end, İdris-i Bitlisi writes that Yavuz Sultan Selim was influenced by his words and in order to see this sacred place, despite all possible dangers, headed for Jerusalem from Remle and reached the city towards evening without stopping anywhere on the way.

The Ottoman chronicler Silahşör provides quite detailed information on the places visited by the Sultan in Jerusalem. According to him, Selim I reached the city around the time of evening prayer in the company of 500 infantry equipped with firearms, 1,000 royal cavalry, and some statesmen from his intimate circle. The imperial pavilion was erected on the outskirts of the city where the Sultan rested for a while and from whence he dispatched his messengers to al-Aqsa Mosque to inform the curators of the sanctuary that he would perform the evening prayer there. He entered the city on horseback and rode to the front gate of Dome of the Rock where he dismounted and

that would emerge in his way.

In this regard, the leading factor that turned the Ottoman-Mamluk rivalry into an armed conflict was the cooperation between the latter and the Safavids. In the face of all these considerations, during his fight against the Mamluks Selim I promoted the idea of a united Muslim world under a single banner. It appears that in this strategic planning, the days he had spent in Aleppo and Damascus after the victory of Mercidabık (1516) played a major role. In my opinion, during his stay in Damascus, the Sultan had actually planned to break down Mamluk rule in order to take over the defence of the holy cities, and to end the Portuguese threat hanging over these places. With this in view, during his march from Damascus to Cairo he took control of Palestine and its coastal strip and, more importantly, he visited Jerusalem, a city bearing a particular significance for the Muslims as well as the congregations of the other two heavenly religions, thus displaying his intention to undertake a religious role, although the city was well away from the actual campaign itinerary.

Jerusalem had, no doubt, been a port of call for Turkish pilgrims well before the visit of Selim I but the entrance of the Sultan into the city marked the commencement of Ottoman sovereignty over the region. Actually, the Sultan had already developed some administrative plans concerning Aleppo, Tripoli, Damascus, Hama, Hims, Jerusalem and Gaza even before he set out from Aleppo to Damascus and he had appointed Ottoman governors to these places in advance. According to chronicler and calligrapher İdris-i Bitlisi who accompanied the Sultan in the campaign, Jerusalem had already been granted to the renowned frontier family, Evrenosoğlu, while Gazza had been put under the jurisdiction of İsabeyoğlu. The Sultan had then headed for Cairo but departed from the main road at Remle to visit Jerusalem. Sultan Selim's stay in Jerusalem played a significant part in the religious role he aimed to assume. In doing so, he manifested a twofold intention that he would undertake the protection of the holy places in person and that he would also represent the traditional Ottoman imperial vision. As a matter of fact, the Ottoman imperial vision implied the cohabitation of various religious identities under Ottoman rule and the Ottoman administrators had obtained a relative expertise in this matter during their early confrontations with the Christian communities in the West. Accordingly, the city of Jerusalem was to be a symbol of this approach

The Early Period of Ottoman Rule in Jerusalem

Feridun M. Emecen*

The city of Jerusalem, blessed by all three heavenly religions, witnessed a development on an unprecedented scale in terms of population and size after it came under the administration of the ever-growing Ottoman Empire in the early 16th century. How the Ottomans approached the city can best be understood in relation to the universal religious tradition to which the Ottomans belonged. Following the incorporation of Jerusalem into Ottoman territory in the reign of Selim I, the Ottoman administration maintained the social, ethnic and religious infrastructure of the city on the one hand and sponsored the establishment of charitable foundations within the city on the other. This paper will examine how Selim I, who had visited the city during his well-known Egyptian campaign, perceived the integration of Jerusalem into Ottoman territory and the physical and demographic structure of the city in the transition period from Mamluk to Ottoman hegemony in the light of early Ottoman cadastral registers.

As is well known, the major concern of Selim I after his accession to the throne was to eradicate the Safavid threat in the east which, according to him, posed an essential challenge to the political and religious amalgam of the Ottoman state. Yet, his actions in this field led him inevitably to a confrontation with the Mamluk sultanate. In the beginning, despite the political struggles between the two states dating back to the reign of Mehmed II (the Conqueror), Selim I had no intention of launching a military operation against the Mamluks, as he was well aware of the fact that an open conflict between two Sunni powers would have adverse repercussions on public opinion. However, as he set the collapse of the Safavid as the principal goal of the Ottomans, he was determined to eliminate any obstacle

* Prof.Dr., Istanbul University, Department of History

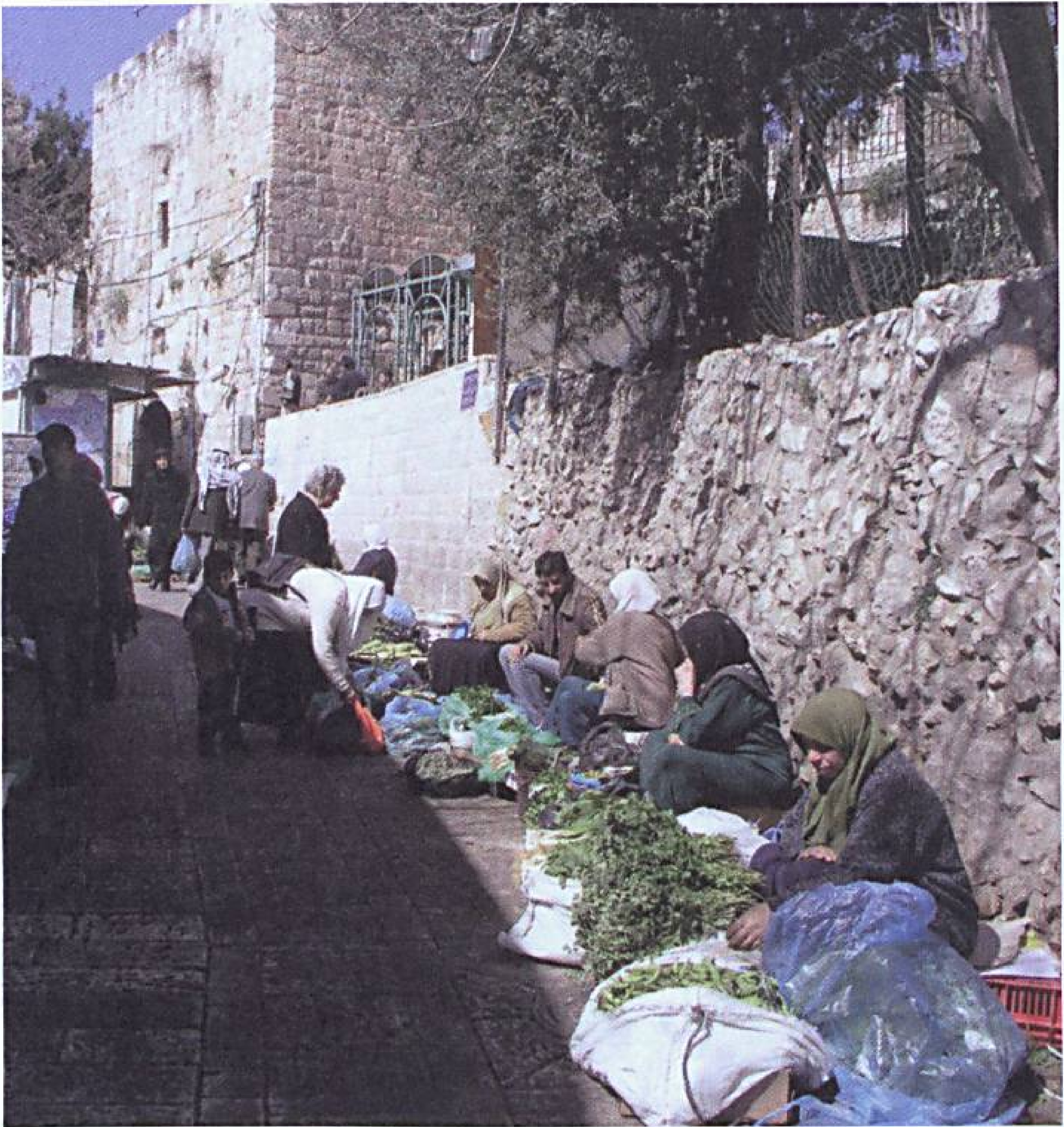


Photo 18 Friday morning vegetable sellers inside Bab al-Sahira (Herod's Gate)



Photo 17 This photograph by Auguste Salzmann of 1857 shows the baroque dome on the Sabil Sha'lan.

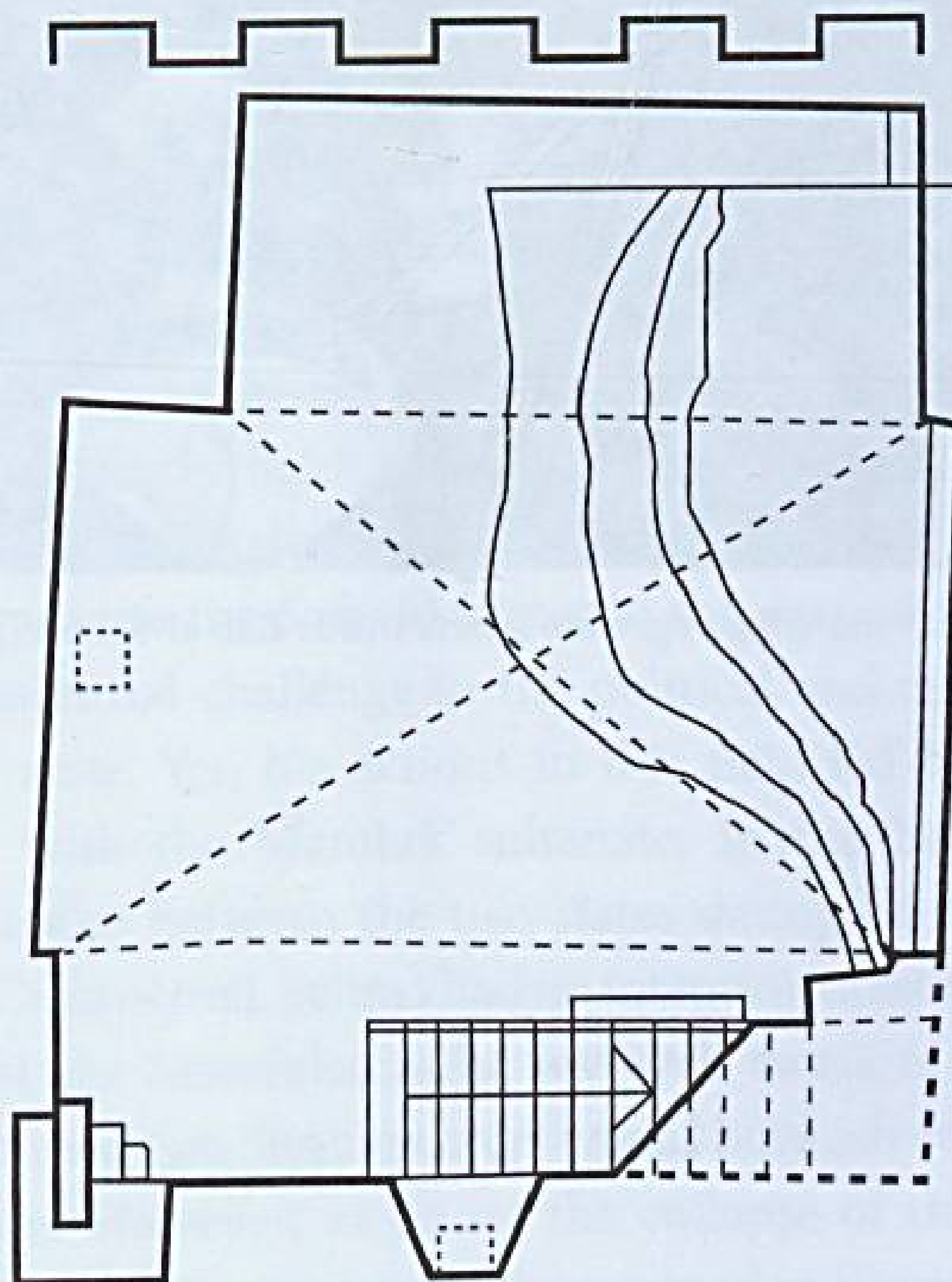


Figure 3 Muhammadiyya basement plan
(after Yusuf Natsheh, *Ottoman Jerusalem*, London 2000)

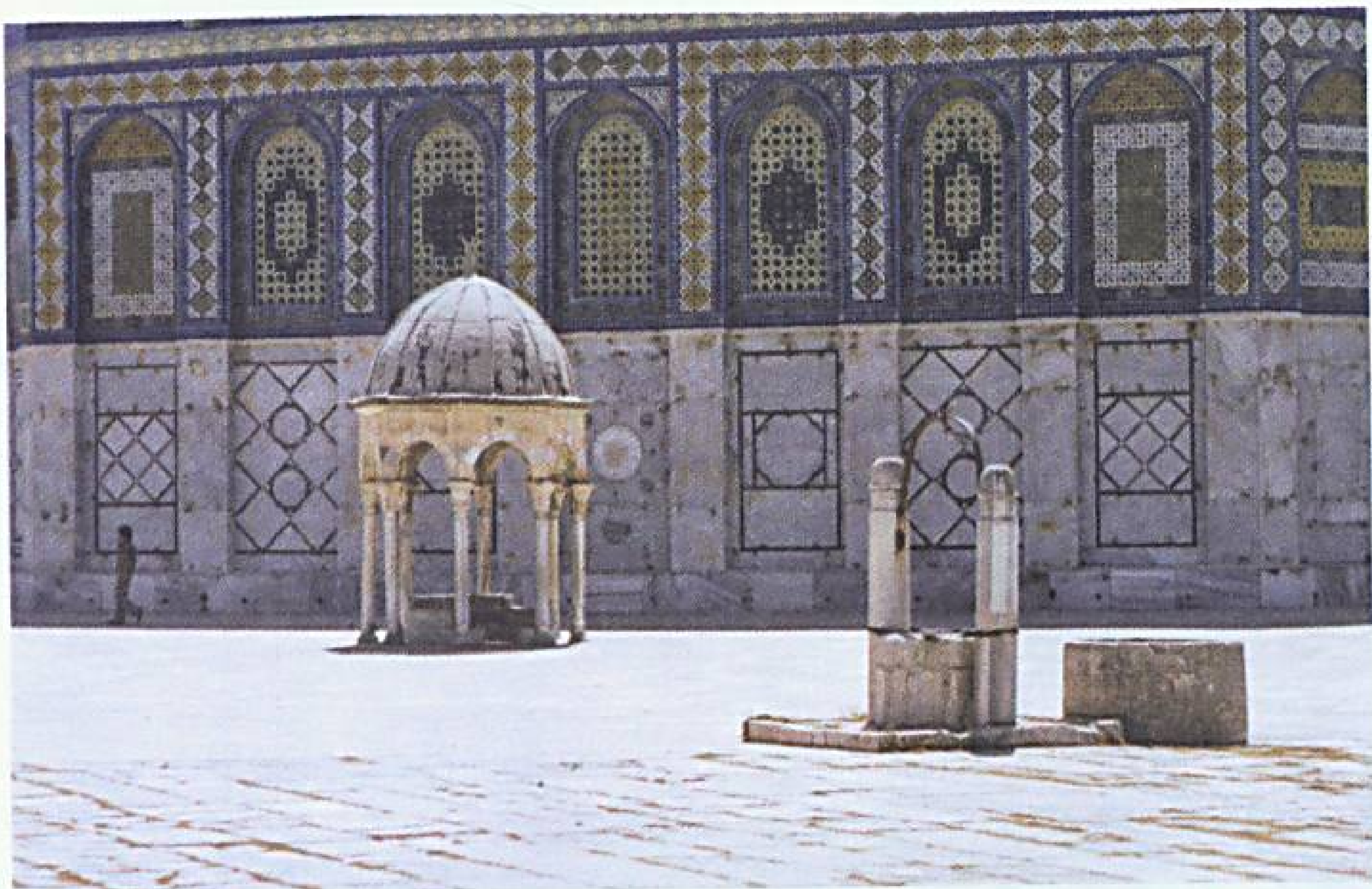


Photo 15 Qubbat al-Nabi



Photo 16 Haram colonnades faced with render and decorated with painted patterns applied during the reign of Sultan Abdulaziz.

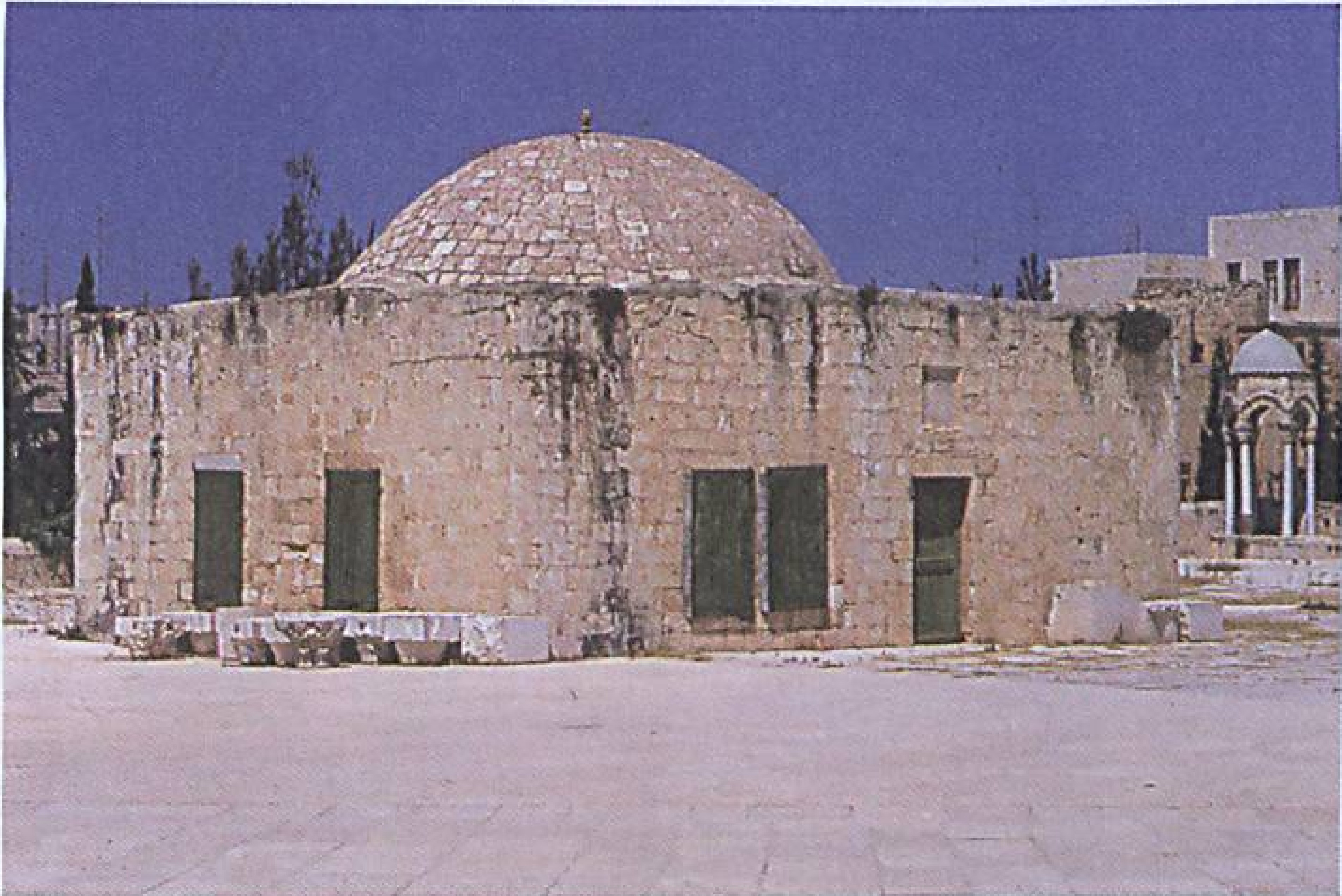


Photo 12 Muhammadiyya Zawiya

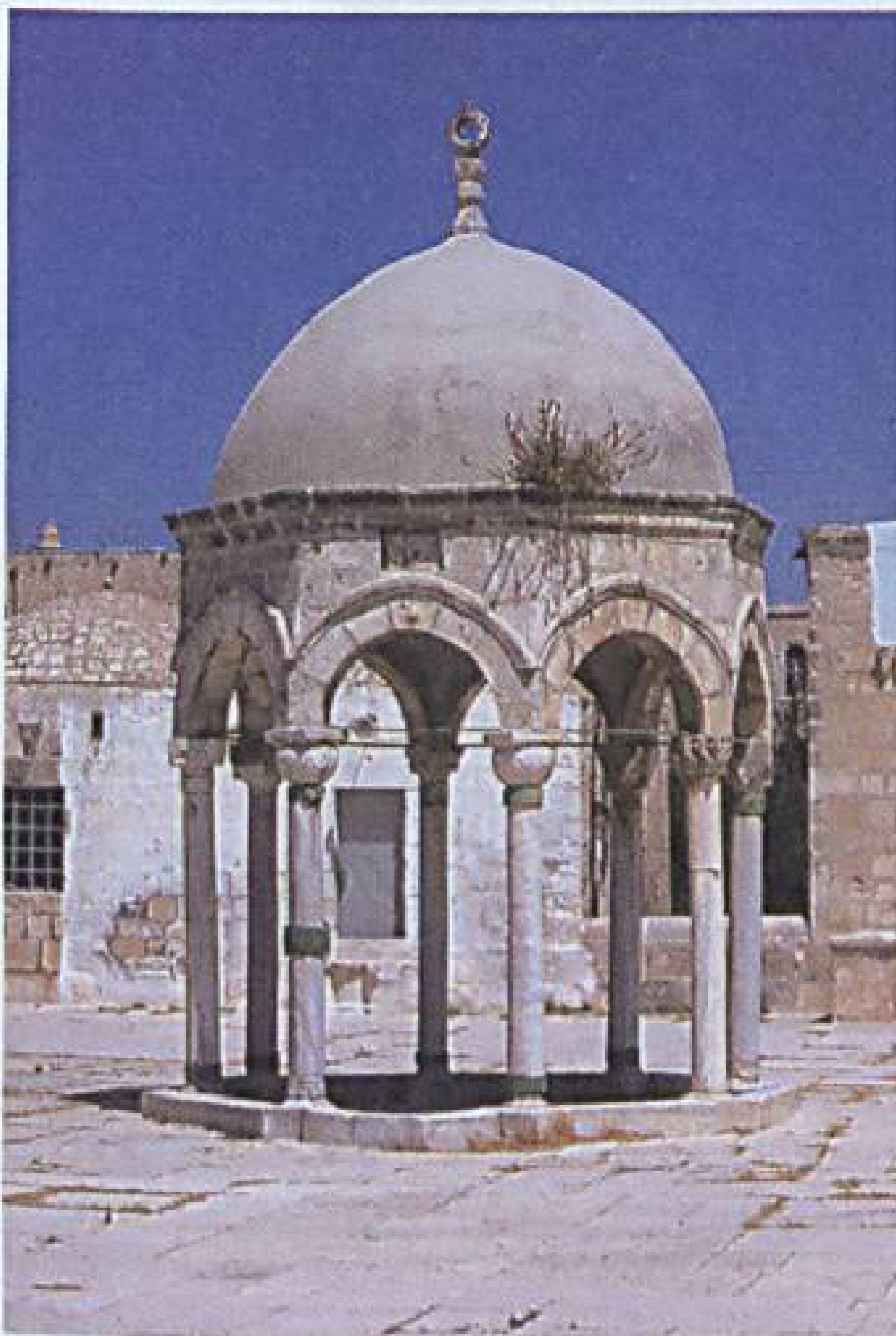


Photo 13 Qubbat al-Arwah

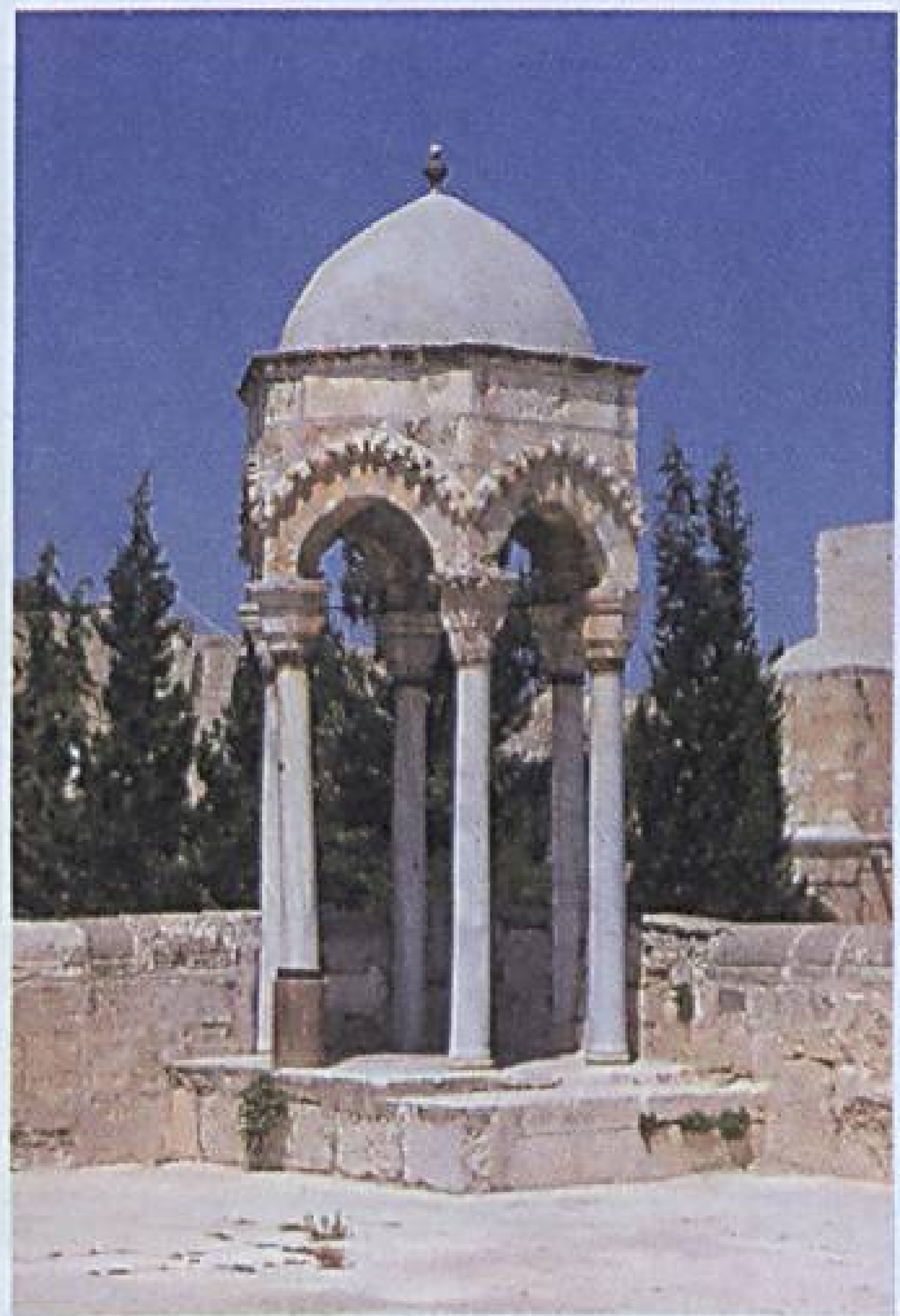


Photo 14 Qubbat al-Khidr



Photo 10 Northwest *khalwa* of Ahmad Pasha (ca.1007/1598)



Photo 11 Hujrat Muhammad Agha (996/1588) Hujrat Muhammad Amir Liwa al-Quds (956/1549?)

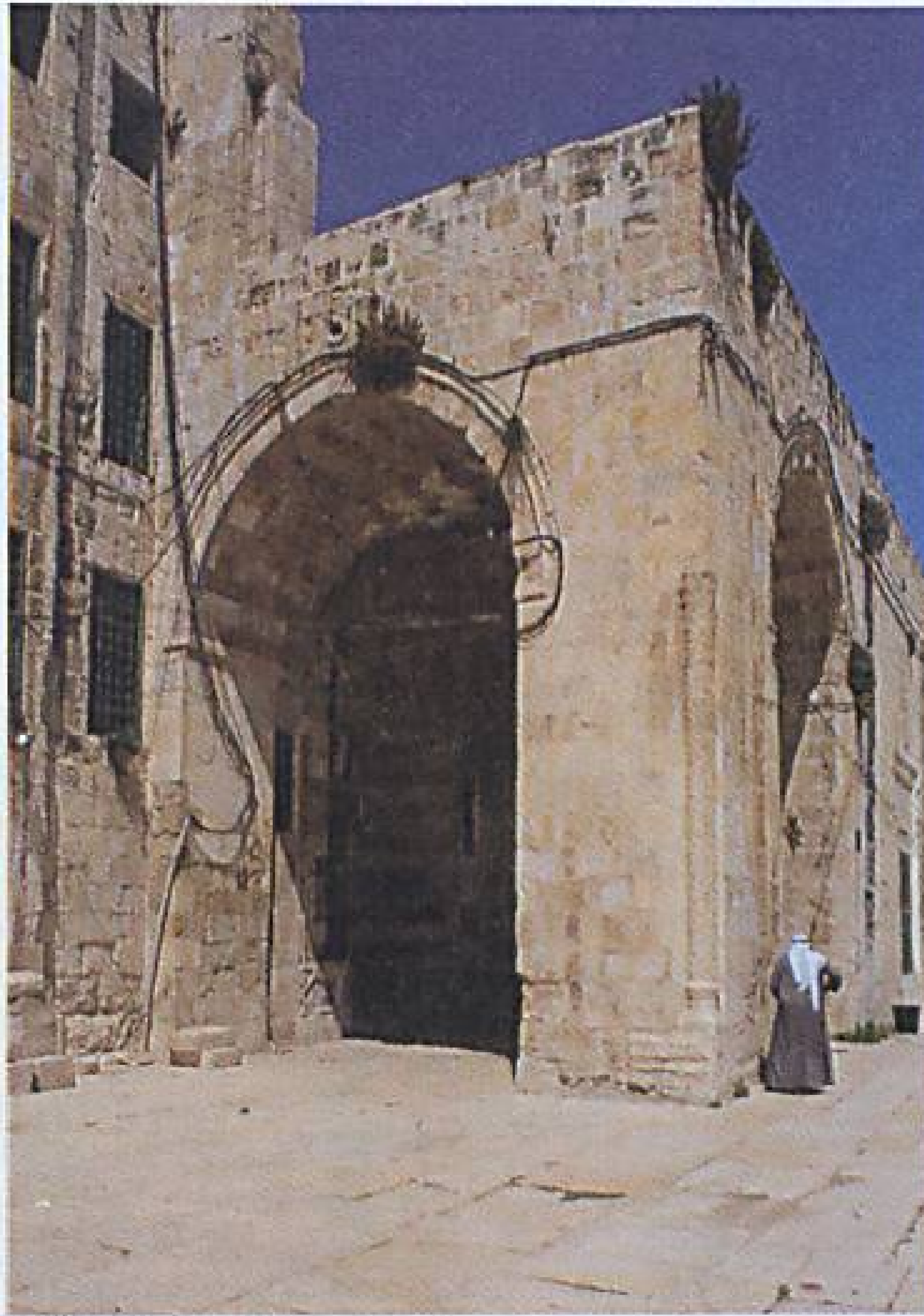


Photo 8 Madrasa of Qa'itbay projecting from the west border of the Haram

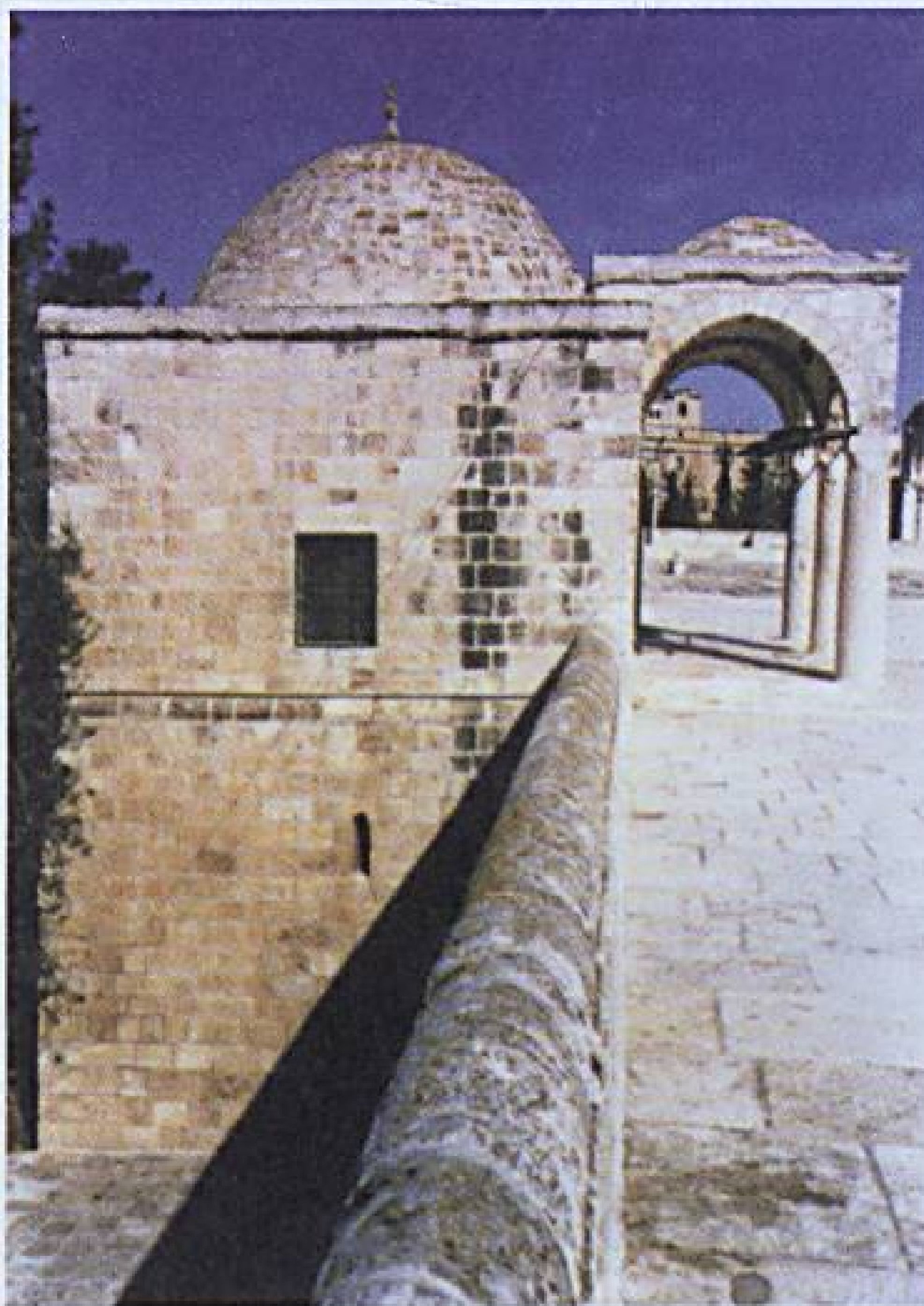


Photo 9 Hujrat Islam Beg (1002/1593-94)



Photo 7

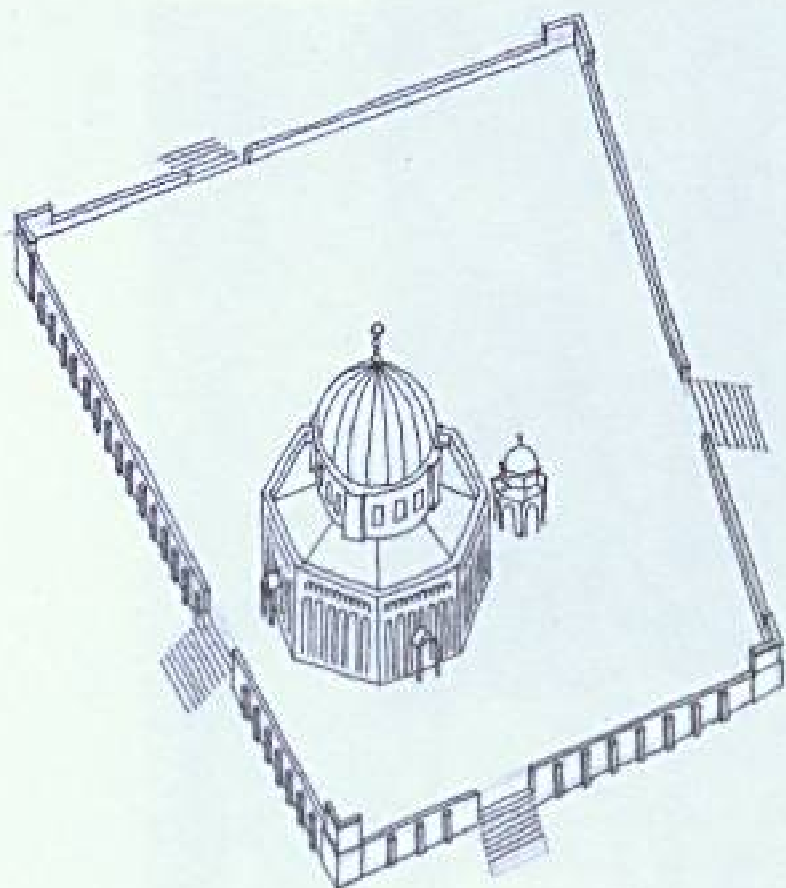


Figure 1 The upper terrace as it may have appeared in Umayyad times

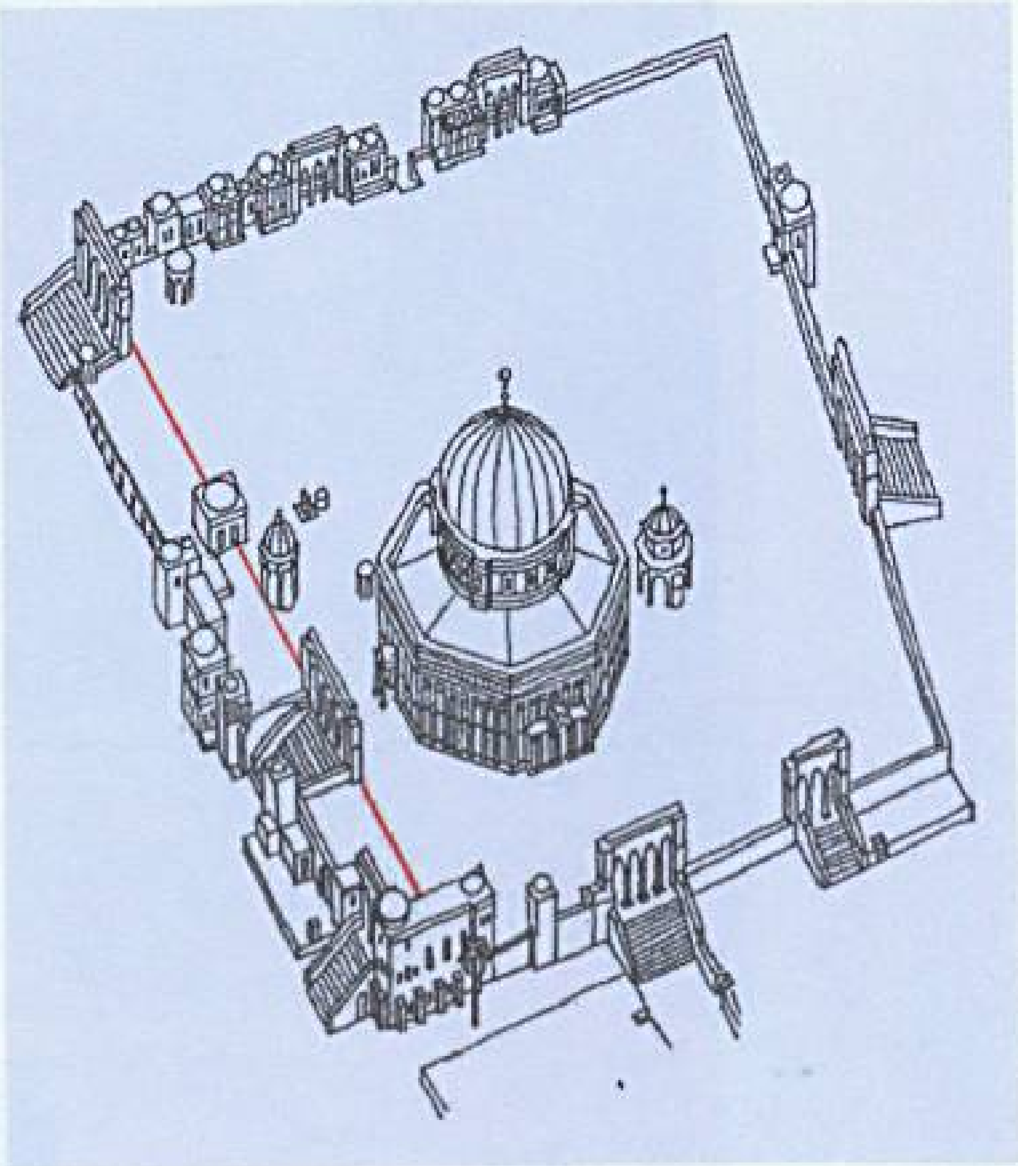


Figure 2 The upper terrace as it is today with the line in red marking the junction between the Umayyad upper terrace and the Ayyubid extension



Photo 5 Sabil Bab al-'Atm (943/1537)

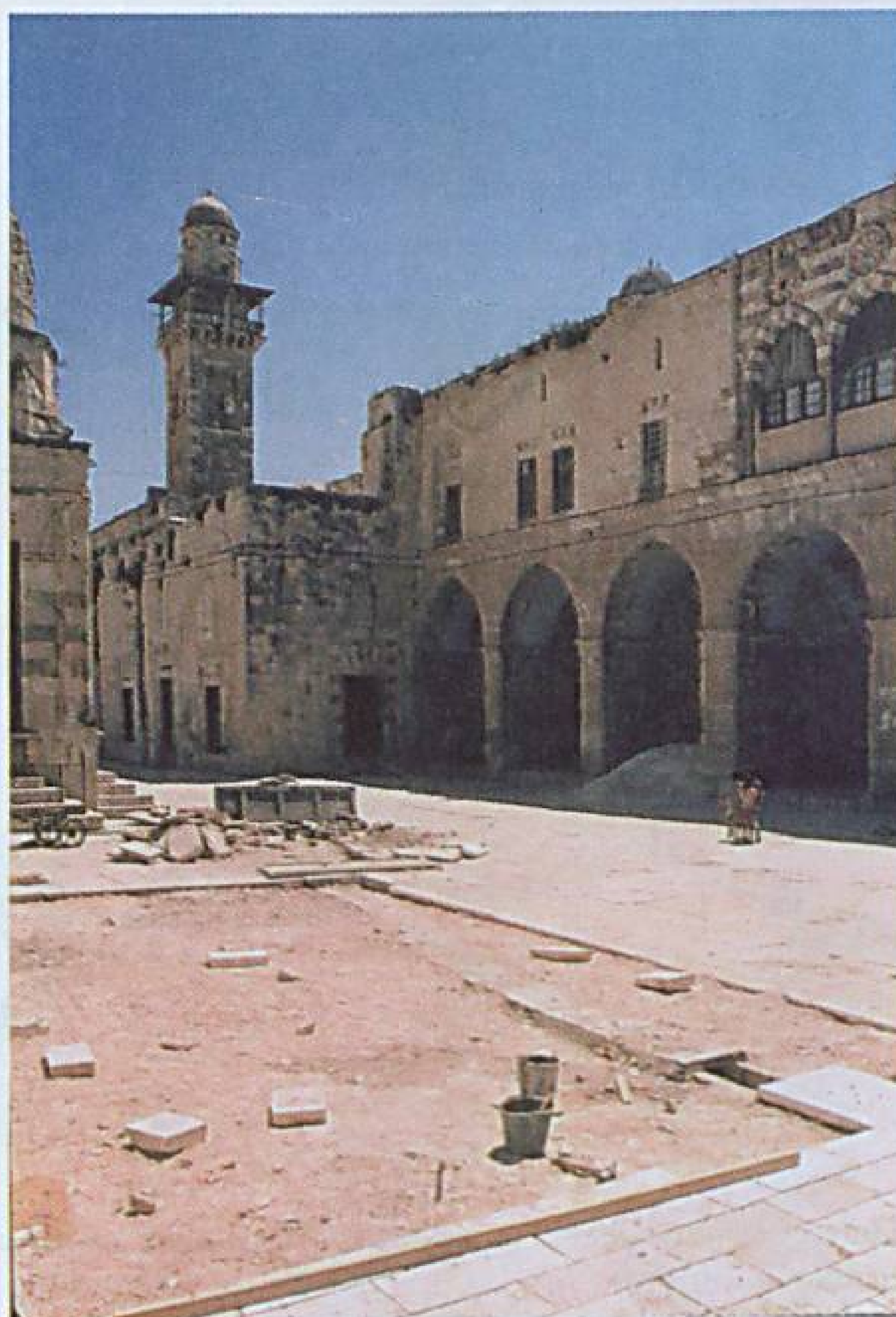


Photo 6 Aqueduct leading to the northern part the Haram exposed during pavement repairs



Photo 3 Stork Tower (Burj al-Laqlaq) at the northeast corner of the city wall



Photo 4 Sabil Qasim Pasha (933/1527)

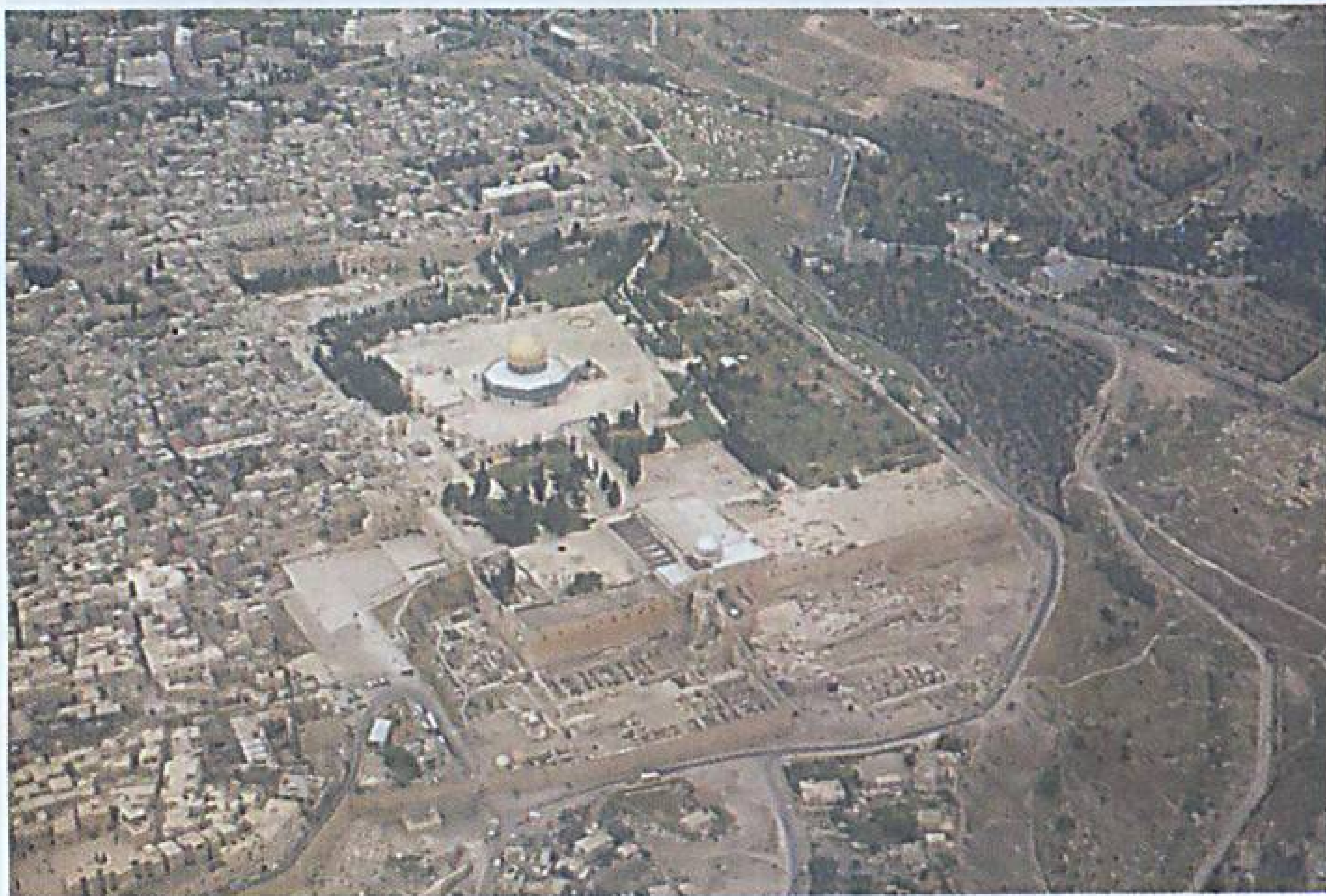


Photo 1 al-Haram al-Sharif



Photo 2 Dome of the Rock from the north

Istanbul—Jerusalem's religious significance remained vitally important, as the provision of places of retreat, learning and Qur'an reading shows. The conscientious conservation —and embellishment— of the Haram over the centuries, including the Ottoman centuries, has preserved the third holiest site of Islam in excellent condition, just as the Old City itself, consisting largely of Ottoman buildings, survives remarkably intact except for the wholesale reconstruction of the Jewish Quarter. Robert Hillenbrand has observed that Jerusalem has managed to retain—against all the odds—its physical integrity. It simply works as a traditional Middle-Eastern city long accustomed to welcoming visitors and pilgrims (Photo 18).

bathhouse furnaces used as pozzolanic additive to ensure a rapid set for plaster floors or for waterproofing domes. The roughly-pecked tooling of some wall surfaces was intended to allow a mortar render to adhere better to the surface, but the render has eroded away in the wet winter climate. Some idea of the appearance of these rendered façades may be gained from old photographs showing, for example, the Haram colonnades faced with render and decorated with painted patterns applied during the reign of Sultan Abdulaziz (Photo 16).

There are a number of issues concerning these Ottoman structures on and around the upper terrace that remain to be resolved, including the dates of construction of some of the retreats, notably on the west side, and of the domes on the upper terrace. Yusuf Natsheh has made a huge effort in studying Ottoman architecture in Jerusalem and has addressed the problems in a convincing matter-of-fact way. Doubtless further research in the *sijills* of the Ottoman court archives, augmented with additional architectural analysis—and reference to early photographs—will lead to a better understanding of these fascinating small structures. For instance, the photograph by Auguste Salzmann of 1857 shows the baroque dome on the Sabil Sha'lan, but Maxine du Camp's 1851 photograph shows a plain rubble dome (Photo 17).

Another area that seems to me to merit further study is the upper terrace itself. I think we now know the general history: built by the Umayyads and extended westward by the Ayyubids. The supporting walls of the Umayyad platform were buttressed on the south, east and north sides, but what was the now hidden west side like? If we look closely at the Muhammadiyya Zawiya (Figure 3), we see that it straddles the line of the west edge of the Umayyad upper terrace. In its basement, roughly where that west edge will have been, is a rock outcrop with, at its south end, a mihrab made up of reused crusader architectural fragments, suggesting a post-crusader date. I believe this basement enclosing the rock is part of al-Mu'azzam Isa's western extension. When the upper terrace was built in the Umayyad period the rock appears to have been left exposed, presumably the rock referred to in the sources as *bakhbakh*, "wonderful".

Finally, although Jerusalem was a political backwater, a small provincial town of little commercial importance at least until the very end of the Ottoman period—as indicated by the modest nature of the Ottoman development on the Haram, in complete contrast to the spectacular Ottoman monuments of

996/1588), or both father and son building on adjacent plots (Khalwat Parwiz Katkhuda and Khalwat Qitas Beg, 967/1559-60) (Photo 10). One individual in particular stands out as a major patron of building within the Haram: Ahmad Pasha, governor (*sanjak-beg*) of Gaza district, a post held by members of his family over several generations. He commissioned four buildings on the upper terrace, three *khalwas* built between 1007/1598 and 1010/1602, and the so-called Ahmadiyya Madrasa (1013/1604). According to Muhibbi he was "a friend of scholars and poets." He seems to have been financially independent, having ordered the restoration of the caravanserai at Khan Yunis at his own expense in his capacity as amir of the Syrian *hajj*. His buildings on the upper terrace are more elaborately decorated than almost any of the others and it has been suggested that they are the work of a well-known local architect, Abd al-Muhsin b. Mahmud b. Nammar. This family produced at least five generations of architects and thirteen of the seventeen holders of the post of *mimarbaşı* (Chief Architect) in the tenth and eleventh/sixteenth and seventeenth centuries in Jerusalem (Photo 11).

Besides these places of retreat, a variety of structures were erected on the upper terrace. One founded by another governor of Jerusalem, the Muhammadiyya Zawiya (1112/1700–01) (Photo 12), is remarkable in that it is quite a large but plain, freestanding building. It is exceptional in that it is the only freestanding building except for the Dome of the Rock, the Dome of the Chain, the Ayyubid Dome of the Ascension and three small Ottoman domes. These small, freestanding Ottoman domes are a prominent feature of the upper terrace, Qubbat al-Arwah (the Dome of Souls) (Photo 13), Qubbat al-Khidr (the Dome of al-Khidr) (Photo 14) and Qubbat al-Nabi (the Dome of the Prophet) (Photo 15), all basically similar in form and all as yet undated.

It must be confessed that even the best of the Ottoman buildings on the Haram, in terms of architectural quality, are well below the standard of the surrounding Mamluk architecture. The scale is modest; the decoration tends to be fussy and tentative, salvaged material is reused in a cavalier fashion that often diminishes its architectural effect, and the quality of the actual construction can be indifferent. The materials used were similar: local stone including coloured stone used to produce polychrome *ablaq*, marble salvaged from earlier structures or possibly imported directly from Istanbul in the form of ready-made *muqarnas* column capitals, mortar made with quicklime and sand, often with the addition of ash (*qusurmil*) from the

Ayyubid

Dome of the Ascension;
Dome of the Balance;
"Grammar School"
westward extension of upper terrace
including various water installations (Figure 2);

Mamluk

Two new arcades on the north side and one on the south end of the west side
"Summer Pulpit" (by Qadi Burhan al-Din)

The whole Haram, including the upper terrace, seems to have been treated as sacrosanct by the Mamluks, who, apart from improvements to the water supply —a constant concern— undertook only repairs or minor alterations to the buildings there. However, an exception was Sultan Qa'itbay, whose madrasa was built right at the end of the Mamluk period projecting into the Haram from the west border, the only building to do so (Photo 8).

Whether or not this was seen as a precedent, the Ottomans began more than 50 years later in 956/1538–39 to build within the Haram on a scale not seen since the Ayyubid period (Photo 9). What they built were small structures called variously *khalwa, oda,* or *hujra*: places of retreat. The form is always the same: a vaulted substructure built on the Haram esplanade to provide support for one or two domed chambers entered from the upper terrace, initially at the north retaining wall of the upper terrace but later at the west wall and, in the unique example of the Ahmadiyya Madrasa (1013/1604), at the east wall. The domed chambers were architecturally embellished, often with a two- or three-bayed portico facing the Dome of the Rock. These upper domed chambers were established as places for teaching Islam, including Qur'an recitation, while the lower floor, with its own separate entrance and no direct connection with the upper level, was often reserved as living accommodation, sometimes with a small garden attached, which the resident was permitted to cultivate and use.

The founders of these places of retreat were local dignitaries, often governors (*amir liwa*) of the district of Jerusalem. Several were family affairs, with a son building at the request of his father (Hujrat Muhammad Agha,

Early in his long reign the main aqueduct supplying water to Jerusalem was repaired and two water fountains (*sabil*s) were added near the entrance gates where none previously existed to provide the faithful with water for drinking and for ablution on entering the sacred precinct. Both are sunk below the level of the Haram esplanade (Photo 4-6), apparently to gain access to running water in the north branch of the aqueduct in the Haram. The Ottomans generally followed the Hanafi doctrine of Islam, which prefers running water for ablution.

Later, especially from the 11/17th century onwards, additional water fountains, various prayer niches (*mihrab*s), prayer platforms (*mastaba*s) and other structures were added on the Haram esplanade (Photo 7).

I intend to focus not on this lower esplanade but on the upper terrace, built around the Dome of the Rock, where the Ottomans located the majority of their buildings in the precinct. This upper terrace has received little scholarly attention, but our research reveals a long history, more complex than previously thought. Let us review that history before considering the Ottoman contribution to it.

Pre-Islamic

nothing survives of the temples of Solomon and of Herod except for parts of the enclosing wall, dating from the time of Herod's enlargement of the precinct to its present area, nor of Roman structures erected in the precinct following the destruction of Herod's temple and much of its enclosing walls. The Byzantines neglected the precinct

Umayyad

Dome of the Rock;
upper terrace with stairs leading up to it;
Dome of the Chain (Figure 1)

Abbasid and Fatimid

two new staircases added (at the north end of the west side and at the south side) and new arcades at the head of all stairs to upper terrace

Crusader

cloister of the Augustinian canons somewhere on the north side of the upper terrace, of which nothing survives in place

The Development of al-Haram al-Sharif during Ottoman Rule

Michael Hamilton Burgoyne*

The history of building in Jerusalem's Noble Sanctuary (al-Haram al-Sharif) after the Umayyad transformation of the site is a complex one. Various shrines and commemorative structures are known from early historical sources but few of them have survived. Apart from the Umayyad Dome of the Rock, Dome of the Chain and Aqsa Mosque and, from the Abbasid and Fatimid periods, two new stairways leading to the upper terrace and the arcades added at the head of all the stairways, the earliest surviving buildings are Ayyubid, usually incorporating large quantities of crusader material. The Mamluks concentrated their activities almost exclusively on the north and west Haram borders, almost as if they wanted to leave the sacred precinct untouched with nothing to detract from the awe-inspiring impact of the major monuments.

When the Ottomans entered Jerusalem in 922/1516 they found the Haram al-Sharif in good condition. They must have marvelled at the intensive Mamluk development on the north and west borders that remain impressive to this day. Admittedly, the outer decoration of the Dome of the Rock was poorly preserved, having been left to deteriorate in the winter rains since the mosaics had last been repaired in 695/1295–96, presumably because of the high cost of repairing the mosaics and the lack of skilled craftsmen to do the work. The east and south Haram walls, coterminous with the city wall, while better preserved than the remainder of that wall, also required repairs. As is well known, the exterior mosaics of the Dome of the Rock were replaced with faience tiles and the city wall was rebuilt in the reign of Sulayman the Magnificent (926-974/1520–1566) (Photo 2-3).

Little else was done by the Ottoman Sultan Sulayman in the Haram.

* Dr., Senior Architect, Historic Scotland

Presentations

importance of its subject for the Organization. It highlights the multi-faith cultural and architectural heritage of al-Quds during the 19th and early 20th centuries. In 2010 IRCICA published another book, the two-volume study by Mohammed Ghosheh, on the Islamic Endowments in Jerusalem. Furthermore, for many years now IRCICA is also carrying out long-term programs of research, practical and educational activities on al-Quds urban and architectural heritage. One of them is the program titled "Al-Quds/Jerusalem 2015" involving studies, recording and preservation of the city's Islamic heritage. With this ten-year program conducted since 2006 we aim to devise the modalities and develop conceptual preparations in contribution to preserving the Islamic heritage of Al-Quds and improving the Muslim quarters by mobilizing international expertise and technical collaboration. The program progressed well with seminars, reports and field missions; a book was published containing its research findings together with research articles by experts. Another activity related to al-Quds is the loading of data and descriptive information on the archeological sites and historical monuments of Jerusalem in the Islamic Architectural Heritage Database maintained by IRCICA. This is a brief review of our activities on al-Quds history and heritage.

The congress that led to this book was planned within the framework of the scholarly cooperation between the Government of Syria and IRCICA which has been continuing for years now. Cultural and scholarly events jointly organized earlier include the seminar on "Arabesque in Traditional Crafts of Islamic Countries" (1997) in the context of IRCICA's Handicrafts Development Program and the congress on "Bilad al-Sham During the Ottoman Era" (2005) in the context of IRCICA's congress series on the history of the Muslim world during the Ottoman period.

The 2009 congress on al-Quds history was placed under the patronage of Prime Minister Mr. Naji Otri, within the framework of the program "Damascus Capital of Arab Culture, 2009". Some other features of it are noteworthy. Two exhibitions organized by IRCICA were opened on the occasion, of Ottoman archive documents and historical photographs from IRCICA's archives, respectively. Another feature of the congress was the two "Working Sessions on the Present State of Al-Quds City" which were held on the last day in which I had spoken of the importance of the Islamic cultural and architectural heritage of al-Quds as the tangible assets and permanent bearers of the city's Islamic identity and the urgency of the need to preserve them. The congress as a whole addressed a wide range of subjects relevant for the development of research and raising of public consciousness on the history and the heritage of al-Quds.

I wish to convey my thanks and appreciation to the Government of Syria, particularly the Ministry of Culture and Minister H.E. Dr. Riad Nassan Agha, for the collaboration extended in the organisation of the congress. I would like to express my appreciation to all those who contributed to the congress and to this book with their studies; we hope to collaborate with them in future activities on the subject.

Preface

Dr. Halit Eren
Director General, IRCICA

This book will hopefully be a valuable addition to the literature on the history of al-Quds and serve the ongoing cause of al-Quds/Jerusalem in more than one way. Resulting from a congress held under the same title, the book represents a collective effort around sources and studies on the history of al-Quds that aims at increasing the knowledge and deepening the understanding of this history, appraising the state of research on the subject and creating a collaborative platform for further development of studies. Furthermore, the congress and the book once more highlight several aspects of al-Quds calling for consciousness about its cause in world opinion. For its part IRCICA, in its capacity as the subsidiary centre of the 57-member OIC in charge of research on Islamic civilization, architectural preservation and international cooperation, devotes a number of activities to al-Quds. The cause of al-Quds and Palestine is the founding motive of the OIC and therefore also the foremost mission IRCICA serves. As is known, the urgency of preserving Islamic heritage of al-Quds continues to grow day by day. In dealing with this issue of deep concern for Muslims, IRCICA organizes research programs, conferences and field studies, produces scholarly and technical reports and disseminates this documentation worldwide. The congress which resulted in this book was organized in this view jointly with the Ministry of Culture of Syria, in Damascus, in 2009. Its papers are published here in their original language.

From the beginning of its activities IRCICA gave importance to developing research on al-Quds history and heritage. Concerning the Ottoman period it based its studies on the documents of the Ottoman State contained in the Ottoman Archives (Istanbul) attached to the Turkish Prime Ministry. Its first publication resulting from these studies was titled *Muslim Pious Foundations and Real Estates in Palestine* (1982). These studies continued; at present IRCICA carries out a general survey of these official documents in order to compile comprehensive documentation on the history of Al-Quds in the past centuries. This is one section of its archival and documentation activities on the subject of al-Quds. Another section is related to the Yıldız Photograph Albums dating from the reign of Sultan Abdulhamid II that are part of IRCICA photograph archives. Photographs selected from these archives were included in the annotated album which was published in 2009 in English, Arabic, and Turkish editions which contains a total of 468 photographs. This album was published on the 40th anniversary of the OIC on account of the

Contents



OIC | Organisation of Islamic Cooperation
IRCICA | Research Centre for Islamic History, Art and Culture

Yıldız Sarayı, Seyir Köşkü, Barbaros Bulvarı
Beşiktaş 34349 İstanbul, Türkiye

PHONE | +90 212 259 1742
FAX | +90 212 258 4365

ircica.org
ircica@ircica.org

PROCEEDINGS OF THE INTERNATIONAL CONGRESS ON AL-QUDS DURING THE OTTOMAN ERA: DAMASCUS, 22-25 JUNE 2009

STUDIES ON AL-QUDS AND PALESTINE | 3

ISBN 978-92-9063-244-3

ISTANBUL 2012

CATALOGUING IN PUBLICATION DATA

International Congress on al-Quds during the Ottoman Era (2009: Damascus, Syria)
Proceedings of the International Congress on al-Quds during the Ottoman Era: Damascus, 22-25 June 2009 =Buhuth al-Mutamar al-Dawli Hawla al-Quds fi al-Ahd al-Uthmani... / edited by Halit Eren.- Istanbul: Research Centre for Islamic History, Art and Culture, 2012.
49, 207 p.: col. ill., plan; 24 cm.- (Studies on al-Quds and Palestine; no.3)
Includes bibliographical references.
Text in English and Arabic.
ISBN 978-92-9063-244-3
1. Jerusalem (Palestine)--History--Ottoman period, 1517-1917--Congresses. 2. Jerusalem (Palestine)--Congresses. I. Eren, Halit, 1953- II. Title. III. Series.
956.944203--dc22

EDITOR | Dr. Halit Eren

PREPARED FOR PUBLICATION BY | Zeynep Durukal, Dr. Salih Sadawi, Dr. Güler Doğan Averbek

BOOK DESIGN | Muhammed Nur Anbarlı muhammednur@gmail.com

PRINTING AND BINDING | Ultra Grafik info@ultramatbaa.com



RESEARCH CENTRE FOR ISLAMIC HISTORY, ART AND CULTURE

Proceedings of the International Congress on

al-Quds during the Ottoman Era

Damascus, 22-25 June 2009

Istanbul 2012


IRCICA



RESEARCH CENTRE FOR ISLAMIC HISTORY, ART AND CULTURE

Proceedings of the International Congress on

AL-QUDS DURING THE OTTOMAN ERA